© أوراق فلسطينية

تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات

رئيس التحرير: يحيى يخلف

مدير التحرير: غسان زقطان

مستشار التحرير: فيصل دراج

يشارك في التحرير: عبد الفتاح القلقيلي
أحمد نجم

ادارة: وليد قنة

التصميم الفني والإخراج: عاصم ناصر

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة ياسر عرفات

ISBN 978-9950-375-04-8

AWRAQ FELASTINIA

أوراق فلسطينية

فصليّة فكريّة عربيّة تصدر عن مؤسّسة ياسر عرفات

العدد «٣٣» خريف ٢٠٢٣

المراسلات:

العنوان: ص. ب: ٥٧٣

رام الله – فلسطين

هاتف: ٢٩٥٧٣٧٣ – ٩٧٠٢ + / ٢٩٥٧٣٧٢ – ٩٧٠٢ +

Email: awraq.falastinya@gmail.com

www.yaf.ps/awraqfelastinia

الاشتراكات السنوية:

٥٠ دولاراً للأفراد، ٨٠ دولاراً للمؤسسات (بما فيها نفقات البريد)

ترسل الاشتراكات شيكاً إلى العنوان البريدي أو حوالة بنكية على حساب المؤسسة:

البنك العربي

رام الله – فلسطين

فرع الماصيون

رقم الحساب: ٥١١ – ٤٨٠٢٥٢ - ٩٠٩٠

Ps 57 arab00000000090480252510

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

الافتتاحية

٧ شعب واحد في مواجهة الاحتلال

موحدون في المواجهة - ملف

١٣ الأبعاد الدولية للحرب العدوانية على غزة

عبد الغني سلامة

٢١ طوفان الحرب والاعلام

عماد الأصفر

٣١ صراع التعديلات القضائية [الحد من المعقولية]
إعادة بناء جدار ديمقراطية صهيون أم نهاية الهيكل الثالث

شذى يحيى

٤٣ دولة الاحتلال الإسرائيلي – إلى أين

عليان الهندي

٥٥ مبدعون شهداء في حرب غزة

بديعة زيدان

٧٣ غزة بعيونٍ سينمائية غربية كسرت الحصار

يوسف الشايب

أوراق عربية

٩٣ تاريخية الجامعة العربية وفلسطين

رضوى عبد القادر

١٠٣ مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية

د. نجلاء مكاوي

أوراق الذاكرة

١١٥ الاتحاد العام لطلبة فلسطين ...ألمانيا فرع أوروبا الأول

أ.حسام أبو النصر

الآراء الواردة تعبر عن رأي الكتّاب، وهي لا تعبر بالضرورة عن رأي المؤسسة.

الفهرس

١٣٣ فتح من البندقية إلى السرداب، القاهرة،
الهيئة العامة للكتاب، سلسلة «تاريخ المصريين» (٣٣٥)، ٢٠١٩
مريم ياسر

١٤٣ الفكر الوطني الثوري في الممارسة
مختارات من ندوات وخطب ومداخلات الشهيد أبو إياد
محمد البريم

أوراق ثقافية

١٥٥ صورة السجن في السيرة الذاتية الفلسطينية .. دراسة في بلاغة الخطاب
أحمد عزيز

١٦٧ المثقفون حُداة الثورة الفلسطينية
عبد القادر ياسين

١٧٣ رواية جمال الحسيني (على سكة الحجاز) فلسطين.. المدنية والمدينة، وقَدَر الجغرافيا
فراس عبيد

١٧٩ أعمال نجيب محفوظ في السينما.. مراوحة بين الأفلام الفنية والتجارية
سعد القرش

كتب وتقارير

١٩٣ مؤتمر محمود درويش: سردية الماضي والحاضر
أماني جهاد حمودة

أوراق المؤسسة

٢١٣ الذكرى السنوية التاسعة عشرة لاستشهاد الرئيس المؤسس

شعب واحد في مواجهة الاحتلال

منذ السابع من تشرين أول/ أكتوبر الماضي، يتعرض شعبنا لعدوان دموي شامل يستهدف إلغاء الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني وتهجيره من وطنه وفرض الحل العسكري الاحتلالي على المنطقة، مدعوماً بمشاركة وحماية وتسليح وغطاء أمريكي غربي غير مسبوق. وفي هذا العدوان المستمر حتى كتابة هذه السطور تم تخطي كل القوانين والشرائع والقرارات الدولية، حيث يتم قتل المدنيين وهدم المباني السكنية واستهداف الأطفال وفرض التهجير القسري داخل غزة أولاً وقصف المساجد والكنائس والمستشفيات والمدارس ومقرات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين، ناهيك عن قطع الماء والكهرباء والوقود والاتصالات وتشديد الاغلاق والحصار، وكل ذلك يشكل جرائم حرب متراكمة وحرب إبادة وتطهير عرقي، ويتزامن كل ذلك مع سقوط مروع لمنظومة القيم والأخلاق وحقوق الانسان التي طغت على الخطاب الغربي عموماً، وليتحول كل ذلك إلى عنصرية وازدواجية المعايير إزاء معاناة الشعب الفلسطيني، وللأسف الشديد فقد جرى شيطنة شعبنا وحقه في الحرية تحت مسميات متطرفة وإعطاء قيمة إنسانية أقل لحياتنا لتبرير جرائم الاحتلال الإسرائيلي المنقولة على الهواء مباشرة أمام بلادة وتحجر وبلاهة مواقف بعض الحكومات الغربية.

إن ما جرى في السابع من تشرين أول/ أكتوبر يأتي في سياق رد فعل شعب رزح تحت الاحتلال والحصار والقتل لعشرات السنين، ولا يمكن أن يشكل هذا الحدث الهام مبرراً لحرب إبادة يقودها الاحتلال الإسرائيلي مع حاملات طائرات وبوارج وجسر جوي تسليحي أمريكي، ولا يبرر تقاطر رؤساء دول ووزراء غربيين لدعم حكومة الاحتلال التي كانت تمارس كل أنواع القتل والتدمير قبل هذا التاريخ، وارادت السياسة الأمريكية ومعها حلف غربي غير مقدس أن تقتلنا مرتين بتكرار مقولة "حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها" متجاهلة إن الاحتلال لا يملك حق الدفاع عن النفس فهذا الحق في الأصل يعود للشعب الواقع تحت الاحتلال.

لقد مارست حكومة الاحتلال قبل هذه الحرب الظالمة كل الخروقات الجسيمة للقانون الدولي والقانون الإنساني؛ توسع الاستيطان الاستعماري، تدنيس المسجد الأقصى وباحاته وكذلك الأمر بالنسبة لكنيسة القيامة، زيادة وتيرة هدم البيوت، الزج بالمئات من الفلسطينيين في سجون الاحتلال، الاجتياحات اليومية للمدن والقرى والمخيمات وارتقاء العشرات من شبابنا، قرصنة أموال المقاصة، احتجاز جثامين الشهداء... كل ذلك مضاف إليه تقطيع أوصال الوطن بالحواجز العسكرية وتوزيع السلاح على المستوطنين ورعاية تدريبهم واعتداءاتهم المتزايدة على مدننا وقرانا...، وكان من الطبيعي أن يكون الانفجار بالرد على هذه الإجراءات، حتمياً وبأشكال مختلفة.

إن العدوان الاحتلالي الدموي المستمر لم يعد موجهاً ضد فصيل بعينه، بل أصبح شاملاً ضد الشعب الفلسطيني في غزة والضفة بما فيها القدس، وعلى الأسرى البواسل عبر اجراءات قمعية غير مسبوقة أوقعت خمس شهداء منهم خلال العدوان (حتى كتابة هذه الافتتاحية)، لذا فإن الجميع مطالب برص الصفوف وتمتين الوحدة ونبذ الخلاف وكل أصوات الفتنة والتشرذم، لمصلحة الصمود والثبات والتمسك بالحقوق وكسر العدوان والانتصار عليه.

لقد تهربت حكومة الاحتلال قبل هذا العدوان ومعها الإدارة الأمريكية من مواجهة استحقاق الحل السياسي للصراع، وحاولت القفز نحو التطبيع مع بعض الحكومات العربية باعتبار أن الاحتلال ليس مشكلة، وذهبت الولايات المتحدة لصراعها مع روسيا والصين وتفكيك الوحدة الأوروبية بإنهاكها في الحرب في أوكرانيا... واذا بكل هذا يختفي فجأة وتعود فلسطين كالعنقاء، القضية العالمية الأولى، ليصبح دم أطفال غزة واستهداف مستشفيات غزة، ومخيمات جنين وطولكرم ونابلس، على طاولة العالم، باعتبار أنه لا سلام ولا أمن ولا استقرار لأحد دون تحقيق الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني بإنهاء الاحتلال وتجسيد الاستقلال بدولتنا المستقلة على حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧، وعاصمتها القدس الشرقية.

نحن في مفصل تاريخي وفي لحظة مصيرية، فهناك مشروع احتلالي يهدف لإنهاء قضيتنا الوطنية، وفي المقابل فإن شعبنا الصامد المرابط المصاب بالأمل والصمود، والمصّر على حقه، والبقاء فوق أرضه حراً كريماً، مهما بلغت التضحيات، وفي هذا الوقت المفصلي، يجب التأكيد على مايلي:

أولاً: الأولوية المطلقة هي وقف العدوان، فقطرة دم فلسطينية تبقى أغلى من الدنيا ومافيها، ونحن شعب واحد موحد في مواجهة الاحتلال والقتل والاستيطان.

ثانياً: أن الاستحقاق السياسي والتمثيل الوطني الفلسطيني لايمكن أن يكون إلاّ من خلال منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد لشعبنا. تطوير أدائها وتفعيل أطرها مطلوب، ولكن الحقوق والتمثيل وجهان لعملة واحدة، والتشكيك بالتمثيل في خضم المعركة خطيئة.

ثالثاً: لا للتهجير مهما كانت الضغوط والتضحيات، وموقف كل من مصر والأردن مهم ومقدّر برفضهما للمخططات الإسرائيلي والضغط الأمريكي بهذا الخصوص.

رابعاً: لا للحلول المتجزئة، ويجب الدخول بآليات محددة لإنهاء الاحتلال ضمن حل سياسي شامل يؤكد على انجاز الاستقلال الوطني في غزة والضفة بما فيها القدس، كوحدة جغرافية واحدة معترف بها عربياً ودولياً.

خامساً: إن تاريخنا وتاريخ المنطقة لم يبدأ في السابع من تشرين أول/ أكتوبر الماضي، بل إن هذه المحطة، تأتي في سياق عدوان واحتلال مستمرين، وجب وضع حدّ لها، بشكل شمولي وعاجل.

أثبت تاريخ الصراع، بأن الحل العسكري مصيره الفشل، فالاحتلال وقّع اتفاقات سلام واتفاقات تطبيع مع بعض الحكومات ولكنه دون أمن أو استقرار، وكذلك الأمر في المنطقة والعالم، وان تحقيق السلام يمرّ فقط من بوابة تحقيق الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني.

سادساً: إن ضمير الأمة وضمير الإنسانية قد تجلى بمظاهرات عارمة غصّت بها شوراع وساحات المدن العربية والعالمية مناصرة وتضامناً مع فلسطين، وشعبنا يحيي ويقدّر هذا الموقف الأخلاقي المتزايد.

سابعاً: إن حياتنا مهمة كحياة كل إنسان في هذه المعمورة وإنّ نضالنا الوطني مشروع كفلته لنا كل القوانين والشرائع الدولية، وإن الإرهاب هو الاحتلال وعدوانه وقتله وحصاره واستيطانه.

ونحن لا نخوض حرباً دينية رغم زجّ الاحتلال بالدين لتغطية عدوانه، بل أنه حق طبيعي لشعبنا لمقاومة الاحتلال وإنهائه.

ثامناً: نؤكد على صمود ووحدة شعبنا وإصرارنا على الحرية والاستقلال في مواجهة الرواية الصهيونية الزائفة، والاحتلال الاستعماري الاستيطاني وإجراءاته الظالمة.

الاحتلال إلى زوال

وشعبنا منتصر بإذن الله

إدارة المؤسسة

موحدون في المواجهة

ملف

الأبعاد الدولية للحرب العدوانية على غزة

عبد الغني سلامة*

مقدمة

في السابع من أكتوبر اقتحمت قوة كبيرة من مقاتلي القسام التابعة لحماس معسكرات ومستوطنات غلاف غزة، في هجوم جسور نجم عنه مقتل نحو ١٤٠٠ إسرائيلي، وأسر نحو ٢٤٠ آخرين..

الأمر الذي استدعى من إسرائيل إعلان الحرب، وتجنيد نحو نصف مليون مقاتل بين نظامي واحتياطي، والبدء بعدوان عنيف وغير مسبوق على قطاع غزة، مارس خلاله الجيش كل جرائم الحرب من قصف وقتل وتدمير طال المدنيين، وأدى إلى استشهاد نحو ١٢ ألف فلسطيني أغلبيتهم الساحقة من المدنيين.

هذه الحرب العدوانية تختلف كليا عن سابقاتها، وتشكل نقطة مفصلية في تاريخ الصراع ومستقبل المنطقة، ليس بسبب شدتها وحسب، بل وبسبب المخططات الإسرائيلية والأمريكية التي لا تستهدف قطاع غزة وحده، بل تستهدف الشعب الفلسطيني كله، وسيكون لها تداعيات بالغة الأهمية على القضية الفلسطينية، ومستقبل التسوية، وخارطة الشرق الأوسط عموما. وأيضا بسبب أبعادها الدولية والإقليمية، واحتمالات توسعها، ودخول أطراف أخرى للحرب، حتى لو كان ذلك بشكل غير مباشر.

أمريكا في المنطقة من جديد

لم يشكّل وصول حاملة الطائرات الأمريكية والبوارج البريطانية إلى شرق المتوسط مفاجأة؛ المفاجأة كانت في سرعة الاستجابة؛ إذ بدأ تحرك الأساطيل الأمريكية منذ اليوم الأول للحرب. وفي السياق ذاته لا يجب أن نتفاجأ بهذا الحجم الكبير من التضامن الأوروبي والأمريكي مع إسرائيل، وإن كان

* كاتب فلسطيني

هذا الدعم غير مسبوق من حيث زخمه وسرعته؛ إلا أن أهدافه الإستراتيجية معروفة: حماية إسرائيل، ببساطة لأنها صنيعة الغرب الاستعماري، ومشروعه الإستراتيجي الذي أشرف على بنائه بأدق التفاصيل، وأنفق عليه تريليونات الدولارات..

أما الهدف الآني من التواجد العسكري الأمريكي في المنطقة فهو حتما ليس القضاء على حماس، أو قصف وتدمير غزة.. فهذا الهدف يتكفل به الجيش الإسرائيلي بمفرده، وسبق له فعل ذلك في جميع الحروب السابقة، دون الحاجة لهذا الدعم الأمريكي والأوروبي المباشر.. وحسب تصريحات القادة العسكريين والسياسيين الأمريكان، فإن الهدف هو ردع إيران (وحزب الله) من استغلال الوضع وضرب إسرائيل، سيما وأن حزب الله يمتلك قدرات عسكرية تفوق أضعاف قدرة حماس، ومن الممكن أن تشكل تهديدا جديا لإسرائيل، ولأنَّ أمريكا تتخذ كافة الاحتياطات، وتضع في حسبانها كل الاحتمالات، ولا تترك شيئا للصدفة أو لتطورات خارجة عن السيطرة، فمن البديهي أن تحضر بنفسها إلى المنطقة، وتشرف على سير المعارك.

أما الهدف الذي سبق الإعلان عنه، فهو إعادة ترتيب خارطة الشرق الأوسط، فأثناء خطاب نتنياهو أمام الجمعية العامة في أيلول المنصرم، رفع خريطة لمنطقة الشرق الأوسط فظهرت منطقة واسعة باللون الأخضر تشير إلى الدول التي وقعت معاهدات سلام مع إسرائيل أو في طريقها إلى ذلك، وقال: "سيتغير الشرق الأوسط كله، وإن ذلك سيبني ممرا من السلام والرخاء يربط آسيا عبر الإمارات والسعودية والأردن وإسرائيل وصولا إلى أوروبا".

فما هي تلك الخارطة الجديدة؟ ومن سيغير؟ وماذا سيتغير؟

إعادة تشكيل المنطقة جيوسياسيا

قبل الحرب على غزة كانت تدور في الخفاء حرب عالمية صامتة بين الأقطاب الدولية المتنافسة، وأهمها الولايات المتحدة في مواجهة الصين، وتحالف البريكس، وهي حرب اقتصادية وتجارية وتكنولوجية وسيبرانية، وحرب أخرى متصلة بين روسيا من جهة، وحلف الناتو من جهة ثانية، وعنوان هذه الحرب وحيزها أوكرانيا، وتسعى روسيا (والصين) من خلالها إعادة بناء النظام الدولي، واستعادة روسيا لدورها ومكانتها، وتمركز الصين على قمة النظام بثقلها الصناعي والاقتصادي والتكنولوجي، الأمر الذي تحاربه الولايات المتحدة بشدة.

ولهذ الصراع الدولي تجليات عديدة، لكن تموضع القوى الإقليمية والعالمية على جانبي الصراع لا يتخذ أشكالا صارمة ونهائية، بل تتداخل فيه التحالفات على نحو معقد ومتشابك. فإذا تناولنا

إحدى تجليات تلك الحرب، سنجد صراعا وتنافسا حادا على الممرات المائية والطرق التجارية العالمية، بهدف السيطرة على مسارات تدفق الطاقة والبضائع والخدمات (عصب الاقتصاد العالمي)؛ والتي باتت تُعرف بحرب الموانئ.. قطباها: الولايات المتحدة ومعها الإمارات، الهند، إيران. وفي الجهة المقابلة روسيا والصين ومعهما باكستان، وقطر، وعنوان هذه الحرب الأبرز ميناءا "دبي" في الإمارات، و"غوادر" في الباكستان، إضافة إلى موانئ أخرى..

وبموازاة حرب الموانئ، وفي السياق ذاته اندلعت قبل عقد من الزمان حرب الطرق التجارية، حيث أطلقت الصين مشروعها العملاق والأضخم عالميا، المتمثل بطريق بري يصل الصين بالشرق الأوسط وبأوروبا بأقصر الطرق الممكنة، كلفها مليارات الدولارات، وجعلها أقرب إلى قلب العالم. وقبل فترة وجيزة أُعلن عن طريق بري بحري عملاق ليكون البديل والمنافس لطريق الحرير الصيني؛ يبدأ من الهند، ويمر بدول الخليج والأردن وينتهي بإسرائيل، وقد أعلن عنه نتنياهو في خطابه الأخير في الأمم المتحدة، حين قال: "سيتغير الشرق الأوسط كله، وسيُبنى ممر السلام والرخاء الذي يربط آسيا عبر الإمارات والسعودية والأردن وإسرائيل وصولا إلى أوروبا".

هذا الصراع وكل تلك المشاريع غير منزوعة عن سياق حرب أخرى سبقتها، دارت رحاها في سورية، وقد تبين أن من بين أهم أسبابها الصراع على أنابيب الغاز، وطرق توصيله، وكانت الأطراف اللاعبة في الصراع كلٌ من روسيا، إيران، أمريكا، قطر والتي هي أهم مصادر الغاز في العالم، بالإضافة لتركيا (الممر والناقل)، وأوروبا (المتلقي والمستفيد). وما زاد من حدة صراع الغاز، اكتشاف حقول غنية من الغاز على شرق المتوسط، تبدأ من قبرص وتنتهي بقطاع غزة.

دخول أطراف أخرى على الصراع

بالتدقيق في طبيعة التحالفات والاصطفافات على طرفي الصراع، وتحديدا فيما يسمى صراع الموانئ، سنجد مثلا باكستان وقطر منحازة للطرف الصيني الروسي! وإيران منحازة للطرف الأمريكي! والهند المتحالفة مع روسيا في حربها على أوكرانيا تصطف ضد الصين! وكل دولة تبحث عن مصالحها.

ونظرا لشمولية اتلصراع وعالميته، هناك أطراف إقليمية مهمة ستدخل الحلبة بعد أن باتت مصالحها مهددة (إيران، تركيا، إسرائيل، السعودية ومصر)؛ إيران الطامعة للدخول إلى النادي النووي ولها أذرع فاعلة في أربعة دول عربية في المنطقة. وتركيا التي تسعى بكل قوتها لأن تصبح القوة الاقتصادية والصناعية الأولى في الإقليم وتعتمد سياسات متوازنة مع الأطراف المتصارعة. وإسرائيل بصفتها قاعدة أمريكا المتقدمة، وحارسة لمشروع الغرب الاستعماري.. ومصر التي تتعرض لخطرين

كبيرين: سد النهضة الذي تنفذه أثيوبيا بدعم من إسرائيل بهدف تجفيف النيل. وإيجاد بديل عن قناة السويس، وهذا المخطط يجري في الخفاء ومهمته حرمان مصر من أهم مواردها، ولهذا المشروع هدفان: ضرب مصر وإضعافها، وإعادة الاعتبار لدور إسرائيل الوظيفي، لأن القناة البديلة ستكون إما ممرا مائيا (وهذا مؤجل بسبب ضخامة التكلفة)، أو ممرا بريا من إيلات إلى عسقلان.

أما السعودية، فهي الدولة الطامحة بأن تكون مركز الصدارة في الإقليم، وقد خصصت استثمارات ضخمة في البحر الأحمر، منها ٥٠٠ مليار دولار لمشروع "نيوم"، الواقع بالقرب من الخط التجاري المرتقب، وعلى تخوم منطقة الصراع المتفجر حاليا. والسعودية كانت في طريقها لإنجاز مشروع التطبيع، وهو أهم بكثير بتأثيراته الجيوسياسية من تطبيع الإمارات والبحرين وغيرها.

وهذه المشاريع تلاقت عند نقطة ساخنة، وهي قطاع غزة، وربما لم تكن مصادفة أن تعلن إسرائيل عليها الحرب، وتحديدا في هذا الوقت.

لماذا تهجير سكان غزة الآن؟

مخطط ترانسفير جماعي يطرد كل الفلسطينيين من أرضهم هو الحل الوحيد لإنهاء القضية الفلسطينية، وتمتع إسرائيل بالأمن والاستقرار، والهيمنة على المنطقة دون منازع، وهو حلم صهيوني قديم.. لكن إسرائيل عجزت عن تنفيذه سابقا لأسباب عديدة، لكنها لم تغفل عنه، وظلت تنتظر اللحظة المناسبة لتنفيذه، وربما تنفذه على مراحل، والبروفة الأولية ستكون في غزة، وإذا نجحت ستنتقل إلى الضفة..

مع أن قطاع غزة خرج من دائرة الأطماع الصيهونية الجغرافية، بعد فشل محاولاتها العديدة للتهجير والتوطين، وبعد أن تأكدت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة أنها لن تجني من وراء سيطرتها على القطاع سوى المشاكل والخسائر، وقد قام شارون بالانسحاب منه سنة ٢٠٠٥، وفي الذهن الإسرائيلي إبقائه تحت الحصار والسيطرة، والتفرغ للضفة الغربية..

فلماذا اليوم تتكشف مخططات إسرائيلية أمريكية لتهجير سكان غزة إلى سيناء؟

بالعودة إلى مشاريع الطرق التجارية الدولية، والبديل عن قناة السويس، واكتشاف الغاز في شواطئ غزة.. وكما تطلب الصراع على منابع الغاز وطرق تدفقه وتوصيله إلى أوروبا تدمير سورية وإخضاعها وتهجير سكانها، ستتطلب هذه الحرب تدمير غزة وإخضاعها وتهجير سكانها، ببساطة لأن هذه المشاريع الدولية العملاقة الجديدة تعتمد على مدى قدرة إسرائيل على حمايتها، وهي مشاريع تقع على مسافة أميال من قطاع غزة وربما في قلبها، وبالطبع هذا يتطلب التخلص من أي

طرف "مزعج" ويهدد أمن هذه المشاريع (حماس وكل قوى المقاومة، وأي تحالف مع إيران). وهنا يجدر التذكير بموضوع متصل، وهو علاقة قطر بغزة، حيث قدمت قطر لحماس خلال السنوات السابقة قرابة المليار دولار، ليس لإدامة الانقسام، وضمان استمرار حكم حماس وحسب، بل وأيضا بسبب حقول الغاز التي ظهرت في شواطئ غزة وعلى طول الساحل الفلسطيني، ليتم اقتسامها مع إسرائيل. مع إن موضوع اقتسام الغاز كان ممكنا أن يتم بالتفاهم مع حماس، وبضمانات قطرية، بيد إن إسرائيل لا تثق بحماس، وبسبب عوامل أخرى لها علاقة بإسرائيل، وبطموحات حماس وتركيبتها وأجنداتها كان مصيرها الحتمي الصدام المسلح بين العدوين.

غزة كحيز جغرافي تحتاجه إسرائيل، والشعب الفلسطيني المقيم في غزة، وحماس وكل قوى المقاومة، وأي نفوذ لإيران كلها عوائق جغرافية وأمنية وسكانية أمام تلك المخططات الدولية التي ستعيد رسم مراكز القوى الاقتصادية في المنطقة والعالم، والتي تعتمد على إسرائيل لإزاحة هذه العوائق ولضمان أمنها.. وهذا يتطلب تدمير قدرات حماس، وتهجير السكان إلى سيناء، إضافة إلى هدف آخر لا يقل أهمية: إضعاف مصر ودورها وقدرتها على التأثير من خلال خلق مشكلة ديمغرافية وأمنية واقتصادية ستشكل حملا ثقيلا عليها وتهديدا لأمنها.

مآلات وتداعيات الحرب

وبالنسبة لتوقعات مآلات الحرب وامتدادتها، على الأرجح لن يدخل حزب الله في الحرب، وهذا ما أكد عليه الخطاب الشهير للسيد حسن نصر الله، الذي سيكتفي بمناوشات ومعارك صغيرة هدفها إشغال جزء من الجيش الإسرائيلي، والتخفيف عن القطاع، إضافة إلى أسباب دعائية أخرى، أما إيران فستكتفي بما حققته من منجزات سياسية، وهي ليست فقط وقف التطبيع السعودي الإسرائيلي، أو تأجيله، بل والأهم أن أمريكا وكل دول العالم أدركت أن إيران بيدها الكثير من المفاتيح الخطيرة، وأهمها الإمساك بالورقة الفلسطينية، وقدرتها على تفجير المنطقة (أو تهدئتها، أي التضحية بحماس)، وهي منجزات ستحتاج إيران وقتا لهضمها والاستفادة منها، وفي هذه الإثناء ستُبقي حزب الله كذخيرة احتياطية.

أما موضوع التهجير، فقد كانت إسرائيل تعتقد أن تحقيقه سهل وممكن، من خلال تجويع وتعطيش سكان غزة، وقصفهم بلا رحمة، ودفعهم للهجرة إلى الجنوب، ومن ثم تشديد القصف والتجويع حتى لا يجدوا ملاذا سوى عبور الحدود إلى سيناء، لكن صمود أهل غزة، واستبسال المقاومة، ورفض مصر (والأردن) بقوة لهذه المشروع جعل فرص التهجير تتقلص، خاصة مع طول فترة

الحرب، وبدء التغير في الموقف الدولي، ومع ذلك على الأرجح ستنجح إسرائيل في تفريغ شمال القطاع من السكان إلى حد كبير، لكن مشروع التهجير إلى سيناء ربما يفشل (ويجب أن يفشل)، لكنه يظل خطرا قائما، وإذا فشل في غزة سيصبح تنفيذه في الضفة شبه مستحيل، وحينها سيكون على إسرائيل اللجوء إلى الخطط البديلة.

وستكشف الأيام القادمة كل الأطراف التي تآمرت على فلسطين وقضيتها وشعبها ومقاومتها، ومن جرنا إلى هذا الجحيم.

مسألة أخرى مختلفة هذه المرة، أعطت للحرب أبعاداً دولية، وهي وجود عدد كبير من الأسرى الأمريكان والأوروبيين لدى حماس.. وتعامُل أمريكا مع قضايا الرهائن يختلف عن تعامل إسرائيل (التي لن تتردد في قتلهم)، خاصة إذا تعلق الأمر بسمعة أمريكا الدولية، وبحسابات الرأي العام الأمريكي وتأثيرها على الانتخابات وغيرها، وبالتالي لن تطلق يد إسرائيل لتتصرف كما تشاء في الحرب، الأمر الذي يستوجب حضورها العسكري المباشر.

أما تداعيات الحرب على المستوى الدولي، فربما تكون روسيا المستفيد الأول، من حيث تراجع الدعم الأمريكي لأوكرانيا، وتفرغها للشرق الأوسط، فإسرائيل أهم لها من أوكرانيا، وهذا قد يوفر فرصاً أكبر لروسيا لحسم حربها ضد أوكرانيا.

أما مشروع السلام الإبراهيمي، وجلب الدول العربية إلى بيت التطبيع، والذي كانت آخر حلقاته مشروع التطبيع الإسرائيلي السعودي فيبدو أنه تأجل وربما يتوقف وهذا رهن بنتائج الحرب.

وفي ظل التواجد العسكري الأمريكي المباشر في المنطقة، قد تستغل إسرائيل الدعم اللامحدود الذي تتلقاه من حلفائها فتقوم باستفزاز حزب الله، وجره إلى حرب، باعتبارها فرصة مواتية للانقضاض على الحزب وتدمير مقدراته. ولكن هذا الاحتمال مستبعد.

وقد تتمكن أمريكا من تمرير مخططها لإعادة هندسة ورسم خريطة جديدة للشرق الأوسط. وقد تنسحب تجر أذيال الهزيمة، لكن هذا يحتاج وقتا طويلا.

أمام هذا المشهد المركب والمعقد يبدو كل احتمال ممكن جدا، ومستحيل في الوقت ذاته.. فكل طرف لديه نقاط قوة ونقاط ضعف، وليس بمقدور أحد التكهن بالنتائج، حتى أقوى الأطراف ليس بمقدورها حسم المسألة وتحقيق كافة أهدافها، لأن الخيوط متشابكة ومتداخلة بشكل رهيب.. والمشكلة أن جميع الأطراف لا يهمها الشعب الفلسطيني ولا مصالحه.. حتى من يدعي ذلك..

أما مسألة استئصال حماس وإنهائها فهي مستحيلة لأسباب موضوعية يعلمها الجميع، لكن من الممكن

تدمير قدراتها العسكرية، وهذه أيضا ليست سهلة، لكنها غير مستحيلة.. بيد أنها ستضع إسرائيل في مأزق سياسي من نوع آخر؛ حيث ستكون مجبرة على قبول تسوية سياسية لم تقبل بها من قبل.

ولا شك أن حربا بهذا الحجم وحضورا ومشاركة دولية بهذا المستوى ستحدث تغييرات كبيرة في المنطقة، وستكون أولى التغييرات المقبلة، تغيير إسرائيل من الداخل، وإنهاء المسار السياسي الذي تبناه نتنياهو طوال السنوات السابقة، والمتمثل في تجاهل القضية الفلسطينية، وإضعاف السلطة الوطنية، ودعم حماس من خلال السماح بتدفق المنحة القطرية، والهدف طبعا معروف وهو إدامة وتعميق الانقسام، والتهرب من أي تسوية سياسية، وقد ثبت فشل هذا المسار، وتبين أن حكومات إسرائيل اليمينية وسياساتها المتغطرسة وتنكرها لحقوق الفلسطينيين من أهم أسباب توتير المنطقة وجعلها دوما على حافة الانفجار، بالإضافة إلى أنَّ تغول اليمين وتمدده كان سببا لانقسام المجتمع الإسرائيلي، وسببا لترهل الجيش الذي قاد إلى تكبده هزيمة منكرة، وهذا اليمين المتعصب سيودي بإسرائيل إلى نهايتها، وسيجعلها مجرد دولة دينية عنصرية لها جيش متعطش للدماء، وتمارس الأبارتهايد، وترتكب الجرائم المحرمة دوليا، ما سيجعلها معزولة عن العالم، ومنبوذة، وقد فقدت صورتها الديمقراطية (نعلم أنها مزيفة) لكنها كانت من أهم مبررات دعم العالم لها. لذا سيأتي التغيير على حساب اليمين، وربما نشهد بعدها بداية انحساره، ولأن أمريكا حاليا في وضع المنقذ لإسرائيل، ومشاركة في الحرب، سيكون بوسع الإدارة الأمريكية الضغط والتاثير على إسرائيل أكثر من المراحل السابقة.

وسيطال التغيير بالضرورة الطبقة السياسية في فلسطين، بشقيها الرسمي والموازي، حماس لن تعود حماس، ولن يعود بمقدورها حكم غزة، ومنظمة التحرير والسلطة الوطنية وفتح، وسائر الفصائل سيشملها التغيير، هذا مؤكد، ولكن بأي اتجاه لا أحد يعرف، وهذا مرهون بتطورات الأحداث، وكلمة الشارع.. فإما أن ننتهي بنكبة جديدة وتغريبة أخرى، وحينها سيكون علينا البدء من جديد، بوجوه وأدوات وأساليب جديدة.. أي بثورة جديدة.

وقد تنتهي الحرب بتسوية سياسية معقولة، على قاعدة "حل الدولتين"، كما يصرح قادة العالم، ونجاح هذا الحل مرهون بجدية المجتمع الدولي، وقدرته على الضغط على إسرائيل، ومرهون أيضا بتوحد الفلسطينيين وإنهاء الانقسام.

حتى لا نخسر الحرب، ولا تضيع دماء الشهداء، ولا تذهب تضحياتنا هباء.. علينا التوحد بخطاب سياسي واحد، والتمسك بحقوقنا الوطنية، وتعزيز صمودنا، وأن تكون ثقتنا بالمستقبل.. فلا الجيوش ولا الحروب تنتصر على الشعوب.

طوفان الحرب والاعلام

عماد الأصفر

مقدمة

الحرب ليست الاستثناء في تاريخ البشرية، فالحروب متواصلة منذ معارك الصيادين والمزارعين والرعاة وصولا الى حروب القبائل ثم الدول فالحروب العالمية الطاحنة، وكذلك الجريمة ليست استثنائية ولا بنت الماضي القريب، انها تابعة ولصيقة بالحضور البشري على الأرض منذ قتل قابيل اخاه هابيل، مرورا بجرائم السلب والنهب وصولا الى الإرهاب والجرائم المنظمة التي ترتكبها جماعات ودول، وعلى رأسها جرائم الحرب والمجازر والمذابح وجرائم الإبادة والتطهير العرقي والتهجير والتجويع والحرق والاغتصاب والاستعباد والاتجار بالبشر وبالأعضاء البشرية للأجساد واجراء التجارب على الأسرى.

والحرب في فلسطين وعلى فلسطين وعلى الفلسطينيين حيث وجدوا ليست بالجديدة، ولا المنقطعة، فما ان تنتهي حرب حتى تندلع أخرى، لتصبح الحروب وكل ما يتصل بها جزء أساس من تكوين وتراث وثقافة وصورة هذه الأرض المقدسة.

لقد ظلت الحروب في منطقتنا وفي العالم اجمع تتدحرج وتتطور، وظلت الجرائم المرتبطة بها تكبر وتتنوع، وظل العالم منشغل في كيفية ادارتها بعد ان اعترف بعجزه عن وقفها، فابتدع القوانين والاتفاقيات والمعاهدات والمواثيق وأنظمة محاكم الجنايات الدولية، وأنشأ المؤسسات الراعية للهدن وفترات توقف إطلاق النار، والحارسة للحدود والقطاعات المحايدة، والأراضي منزوعة السلاح والممرات الآمنة، والمتكفلة بجهود الإغاثة وتنظيم مخيمات اللجوء، وحماية حقوق الأسرى.

وكما يقولون فالحرب أولها كلام وآخرها كلام، ولطالما صاحب الشعراء المقاتلين لتخليد الحرب وتعظيم البطولات، ولطالما اصطحب نابليون الرسامين معه لرسم المعارك وتخليدها.

*كاتب واعلامي فلسطيني

عندما عاد يوليوس قيصر من حربه على قبائل الغال وقف خطيبا في قومه فقال مجرد ثلاث كلمات سطرها التاريخ كأقصر خطاب، قال يومها قولته الشهيرة: « فيني فيدي فيتشي» أي « ذهبت، رأيت، انتصرت». من الواضح ان المنتصر تكفيه ثلاث كلمات اما المهزوم فلن تكفيه كل صحف وقنوات الدنيا لصنع انتصار.

طوفان السلاح

ما زال من المبكر الحديث بموضوعية وشمول وعمق عن الحرب الدائرة حاليا في قطاع غزة والتي أسمتها حركة حماس «طوفان الأقصى» فيما أسمتها حكومة الاحتلال الإسرائيلي «السيوف الحديدية»، هذا النص يكتب في اليوم السابع والثلاثين للحرب التي لا يظهر في الأفق بوادر نهاية قريبة لها، او ملامح للأوضاع على الأرض في نهايتها.

ومع ذلك فان مشاهد حادة حفرت عميقا في الذاكرة، ومستجدات لم تكن لتخطر على خيال، وانطباعات تحمل نسبة عالية من المصداقية، كلها مجتمعة قد تكون كافية للحديث عن الاعلام في هذه الحرب، وعن الحرب الإعلامية وكيف تؤثر في مجريات المعارك وكيف يتأثر بها الجمهور سلبا وايجابا.

قد تبدو أي مقارنة بين هذه الحرب وغيرها من الحروب، حتى تلك القريبة جغرافيا وزمنيا، مقارنة تجافي المنطق والموضوعية لعدة أسباب، نستطيع ايراد أبرزها على النحو التالي:

المباغتة الصادمة التي نفذتها كتائب القسام وسرايا القدس يوم السابع من أكتوبر واستطاعت خلالها اسر عدد كبير من الجنود الإسرائيليين واحتجاز عدد كبير أيضا من المدنيين.

حقيقة ان من بين المدنيين المحتجزين لدى حماس نسبة كبيرة من حملة الجنسيات الأجنبية وهو ما قاد الى تدخل دولهم بشكل أكثر جدية وحدية.

توقيت هذا الهجوم الصاعق مع الانقسام السياسي الحاد داخل حكومة الاحتلال ومجتمعه السياسي والمدني، وهو ما جعل الحرب مزادا مفتوحا، ومجالا للتنافس على إيقاع أكبر خسائر في الفلسطينيين للنجاة من المحاكم التي ستعقد بعد انتهاء الحرب مباشرة او لتجنب مغادرة الحلبة السياسية نهائيا.

في هذه الحرب أكثر من سابقاتها كان هناك اقتراب وخشية من انزلاق المعارك لتصبح إقليمية وهو ما استطاعت الولايات المتحدة تجنبه -حتى الآن على الأقل-بفضل استدعاء حاملات طائرات وبوارج وغواصات الى المنطقة، وإطلاق اوسع حملة تهديدات دبلوماسية باتجاه إيران ولبنان

وسوريا والعراق، فضلا عن ظهور الحوثيين من اليمن للدخول في هذه الحرب.

اهداف هذه الحرب متغيرة وغامضة وغير معلنة بوضوح من قبل طرفيها، فالاحتلال أعلن بداية هدفه بإزالة حماس ثم أعلن ان هدفه انهاء سيطرتها، ثم أعلن انه يريد الحفاظ على قواته في القطاع، وحماس أعلنت وقف الاعتداءات على الأقصى كهدف ثم تبييض السجون وانتهت الى الإعلان عن صفقة تبادل كاملة او بالتجزئة.

ورغم هذه الفروق المؤثرة كما ونوعا، فان الاعلام والاستخدام الإعلامي في هذه الحرب قد يبدو مشابها لاستخدامات سابقة في حروب سابقة.

التضليل عالي المستوى

في الخامس من شهر شباط لعام ٢٠٠٣ عرض وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية كولن باول امام مجلس الامن صورا التقطت من الأقمار الاصطناعية وتسجيلات صوتية قال إنها دليل على خداع العراق فيما يتعلق بالأسلحة، وقدر يومها ان العراق يمتلك مواد أسلحة كيماوية قد تعبئ نحو ١٦ ألف رأس حربية كيماوية. وبحركة استعراضية اخرج بأول من جيبه انبوبة صغيرة تحتوي على مسحوق ابيض قال انها دليل إضافي على انتاج العراق لأسلحة جرثومية وبيولوجية.

بعد شهر تقريبا من هذا اليوم بدأت حرب تدمير العراق.

باول المتوفى في ١٨ أكتوبر ٢٠٢١ بسبب مضاعفات كوفيد ١٩، كتب في مذكراته: «الخامس من فبراير/ شباط ٢٠٠٣ هو يوم محفور في ذاكرتي بحروف من نار مثل يوم ميلادي تمامًا، وسيكون هذا الحدث بعد وفاتي هو الفقرة الأبرز من فقرات نعيي في الصحف".

ووصف كلمته أمام الأمم المتحدة بـ»الخطاب سيىء السمعة»، مستذكرًا في كتابه سؤال المذيعة بربرا والترز له في أول مقابلة رئيسية معه بعد مغادرته موقعه الرسمي في وزارة الخارجية الأميركية: «هل هو وصمة عار في سجلك الوظيفي وسيرتك الذاتية؟".

فردّ باول: «نعم، ما تم قد تم، وليس في مقدوري منعه الآن، أو الحيلولة دون منعه في الماضي فقد انتهى الأمر وعليّ أن أتعايش معه».

لم تخل هذه الحرب على غزة من تضليل عالي المستوى أيضا، فلقد روج رئيس وزراء الاحتلال بنيامين نتنياهو ووزارة الخارجية الإسرائيلية رواية عن قيام مقاتلي القسام بقتل ٤٠ طفلا رضيعا وجزّ رؤوس بعضهم وسرعان ما انتشرت هذه الرواية على منصات ومواقع مؤيدة لإسرائيل،

وسرعان ما وجدت هذه الرواية «التي لم يتم التحقق منها» طريقها إلى أعلى مستويات القيادة، حتى ان رئيس الولايات المتحدة الامريكية تبنى هذه الرواية وتحدث علنا عن صور عنيفة لمشاهد هجوم لمقاتلي كتائب القسام.

في وقت لاحق تراجع البيت الأبيض عن تصريحات بايدن وقال المتحدث باسم البيت الأبيض «لا الرئيس بايدن ولا أي مسؤول أميركي رأى أي صور أو تأكدَ من صحة تقارير بشأن ذلك بشكل مستقل». وأضاف المتحدث أن تصريحات بايدن بشأن الفظائع المزعومة استندت إلى مزاعم المتحدث باسم رئيس الحكومة الإسرائيلية بنيامين نتنياهو وتقارير إعلامية إسرائيلية.

ولاحقا نشر رئيس الوزراء الصهيوني، بنيامين نتنياهو، صورة ادعى أنها لطفل إسرائيلي أحرقته حماس، لكن سرعان ما كشف الصحفي الأميركي جاكسون هينكل أن تلك الصورة مزيفة، وكشف الصحفي الأميركي أن صورة الطفل الإسرائيلي المزعوم هي في الأصل صورة كلب في عيادة طب بيطري، تم تزييفها عن طريق الذكاء الاصطناعي، لتحل محلها صورة لجسد طفل متفحمة.

صحيح ان حبل الكذب قصير، وان حبله في الاعلام أقصر بكثير مما يعتقد الكثيرون، الا انه صحيح أيضا ان الخبر الأول أكثر رواجا من النفي او التعديل او التوضيح، وصحيح أيضا ان الذاكرة الشعبية قصيرة، وان وقائع الحرب تطوي الكثير من الأكاذيب والزلات، فالحرب خدعة، والكذب في زمن الحرب يبدو مباحا، وان ما يبقى هو قساوة الواقع الذي تخلفه الحروب، لا ما صاحبها من أكاذيب، وما رافقها من اشاعات وتصريحات نارية.

الروايات الكاذبة

كثيرة هي الأكاذيب التي أطلقتها مواقع رسمية وغير رسمية وشخصيات إسرائيلية من غلاة اليمين المتطرف، وللأسف فان وسائل اعلام غربية تلقفت هذه الروايات الكاذبة ونشرتها دون تدقيق، سامحة لجيوش الكترونية كثيرة العدد متعددة اللغات بتكرار نشرها على مختلف المنصات، ومعلوم ان منصات التواصل الاجتماعي أبدت تساهلا كبيرا مع الرواية الإسرائيلية، مقابل تشدد وتضييق نطاق وصول وفرض عقوبات، كالحجب والتقييد لحسابات تحمل الرواية الفلسطينية.

فمثلا زعم الرئيس الإسرائيلي اسحق هيرتسوغ في مقابلة مع صحيفة بيلد الألمانية العثور على جمجمة الفنانة الألمانية الشابة شاني نيكول لوك، التي كانت تشارك في مهرجان هاجمه مقاتلو حماس، وقال للصحيفة: «لقد تم العثور على جمجمتها، وهذا يعني ان هذه الحيوانات البربرية السادية قطعت رأسها».

ونشرت صحيفة «ذا ميرور» البريطانية تقريرا عن قيام «إرهابيين» من حماس بقتل الفنانة شاني لوك. وذكرت ان «الإرهابيين» استعرضوا جثتها على مقدمة شاحنة في المكان.

لاحقًا، نقلت صحيفة «الإندبندنت» خبرا يفيد بأن «والدة فنانة الوشم المفقودة بعد هجمات حماس تقول إن ابنتها على قيد الحياة في مستشفى بغزة». وبعد ذلك قال والدها ان ابنته ماتت جراء اصابتها برصاصة في الرأس.

في إطار أكاذيب الرواية الإسرائيلية التي روّج لها الإعلام الغربي، «أكد» مسؤول إسرائيلي تعرّض نساء للاغتصاب خلال هجوم حماس على مستوطنات غلاف غزة.

ونقلا عن «تأكيدات» مسؤولين إسرائيليين، جاء مقال لـ«نيوزويك»، تحت عنوان «التقارير تُفيد بأن حماس تستخدم الاغتصاب سلاحًا في الحرب، أين النسويات؟".

غير ان أصحاب هذه الرواية لم يقدموا دليلا او حالة واحدة تعرضت للاغتصاب او لمحاولة تحرش، وكذلك لم تذكر أي من منظمات حقوق الانسان والمنظمات النسوية أي حالة تفيد بوقوع اعتداء على النساء.

وفضلا عن ذلك فلقد لجأ اعلام حماس الى اظهار براءته من هذه الادعاءات بشكل عملي من خلال مشاهد لمقاتلين يطعمون الأطفال المحتجزين، كما قامت حماس بإطلاق سراح محتجزتين مسنتين ظهرت احداهما وهي «يوخباد ليفشيتس» في مؤتمر صحافي وقالت: «لقد تعاملوا معنا بود وعناية، ووفروا لنا الطعام والدواء، وأحضروا لنا طبيبا لفحصنا، وكذلك مضمد لمتابعة وضعنا الصحي ومعالجة من أصيب منا بجراح».

وقد اثارت هذه التصريحات ضجة إعلامية كبرى حيث اعتبر مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، و«هيئة المخطوفين والمفقودين»، أن التصريحات التي أدلت بها المسنة الإسرائيلية مفاجأة صادمة تعود بالضرر على صورة إسرائيل وتسهم كذلك في إضعاف وتقويض جهود الدعاية الإسرائيلية.

الانكار والتشكيك في الروايات

تعمد آلة الدعاية الإسرائيلية الى زرع الشك في الروايات التي لا تستطيع دحضها، الأمثلة على ذلك كثيرة عبر تاريخ هذا الصراع الذي بدأ قبل أكثر من ٧٥ عاما، فالشهيد الطفل محمد الدرة من وجهة نظر متحدثيها قد يكون استشهد برصاص مسلحين فلسطينيين، والشهيدة الصحافية شيرين أبو عاقلة ربما تكون قد استشهدت برصاص مقاومين فلسطينيين، وحتى مستشفى المعمداني الذي استشهد فيه أكثر من ٥٠٠ شخص قد يكون قصف بمتفجرات وعبوات أطلقتها حركة الجهاد

الإسلامي، والمسنة الإسرائيلية التي حررتها حماس لأسباب إنسانية شهدت بحسن معاملة حماس لأن زوجها ما زال مختطفا لدى القسام وتخشى عليه، وأمين عام الأمم المتحدة لم يهاجم إسرائيل بناء على موقف موضوعي، وانما لأن عددا من أبناء بلده محتجزين لدى حماس، والمشافي الفلسطينية لا ينقصها الوقود فالوقود متوفر ولكن حماس تستولي عليه.

قد ننظر نحن المقيمون في هذه الديار والعارفين بشأنها والخبيرين بسلوك اعدائها، قد ننظر باستخفاف الى هذا الانكار والتشكيك في الروايات، ولكن هناك آخرين أبعد جغرافيا وأقل دراية، وقد يأخذون هذا التشكيك على محمل الجد، او على الأقل سيدفعهم الى التسليم بوجود روايتين، او سيقود الى ابتعادهم عن الانشغال بهذه القضية التي غالبا ما تحمل روايات متناقضة.

كان المتحدث الرسمي الرقمي لرئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو، في تغريدة على حسابه في منصة «أكس»، قد اعترف بضرب المستشفى المعمداني لأنه يؤوي قاعدة لحركة حماس.

وأرفق تغريدته هذه بصورة للنيران تشتعل في المستشفى بعد الضربة. إلا أنه عاد وحذفها سريعا.

وحملت حكومة الاحتلال المسؤولية عن هذا القصف لحركة الجهاد الإسلامي، ولكنها لم تستطع انكار انها قدد هددت بقصف هذا المستشفى وطلبت من ادارته اخلائه من المرضى والأطباء.

التبرير

برر الأمريكان قصفهم بالقنابل الذكية لملجأ العامرية في العاصمة العراقية بغداد يوم ١٣ شباط ١٩٩١ بانه كان يستخدم مقرا للقيادة العراقية، لم يسأل كثيرون كيف أمكن للأمريكان رؤية قيادات في هذا الملجأ دون ملاحظة مئات اللاجئين الذين يقيمون فيه، ذهب ضحية هذا القصف ٤٠٠ شهيد مدني. وفي ذات الحرب أيضا قصفت الطائرات الامريكية معملا لحليب الأطفال في ضواحي بغداد وقالت انه كان مصنعا للأسلحة الجرثومية.

ربما كانت الهجمات مقصودة، وربما كانت أخطاء كبرى في حرب تسندها التقارير الاستخبارية التي قد تخطىء وقد تصيب، ولكن ما يعنينا إضافة الى النتائج الكارثية هو رد الفعل الذي يسعى لتبرير الجريمة بدلا من الاعتراف بها.

هذا النهج ما زال مستعملا وبشدة من قبل قوات الاحتلال الإسرائيلي، فخلال معاركها المتواصلة وخاصة ضد قطاع غزة الذي يشهد اعلى نسبة كثافة سكانية، تستبيح طائرات وصواريخ الاحتلال المدارس، والأبراج والعمارات وسيارات الإسعاف والمقرات الأممية والمشافي بحجة ان فيها مطلوبين،

وان الإرهابيين يستخدمون المدنيين كدروع بشرية، ولا أحد يستغرب او يسأل إذا كان الارهابيون حقا يستخدمون الأطفال والنساء كدروع بشرية فلماذا تقومون أنتم بقصفهم؟!.

الحقيقة ان إسرائيل أكثر ابداعا من الولايات المتحدة في استخدام التبرير، فهي تهيئ له وتسبقه بحملة تحريض، فمثلا لم تتوقف سلطات الاحتلال وناطقيها ومسؤوليها من رئيس الوزراء الى من هم أدني مرتبة في الإشارة الى ان قيادات القسام تستخدم مستشفى الشفاء كمقر قيادي، وقد توج هذا التحريض بصورة مخطط مزعوم للمستشفى تظهر اسفله أنفاق، وتم ارفاقه بعرض لتسجيلات صوتية في صورة تحاكي تماما ما قام به كولن بأول في مجلس الأمن عشية الحرب على العراق. وما هي الا أيام حتى بدأت الطائرات الحربية الإسرائيلية غاراتها في محيط مستشفيات الشفاء والرنتيسي والقدس والأندونيسي وغيرها.

كان نتنياهو شخصيا قد استبق الأمر او الإدانة المحتملة حين قال في مؤتمر صحافي يوم ٣٠ أكتوبر ٢٠٢٣: «في العام ١٩٤٤، قصف سلاح الجو الملكي البريطاني مقر البوليس السري الألماني (الغيستابو) في كوبنهاغن عاصمة الدنمارك. وكان الهدف شرعياً تماماً. لكن الطيارين البريطانيين أخطأوا الهدف وأصابوا إحدى مستشفيات الأطفال القريبة بدلاً من مقر الغيستابو. وأسفر ذلك عن احتراق ٨٤ طفلاً حتى الموت على ما أظن. ليست هذه جريمة حرب. ولا أحد يلوم بريطانيا على فعلتها تلك. لقد كان هذا عملاً حربياً شرعياً له تداعياته المأساوية التي ترافق مثل هذه التحركات المشروعة».

وناهيك عن المقارنة المغلوطة تماما بين حماس والنازية من جهة، وجيش الاحتلال والحلفاء من جهة ثانية، فان القصف الخاطئ استهدف مدرسة وليس مستشفى وأسفر عن ١٢٠ قتيلا.

واضافة لذلك وقع ٤٣ حاخاما رسالة الى نتنياهو، أباحوا فيها قصف المشافي، وذكروا أنه لا يوجد أي حظر شرعي (ديني) وأخلاقي على إيذاء العدو، في حال استخدم المدنيين دروعا واقية ويختبئ خلفهم على أمل ألا يؤذوه".

وكتب الحاخامات في رسالتهم «أنه على الرغم من ضرورة تحذير السكان مسبقا، فإن اللوم يقع على عاتق القتلة الذين يختبئون خلفهم».

التحريض

لم يعد معجم الأوصاف التحريضية التي تستخدمها حكومة الاحتلال الإسرائيلي ضد الفلسطينيين كافيا، ولم تعد مصطلحات «الإرهابيين والمخربين» كافية لإشباع جنون وتطرف هذه الحكومة الأكثر يمينية وتطرفا في تاريخ الاحتلال، في هذه الحرب أكثر من غيرها استخدم الإسرائيليون ساسة

ومتحدثين اعلاميين اوصاف البربرية والحيوانية والوحشية والسادية والهمجية على الفلسطينيين، وسعوا منذ اللحظة الأولى الى تكريس مصطلح حماس داعش.

ولقد توج هذا التحريض بمطالبة عدة وزراء للجيش بعدم التفريق بين مدني وعسكري، وبدعوة وزير التراث «عميحاي إلياهو» الى ضرب قطاع غزة بقنبلة نووية.

وكان نتنياهو قد اعتبر هذه التصريحات التي أثارت غضبا واسعا حتى من حلفاء إسرائيل بأنها «منفصلة عن الواقع» وقرر تعليق مشاركة إلياهو في اجتماعات الحكومة الإسرائيلية حتى إشعار آخر، غير ان هذا الوزير ظل يشارك في التصويت على قرارات الحكومة عبر الهاتف حيث رفض حزبه استبداله بوزير آخر.

لم تخل روايات وأحاديث قادة حماس من تحريض ومن سقطات غير محسوبة تم التراجع عن بعضها في وقت مبكر، فمثلا دأب الناطق باسم القسام على استخدام تعبير «ابن اليهودية» وهو ما ينم عن تحقير مبني على الكراهية الدينية، ولاحقا عاد الناطق الى استخدام «أبناء القردة والخنازير»، ولكن السقطة الأكبر كانت التهديد المشروط بقتل أسرى امام الكاميرات في حال تم قصف مدنيين، وقد تم التراجع عن هذا التهديد الذي استخدم لإجراء مقارنة ظالمة بين حماس وداعش.

التأصيل للرواية

عادة ما ينشغل الاعلام وينشغل المتحدثون والسياسيون في معالجة اللحظة الراهنة، ناسين انها ليست الا نتيجة حتمية لسبب مضى، وان هذا الصراع هو ما أوجد حركات المقاومة ومن بينها حماس، وليست حركات المقاومة ومن بينها حماس هي من أوجدت هذا الصراع، وان هذا الصراع لم يبدأ في غزة في هذا العام او قبل عشرة أعوام وانما بدأ بالنكبة قبل ٧٥ عاما.

لقد تسرع وزير إسرائيلي فوصف هذه الحرب بانها «حرب استقلال إسرائيل» كاشفا بذلك عن مخطط تهجير شبيه بما حدث في النكبة.

ويبدو ان من حسن حظ الفلسطينيين إعلاميا هذه المرة غياب كثير من المتحدثين التقليديين غير المقبولين جماهيريا وغير المقتدرين على مخاطبة الرأي العام العالمي لصالح متحدثين محترفين من أمثال السفير حسام زملط والدكتورة حنان عشراوي والدكتور مصطفى البرغوثي وآخرين يتقدمهم الفنان المصري باسم يوسف.

في كل ظهور لهؤلاء امام وسائل الاعلام الأجنبي كان يوجه لهم سؤال ابتدائي واحد وهو «هل

تدينون ما قامت به حماس؟!»

هذا السؤال بحد ذاته والذي تحول الى لازمة لكل مقابلة مع فلسطيني أفقد وسائل الاعلام الغربية جزءا كبيرا من احترامها ومصداقيتها وقد ظهر ذلك علنا في رسائل استقالة وفي رسائل توبيخ وفي شعارات كثيرة حملها المتظاهرون الذين قدر عددهم بمئات الآلاف في كبريات العواصم الغربية.

ورغم انحياز منصات التواصل الاجتماعي فان مضمون ما تم نشره تأييدا لفلسطين وغزة وحماس والمقاومة وضد همجية ووحشية الاحتلال كان اضعاف ما تم نشره من مضمون مؤيد للاحتلال.

ويجب القول ان هذا النجاح لا يستند الى المهارة الإعلامية فقط بقدر ما يستند الى الحدث البطولي بحد ذاته والى حجم الوحشية الإسرائيلية المستخدمة في الهجوم على غزة.

استهداف الصحفيين

حتى ساعة كتابة هذه السطور استشهد ما لا يقل خمسين صحفيا وصحفية في قطاع غزة، ويمثل هذا العدد ما نسبته ٤٪ من مجموع الصحفيين العاملين في القطاع، وتم استهداف مقار صحفية وسيارات بث، وتم اعتقال صحفيين، وتم تدمير بيوت صحافيين مما أدى الى استشهاد افراد اسرهم.

يضاف الى هذه الانتهاكات والجرائم التهديد والتحريض ضد صحفيين بعينهم والتهديد المتكرر باستهداف صحفيين واغلاق مؤسسات صحفية. إضافة الى القطع المتكرر لخدمات الاتصالات والانترنت.

لا يمكن النظر الى هذه الممارسات والجرائم على انها احداث غير ممنهجة ولا مخطط لها، فلطالما مارس الإسرائيليون سياسة تكسير العظام بعيدا عن الكاميرات. ولطالما رددوا بان أمن إسرائيل اهم من أخلاقها.

التغييب والتعتيم

في خضم حرب بهذا المستوى من التوحش، تضيع تفاصيل كثيرة وتضمحل أحداث كبرى لصالح أحداث أكبر، فمجزرة قصف المستشفى المعمداني تكاد تُنسى لصالح جرائم استهداف الأحياء من الخدج في مستشفى الشفاء، ومأساة النزوح المتكرر وأوضاع النازحين تكاد تنسينا عدد الوحدات السكنية المدمرة، وجوع الأطفال ونقص الغذاء يكاد ينسينا حجم الدمار في البنية التحتية والبيئة الملوثة وانتشار الأمراض.

وللأسف فان الصورة الحديثة تكاد تمحي ما سبقها، ويخطط الإسرائيلي الى ان تكون صور نهاية

الحرب لصالحه بإثبات ان حماس استخدمت المشافي كمقار للقيادة وأنها حفرت أنفاقا تحت المشافي والمدارس، وتحصنت بين المدنيين.

صور مهما بدت غير مقنعة لنا فإنها قد تجد تقبلا لدى فئات غربية ولدى هيئات دولية.

صحيح ان هذه الهيئات الدولية انكشفت وظهر عجزها ان لم نقل تواطؤها، ولكن علينا كأصحاب حق ان نواصل استخدام هذه الهيئات فليس بين أيدينا الكثير لنفعله في مواجهة عالم يدير ظهره لنا حكوميا.

وصحيح ان العالم على مستوى الأفراد يقف معنا ويحبنا ولكن من الضروري ان يكون هذا الحب والتفهم والتضامن مستداما وليس موسميا، على الفلسطيني ان يبادل الآخرين الحب والتضامن على الدوام.

وصحيح ان وسائل الاعلام الغربية منحازة وان وسائط التواصل الاجتماعي تستخدم معايير مزدوجة ولكن العدالة التي تطفح بها قضيتنا لا تحتاج الا الى قليل من الذكاء والبعد عن المبالغة لكي تكون رواية رائجة.

وأخيرا اعتقد ان صور الضحية لوحدها لا تكفي فالعالم يتعاطف مع الضحية ثم يحاول جهده لكي ينساها، يجب مزاوجة صورة الضحية مع صورة البطل الذي يرفض ويقاوم، فالعالم يحترم من لا يسكتون على الظلم والطغيان ويسعى الى نشر قصتهم والى التشبه بهم.

لعل ما يؤخذ على حروبنا الأخيرة هو غياب المواكبة الثقافية، لم نجد نشيدا او أغنية تخلد معاركنا وسيرتنا النضالية الأخيرة، لم نجد لوحة تعلق في الكثير من المنازل، لم نجد شعرا يسطر هذا الصفحة النضالية المتأخرة، لم نجد درويش ودحبور ولا العاشقين ولا مارسيل. لم نجد نحتا ولا تمثالا يخلد هذه المحرقة.

صراع التعديلات القضائية [الحد من المعقولية]
إعادة بناء جدار ديمقراطية صهيون أم نهاية الهيكل الثالث

شذى يحيى*

«صوت من الشرق صوت من الغرب صوت من الرياح الأربعة، صوت ضد أورشليم والبيت المقدس، صوت ضد العرائس والعرسان، صوت ضد هذا الشعب جميعه ... ويل ويل لأورشليم»

يوشيا نبي خراب الهيكل الثاني

«إنني لا أتردد في أن أبوح بما يؤلمني، إنني اؤمن أنه لو أجل الرومان عقابهم لهؤلاء الأشرار لابتلعت الأرض مدينة أورشليم وأغرقها طوفان، وأحرقت بنار من السماء، كما حدث لسدوم».

يوسيفوس المؤرخ

«أعتقد أنه يوم مظلم للغاية في تاريخ إسرائيل عشية ذكرى خراب الهيكل من كل الأيام».

مارتن انديك مؤسس معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى

والسفير السابق للولايات المتحدة وأحد أهم مؤثري الأيباك

«في نهاية المطاف الجنرالات هم الذين سيوقفون الإنقلاب القضائي، إذا كان ذلك لا يوضح طبيعة المجتمع الإسرائيلي فماذا سيصفها إذا؟!»

جدعون ليفي الصحافي في هآرتس

«لن تكون هناك حياة طبيعية في إسرائيل نتانياهو وحكومته المتطرفة يسحبوننا لجحر الأرنب».

شيكما بريسلير_ أستاذة فيزياء جامعية

---

* كاتبة وباحثة من مصر.

«إنه يوم حزين عشية (تشيفاه بناف) نحن على شفا هاوية لكن سوف ندعم الحكومة فيما يخص الأمن القومي مهما كانت النتائج».

بيني جانتس _ أحد زعماء المعرضة

«الجيش الإسرائيلي في اسوأ حالاته مقارنة بأي وقت مضى إذا ذهبتم إلى الحرب مع لبنان أنتم ستعودون إلى العصر الحجري»

حسن نصر الله

«ما يحدث هو تدمير للهيكل الثالث هذا الإصلاح هو السماد الذي سيؤدي إلى ازدهار استبداد الأغلبية، إذا تحقق الإصلاح الذي يرغب بتنفيذه وزير القضاء الحالي على القضاة أن يستقيلوا».

أهارون باراك _ قاضي المحكمة العليا السابق وواضع قانون حجة المعقولية

«الذي يحدث في البلاد مقلق للغاية لأنني أعلم أن الإيرانيين ووكلاءهم حول حدود إسرائيل وأعداء إسرائيل الآخرين لايفعلون شيئا سوى الجلوس ومشاهدة هذا بذهول، بينما تمزق إسرائيل نفسها».

مارتن انديك

«لا يوجد شر أكبر من ثورة دستورية، واكثر مايوازيها هو إنقلاب بالدبابات، لقد أنشأنا دولة قوية لكن أي قوة يغيب عنها العدل ستؤدي إلى كارثة «

دان مريدور _ وزير العدل الأسبق

«هذه دولة اليهود وليس العرب، للعرب دول كثيرة، أنا مؤمن بأن الدولة لكل مواطنيها مع العلم أننا نتحدث عن دولة اليهود وإذا سألت أي يهودي، هل تؤيد المساواة مع العرب؟!! سيكون جوابه بالتأكيد نعم، وبنفس الوقت اسأل اليهودي هل تؤيد رمي العرب إلى البحر ؟!! ستكون الإجابة أيضاً نعم بالتأكيد وهو لا يرى أي تناقض بين الأمرين».

أهارون باراك

«عدم الإستقرار في نظر إيتمار بن غفير معناه فرصة لتحقيق ما يريده».

أفيف تاتارسكي _الباحث في منظمة إيراميم

«التوصل إلى اتفاق مع السعودية ليس وشيكاً».

تساحي هنغبي -مستشار الأمن القومي الإسرائيلي

«هذه آخر حكومة ديمقراطية لدولة إسرائيل».

تامير باردو _ رئيس المخابرات السابق

«أنا أخشى على مستقبل أطفالي، نتايناهو يخطف البلاد وأخشى أن تتحول لدولة دينية»

رعوت يفعات عويئيل _ المظلي صاحب صورة البراق

«لقد قررت الحكومة تهديد أسس الديمقراطية الإسرائيلية وهذا ليس شيئاً يمكننا القبول به أو تحمله»

ايهود أولمرت _ رئيس الوزراء السابق

«أنا مستعد للوقوف أمام فرقة إعدام إذا كان ذلك سيوقف التغيير القضائي، المقترحات التي تنص على إلغاء الرقابة القضائية هي المقابل الدستوري للانقلاب بدون دبابات»

أهارون باراك

«تتدخل إسرائيل طوال الوقت في سياستنا (الأميركان) ونتدخل أقل قليلاً في السياسة الإسرائيلية إنها طبيعة العلاقة في هذه المرحلة ... بالنسبة للسياسة الخارجية الأميركية فإن القيم مهمة وأحياناً أكثر أهمية من المصالح»

مارتن أنديك

عشية الاحتفال بذكرى خراب الهيكل عام١٩٥٤م نشر الشاعر الصهيوني ناتان ألترمان الملقب بالأنا الشعرية لبن جوريون قصيدة أطلق عليها قصيدة يوم الذكرى والثوار كان مطلعها:

«نحن جزء من الشعب الواسع

جزء من كرامته وبطولته

من أنين بكائه العميق

هؤلاء الذين سقطوا حاملين سلاحهم لن يقبلوا ربما بالحاجز

الممتد بينهم وبين موت الطوائف

وصولاً إلى أبطال المرتزقة والسماسرة»

اليوم وفي نفس التوقيت تسد مظاهرات أحفاد من أطلق عليهم ألترمان الشعب الواسع، طرقات وشوارع القدس وتل أبيب وكل مدن إسرائيل حفاظاً على ما يسمونه مكتسباتهم الديمقراطية، ومنعاً لتحول إسرائيل من دولة علمانية لليهود وكيان عنصري لغيرهم، لدولة دينية عنصرية بلا أي أي غطاء من حلوى الديمقراطية المخصصة للشعب اليهودي دون غيره.

يوماً ما كتبت الفيلسوفة الألمانية اليهودية حنا آرندت لصديقها جير شوم شالوم أنها تحاورت يوماً مع سياسي إسرائيلي بارز من الأباء المؤسسين في محاولة منه لإقناعها بالإنضمام للحراك الصهيوني وفي خضم الحوار ذكر لها أنه بصفته إشتراكياً فهو بطبيعة الحال لايؤمن بالله ولكنه مؤمن أشد الإيمان بالشعب اليهودي وأحقيته وحتمية وجوده، للمفارقة أن النقاش كان بسبب الهجوم الذي شنته آرندت على توجيه بن جوريون للقضاة وتدخله في محاكمة الضابط النازي آيخمان لأن رأيها كان أن إسرائيل الوليدة خسرت الكثير من ثقلها السياسي والثقافي والأخلاقي عندما سمحت لبن جوريون بإدارة محاكمة غير عادلة وتوجيه القضاة لإرضاء الدهماء، آرندت بنت هجومها على مفهوم أطلقت عليه اسم (عادية الشر) وذلك عندما تتشكل حملة لمطاردة المناوئين، ضد هذا الذي يتجرأ على الوقوف في الناحية المضادة خارج رغبة العامة، مرتبطاً بفكرة المستقل، وأن يقول للعامة أشياء غير مريحة عن ذاتها للدهماء، العامة في رأيها قوة كاسحة ومعدية وشاملة، وليس من الضروري أن يحدث الكثير حتى يتحول المجتمع الذي يدعى مجتمعاً صالحاً بما فيه الأشخاص العقلاء إلى عامة مهاجة.

هذا ما رأت آرندت أن الدين القومي الصهيوني الجديد الذي استبدل طقس الدولة بطقس الرب على حد قولها يفعله.

واليوم يحاول بنيامين نتانياهو الفخور بقيادة أكثر حكومة يمينية في تاريخ إسرائيل بنقضه للماجناكارتا الصهيونية وكل العقود الاجتماعية التي قامت عليها الدولة صناعة طقس دولة جديد يتماشى أكثر مع طقس الرب، طقس رب الجنود الذي يحلم تلميذ جابوتنسكي النجيب الذي يعد نفسه بنى الهيكل الثالث أن يصنع به الأساس الدستوري الذي لم يستطع صنعه آباء الدولة.

عادية شر جديد على أنقاض القضاء أيضاً ولكن هذه المرة ليس لآيخمان ولا للفلسطينيين بل لمواطني الدولة العلمانيين والنخب والمثقفين والفاعلين بدعوى أنهم أقلية.

في نظر مارتن انديك عضو الأيباك المهم والسفير الأميركي الأسبق في تل أبيب والذي وصلت به درجة الغضب من حكومة نتانياهو أن يحث بايدن على فرض عقوبات وقطع معونات، «ولدت إسرائيل كدولة يهودية وديمقراطية وطوال تاريخها على مدى ٧٥عاماً كان هناك دائماً توتر بين طبيعتها اليهودية وطبيعتها الديمقراطية، ولكن هناك دوماً حالة من التوازن طيلة تلك السنوات ال٧٥ الآن هم غير متوازنين، أنديك وغيره من العلمانيين والمثقفين ويهود الشتات وآلاف مؤلفة من المواطنين الصهاينة يرون أن الأمر يتعلق بصدام كبير بين قوى اليمين في إسرائيل وخصومهم في اليسار والوسط وأن نتانياهو دائماً ما سيضع بقاءه السياسي فوق اعتباراته كرجل دولة ورغباته لرفاهية البلاد، ولأن المحكمة العليا هي التي تقف في وجهه ووجه اليمين المتطرف فهي الأساس الذي يجب الحد من سلطاته وتقليم أظافره

والبداية هي تقليص سلطة المحكمة بالحد من حجة المعقولية التي بموجبها تستطيع المحكمة إلغاء قرارات للحكومة والكنيست بمقتضى عدم معقوليتها أو إضرارها بمصالح الدولة.

ذلك البند الذي يراه اليمينيون المتطرفون من أغلبية نواب الكنيست مناف للديمقراطية وإرادة الشعب وتراه الأغلبية المتعلمة هو الحامي للدولة من نزوات الراديكاليين والمتطرفين ومن تحول إسرائيل إلى فاشية وخسارة حلفاؤها وسمعتها الدولية كواحة للديمقراطية في الشرق الأوسط واستنزاف الموارد على ما لانفع منه لتتحول إسرائيل لديكتاتورية تافهة من ديكتاتوريات العالم الثالث، لعل هذا يفسر وصف يائير لابيد زعيم المعارضة للمحتجين على قانون الحد من المعقولية بأنهم أعضاء الطبقة المتوسطة المنتجة وأنهم تعهدوا بعدم دفع ضرائب إضافة إلى الامتناع عن التطوع في الجيش وأنهم الأكثر تعليماً والأكثر إنتاجاً في الدولة، بينما وصفهم بن غفير بأنهم أقلية تريد ممارسة سلطتها على الأغلبية وفرض رأيها بالقوة وأنهم يدعمون خمسة عشر ديكتاتوراً في المحكمة العليا يفرضون رأيهم بالقوة ويسرقون حق الشعب في القرار، بينما يرى أهارون باراك القاضي المتقاعد في المحكمة العليا واضع قانون المعقولية وواحد من أكثر العقول القانونية إحتراماً على مستوى العالم أن وزير العدل ياريف ليفين جمع كل المقترحات السيئة على مر السنين وربطها ببعضها البعض على شكل سلسلة لتخنق الديمقراطية الإسرائيلية فلا يوجد شر أكبر من ثورة دستورية، وأكثر ما يوازيها هو انقلاب بالدبابات، إن ثقة الجمهور بالمحكمة هي أعز ما يملك العمل القضائي».

أما المحامون والمدعون العامون في الفترة من العام١٩٧٥م وحتى اليوم فقد وجهوا رسالة مفتوحة للكنيست ذكروا فيها «إن إنجازات المحكمة العليا هي التي دفعت بالمجتمع إلى الأمام واستفاد منها الجميع، وهي الآن في خطر شديد ولهذا السبب ندعو الحكومة للإنسحاب من الخطة المنشورة، ومنع إلحاق ضرر جسيم بالنظام القضائي وسيادة القانون من أجل الحفاظ على إسرائيل كدولة يهودية وديمقراطية وفق القيم الواردة في وثيقة الاستقلال».

حتى وكالة موديز للتصنيفات والتوقعات الاقتصادية حذرت في بيان نادر لها من أن إلغاء بند المعقولية وما صاحبه من اضرابات وتوترات يشكل خطراً هائلاً على الاقتصاد الإسرائيلي».

أما أرنون بار دافيد رئيس الهستدروت والشخص الوحيد المخول بإعلان الاضطرابات النقابية في اسرائيل وبعد أن حاول الوصول إلى حل يهدف لعرقلة عرض القرار على الكنيست رفضه الليكود لأنه رآه منحازاً للمعارضة فعلق إعلان الإضرابات مؤقتاً كونها تشكل خطراًعلى الاقتصاد ولأن الحكومة منحت النقابات ترضيات تخص تقليل ساعات العمل وزيادة الأجور والامتيازات لم تمنحها حتى الحكومات العمالية، لكن هذا لم يمنع بار دافيد من اتهام نتانياهو بقيادة إسرائيل إلى الهاوية والتهديد بأنه عندما يشعر أنه تم

استنفاذ كافة الوسائل وأن الوضع سيصل إلى أقصى الحدود فإن الهستدروت سوف يتدخل ويستخدم قوته وعقب «نحن في فترة معقدة من غلاء المعيشة ومهمتنا جميعاً الأولى الاهتمام بوضع العمال ومعيشة العمال ومكانة العمال».

رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق أفيجدور ليبرمان هو الآخر وبعد انسحاب نواب المعارضة بكاملهم في القراءة الثالثة للقانون الذي أقر بأغلبية ٦٤عضواً من أعضاء الكنيست البالغ عددهم ١٢٠ للمرة الأولى في تاريخ الدولة العبرية قال «إن دولة إسرائيل لا يمكن ولا يجب أن تصبح مثل كوريا الشمالية إن أرادوا أن يكونوا مثل كوريا الشمالية فليصوتوا ككوريا الشمالية».

إيهود أولمرت أضاف هو أيضاً أن الحكومة قررت تهديد أسس الديمقراطية الإسرائيلية وهذا شيء لا يمكن القبول به أو تحمله».

سيما روتمان رئيسة لجنة الدستور والقانون والقضاء في الكنيست خالفت كل هؤلاء الرأي ولخصت الموقف في أن المتظاهرين خسروا الانتخابات وخرجوا إلى الشوارع ضد قرار الشعب الذي صوت للحكومة.

إن ما يحدث هو بالضبط ما وصفه محرر صحيفة الجيروزاليم بوست بأنه «صراع على روح إسرائيل»، معركة متصاعدة يصاحبها أكبر حركة احتجاجية في تاريخ الدولة الصهيونية يواكبها للمرة الأولى انقسام في الجيش، لماذا تصاعدت الاحتجاجات لهذه الدرجة؟! ولماذا يسعى نتانياهو لتقليم أظافر المحكمة؟!

لأنه يرى نفسه في نقطة تاريخية مفصلية يستطيع فيها تحقيق حلم الدولة اليهودية الخالصة وضم الضفة الغربية وإقامة أكبر عدد ممكن من المستوطنات دون المخاطرة بشبح الحرب أو العقاب في ظل حكومة راديكالية قادرة على اتخاذ قرارات أكثر راديكالية وعنصرية دون خوف من العقاب، بينما يرى في الليبراليين ومحكمتهم العليا المهتمين دائماً بالمواءمات ورأي الحلفاء والداعمين والمسؤولية التاريخية والقانونية عقبة في سبيل ذلك، ربما لسان حاله يذكره أن الدولة التي قامت بالمذابح والتهجير والعصابات والاغتيالات استطاعت بعد بضع عقود أن تكتسب سمعة التحضر والرقي وأن السفاحين هم أنفسهم الذين ارتدوا الياقات البيضاء وأصبحوا رجال دولة أما أولئك المنظرين فجاء دورهم بعد البناء لتجميل صورتها الشائهة وإعطائها صبغة الحضارة أمام العالم.

قصة نشأة المحكمة العليا نفسها خير دليل على ذلك فالسبب الرئيسي لتأسيس المحكمة بالشكل التي هي عليه الآن أن حكومة إسرائيل الأولى كانت هي أيضاً أرثوذكسية متطرفة وبسبب الخلافات بين الأقطاب العلمانيين للاشتراكية الصهيونية والاتجاهات الأكثر تديناً، وأيضاً لتحديد السقف المسموح به من الداعمين والمساحة التي يسمح بالتحرك فيها لتحويل شراذم العصابات إلى كيان دولة، وكمرشد

وحكم بين المتخاصمين أعطي للمحكمة على مر الأعوام الكثير من الصلاحيات التي تجعلها قادرة على كبح جماح التهور في تنفيذ المخططات التوسعية الاستيطانية كما أنها بمثابة الواجهة التي تعبر عن رقي إسرائيل كدولة ديمقراطية تعلي القانون وتفصل بين السلطات.

الآباء المؤسسون أحجموا عن وضع دستور للدولة بدعوى تدمير الهوية اليهودية واستبدلوه بقوانين الأساس ... أي إعلاء للقانون أكثر من ذلك؟! وأعطوا للمحكمة الحق للنظر في مشروعية قوانين الأساس وقرارات الحكومة ووضعوا لكل وزارة مستشار قانوني يراقب تصرفاتها، كما أن المحكمة تملك القدرة على الاعتراض على تعيين الوزراء وصلاحيات تعيين لجان تحقيق للمساءلة وقرارتها ملزمة لكل هيئة قانونية دونها لكن من الممكن إعادة فحصها والرجوع فيها، أما اختيارات قضاتها فيتم بمعرفة ثلاثة من قضاتها العاملين ووزيرين من الحكومة وعضوين من الكنيست وعضوين من نقابة المحامين لضمان شفافية التعيين وعدم تحكم المصالح والاتجاهات السياسية في شغل المنصب الذي يشغله القاضي حتى بلوغه السبعين، المحكمة من المفترض أن تمثل كل شرائح المجتمع لذلك ترأسها هذه الفترة سيدة ويشغل أحد مقاعدها قاض من أصول عربية، كل هذا لم يشفع للمحكمة في نظر اليمينيين الذين يرونها مؤسسة تمثل اليسار الذي لم يعد له ذكر في الحياة السياسية الإسرائيلية وبعض نخب المثقفين والمتعلمين بينما لا يوجد بها تمثيل لشرائح الأغلبية بشكل كاف.

في كتابه (لماذا تصوت لليمين وتحصل على اليسار؟) كتب إيريز تدمور أحد مستشاري بنيامين نتانياهو المقربين «أن القوة الحقيقية المحركة للسياسة في اسرائيل تقبع خارج أروقة الكنيست في المؤسسات الثقافية ومؤسسات المجتمع المدني والبيروقراطية والإعلام والقضاء، وأن خطة لتقويض سلطة المحكمة العليا من خلال سيطرة الحكومة والكنيست على اختيار القضاة والحد من صلاحيات المحكمة فيما يتعلق بحقوق الفلسطينيين وزيادة التمثيل اليميني في الإعلام والثقافة والمجتمع المدني هو الحل اللازم لإقامة الهيكل الثالث».

وبدأ اليمين بالفعل في تنفيذ خطة تدمور بالحد من «حجة المعقولية» أي إيقاف قرار بحجة عدم معقولية تنفيذه أو أن ضرره أكثر من نفعه، إن تم تنفيذ قرار الحد سيفتح الطريق لمناقشة الكنيست ضم الضفة الغربية وشرعنة البؤر الاستيطانية وتعطيل سلطة المستشارين القانونية الذين يستطيعون إيقاف القرارات التي تخالف القانون الدولي وارتكاب جرائم حرب، وفرض قواعد وقوانين متشددة على العلمانيين، ومهاجمة أقليات المجتمع اليهودي والمثليين والنساء، وتعيين أصحاب السجلات الجنائية كوزراء، وإقامة كيانات مسلحة وميليشيا حرس وطني كما يدعوها إيتمار بن غفير لطرد الفلسطينيين وترويعهم على غرار عصابات الهاجانة أثناء التأسيس، الأمر الذي رفضه حتى وزير الدفاع في الحكومة اليمينية وكان رد بن غفير «نحن نطلب من وزير الدفاع جالانت أن لا يتدخل فيما لا يعنيه على الأخص أنه حاول عرقلة قانون الحد من المعقولية».

أهارون باراك لخص دور المحكمة العليا الاسرائيلية في المجتمع بجملة واحدة «إن المهمة الرئيسية للمحكمة العليا هي حماية الديمقراطية، ولا يمكنها حماية الدستور إذا لم تكن لديها الأدوات لفعل ذلك». باراك هو خصم ناتانياهو واليمينيين وهو نفسه من أهم محامي الدفاع عن السياسات الإسرائيلية في المحافل الدولية وصاحب حجة من حق إسرائيل الدفاع عن نفسها، ببلاغته وعلمه وقوة حجته ظل لفترة طويلة جداً السد الحامي لسياسات إسرائيل أمام العالم، شعاره دوماً «للبلاغة القوية صدى قوي، وتعود أفضليتها لقدرة الجمهور الواسع على استيعابها»، وهو يستخدم هذه البلاغة والحجة اليوم في الدفاع عن محكمته ومنهجه.

نتانياهو يعتبر باراك عقبة وألد أعدائه في المرحلة الحالية، القاضي المؤمن بالدفاع عن الحقوق الأساسية للأقليات ومعارض قانون القومية إلا بنداً واحداً يجمع عليه كل الإسرائيليين هو يهودية الدولة، ويتفق معه في هذا يمين الوسط بالرغم من أن القانون أثار سخط أقليات مثل الدروز الذين كانوا يعدون أنفسهم شركاء في بناء الدولة على الأخص أنهم يخضعون لقانون التجنيد هذا القانون حول وضعهم لمجرد مرتزقة – كما أنه مؤمن بضرورة إيجاد صيغة للتعايش السلمي مع العرب داخل أراضي ١٩٤٨م دونها لن نستطيع أن نعيش مع أنفسنا بسلام على حد قوله مهما كانت قناعتنا، بينما يرغب نتانياهو صراحة بإلقائهم إلى البحر حتى ولو عارض سموتريتش وزير المالية في بعض قرارات التصنيف المالي حتى يتفادى اتهام حكومته بالعنصرية ... التعايش السلمي مع العرب بالنسبة لنتانياهو يبدأ من خارج خط حدود فلسطين التاريخية لذلك فباراك ومحكمته وقضاته يشكلون خطراً على فكرة نتانياهو في كيفية بناء الهيكل.

لكن الأمر ليس بهذه البساطة فنتانياهو لكي يكسب أصوات حلفاء حكومته صاغ قانون لا ينص على توسيع المستوطنات في الضفة وسلب حقوق الفلسطينيين في القدس وإيقاف أي خوف من قيم وسلطة المجتمع الدولي فقط، لكن أيضاً القانون سوف يؤمن إعفاءات أكبر بكثير للمتشددين اليهود من التجنيد والضرائب، وتمويل أضخم لمستوطنات لا طائل منها، ودعماً كبيراً جداً لمدارس دينية لا تؤهل لسوق العمل، والأهم فرصة أكبر للمتشددين لسلب الحقوق والحريات، وإجبار الجيش على ممارسات قد تخضع أفراده تحت طائلة الأحكام الجنائية في القانون الدولي لمدد تتجاوز العشرة أعوام او ارتكاب جرائم لا تسقط بالتقادم إضافة لخلق مناخ طارد للاستثمار والسياحة، الجيش والاستثمار سيخسرون خسارة فادحة لو سمح بتمرير حزمة قوانين الحكومة اليمينية، أما تكوين ميليشيا دينية مع وجود شعب يجيد كل أبنائه حمل السلاح فمعناه حتمية قيام حرب أهلية، وبالطبع خسارة كل الحلفاء الذين سوف يرون في إسرائيل دولة أخرى من دول العالم الثالث لا غير أو بولندا أو المجر على أفضل تقدير.

ما دفع ايهود أولمرت للتأكيد أن ما يحدث هو تهديد جدي للغاية، كما لم يحدث أبداً من قبل أبداً من

قبل ونحن في طريقنا إلى حرب أهلية، و أن العصيان المدني مع كل التداعيات المحتملة على استقرار الدولة وقدرة الحكومة على الأداء، كما دعا يائير لابيد إلى التصريح «بأنه من المستحيل التوصل مع هذه الحكومة إلى اتفاقيات تحافظ على الديمقراطية الإسرائيلية، الحكومة ترغب في تمزيق الدولة وتدمير الديمقراطية، وتدمير أمن إسرائيل، ووحدة شعب إسرائيل وعلاقتنا الدولية».

كل هذه الأسباب هي التي دفعت الآلاف من الإسرائيليين للتظاهر في الشوارع مؤيدين بالقضاة المعتزلين والمعارضة بكافة أطيافها وامتناع جنود الاحتياط عن الخدمة في أقوى أسلحة جيش الدفاع، الطيران والحرب الالكترونية والقوات الخاصة والبحرية ومعهم الموساد، ما دفع أهارون باراك لشكر المتظاهرين بقوله «أود أن أقول لكم جميعاً شكراً لقد مارستم حقكم العظيم الذي حاربت بقوة من أجله كقاضي بالتظاهر وقول أشياء تتعارض مع من يحكم، اليوم عندما يسود استبداد الأغلبية أنتم الدرع».

الأغلبية التي يدعي اليمينيون أنهم يمثلونها هي أيضاً لم تسكت بل حاصرت منزل باراك وقامت بعمليات دهس في الشوارع للمتظاهرين ضد الحد من المعقولية، وأصدر كلٌّ من رئيس الأركان هرتس هاليفي ،ورئيس الشاباك رونين باد، وقائد الشرطة كوبي سبتاي ضد ما أسموه بالإرهاب القومي بياناً، ذكر في البيان أن الهجمات المتكررة على الفلسطينيين من قبل المتطرفين اليمينيين، «هي هجمات مخالفة لكل القيم الأخلاقية واليهودية وهي أيضاً إرهاب قومي بكل معنى الكلمة ونحن ملتزمون بمكافحتها، وإن عنف المستوطنين يزيد الإرهاب الفلسطيني ويضر بالشرعية الدولية للأجهزة الأمنية لمحاربة الإرهاب الفلسطيني»، وفي نفس توقيت البيان المشترك أصدر وزير الأمن القومي إيتمار بن غفير بياناً يدعو فيه اليهود المتشددين إلى إقامة المزيد من البؤر الاستيطانية غير الشرعية وفق القانون الإسرائيلي في الضفة، لتبدو الجهات الحكومية متضاربة ومنقسمة بقدر الشارع.

الاحتجاجات تتزايد والاتهامات أيضاً تتزايد، بن غفير اتهم المتظاهرين صراحة بأنهم ممولون من الخارج وخاصة بعد ظهور الصفحات الأولى لكل الصحف الإسرائيلية مكللة بالسواد بعد إقرار القانون بيوم في إعلانات مدفوعة الأجر، المظاهرات المنظمة والمدعومة لوجيستياً بالإعلام والقمصان واللافتات والخيام والمؤن والمراسلات والتغطية من قبل حركة كابلان فورس ممولة بالفعل بتحويلات مصرفية من خلال التعبئة الاجتماعية والتبرعات، ويهود الشتات الذين هددوا بإيقاف الدعم لإسرائيل، وشركات التكنولوجيا صاحبة الاستثمارات الهائلة، التقارير تذكر أن واحداً من كل ثلاثة إسرائيليين سوف يهاجر إلى دولة أخرى في حالة إقرار التعديلات خوفاً على حقوقه والأهم تجنباً للتجنيد وفقدان حياته أو حياة أطفاله في عدوان غير مبرر، أو الوقوع تحت طائلة القانون الدولي حال ارتكاب جرائم حرب، دافع الضرائب أيضاً لا يمكنه الفهم لماذا يمول مجموعة من العاطلين المشاغبين في أرض بعيدة لا مستقبل إنتاجي لها.

الصحافي ديفيد جروسمان كتب في الجارديان «إن مصير إسرائيل سوف يتحدد هذا الأسبوع كدولة ديمقراطية بخروج مئات الآلاف من الإسرائيليين من منازلهم في ظروف صعبة للغاية للاحتجاج ودق أجراس الخطر ليعلنوا عن رغبتهم في أن يعيشوا ولو فترة في جو ملائم حافل بالفاعلية والخير بدلاً من الدولة التي أصبحت مكاناً للعنف والابتذال والتلوث».

المظاهرات المدعومة بالقادة العسكريين والسياسيين السابقين واعضاء الموساد والشاباك وكل الأجهزة التي قمعت وارتكبت جرائم حرب مختلفة ضد الشعب الفلسطيني، ولذلك فهي تحمل طابعاً عسكرياً لا تخطؤه عين إضافة لرفض الخدمة العسكرية من المواطنين هي السلاح الأقوى، والهدف الرئيسي للمظاهرات هو الحفاظ على الدولة كما هي قبل هذا القرار، والحفاظ على الجيش بعيداً عن مغامرات التوسع الخرقاء وعلى شكل إسرائيل أمام الحلفاء وقوتها أمام الأعداء، أي الحفاظ على سياسة قضم الأراضي وإجلاء البشر بالتدريج بعيداً عن الصدمات، المتظاهرين أنفسهم يخدمون أو خدموا أو يخدم أحد أقاربهم في الأراضي المحتلة ويساهمون كل يوم في عمليات حكومة نتانياهو التي تستهدف قتل وترويع وتهجير الفلسطينيين، الكثير من المشاركين في المظاهرات ارتكبوا جرائم حرب ضد الشعب الفلسطيني وحمتهم قوانين المحكمة العليا ومرافعات ومداخلات قضاتها في المحافل العدلية الدولية، لذلك فإن رئيس الأركان هرتس هاليفي كان صريحاً عندما أوضح بأن التعديلات القضائية سوف تضر بكفاءة الجيش وأن الأمر بدأ يؤثر فعلاً على كل الأسلحة.

بنيامين نتانياهو هدد باتخاذ إجراءات حيال ما وصفه بعصيان الجنود الذي يشجع أعداء إسرائيل على مهاجمتها ويقوض الديمقراطية، قبل هذا كان نتانياهو قد صرح إبان أضراب الطيارين بأن البلد تستطيع العمل بلا طيارين ولكن لا تستطيع العمل دون حكومة. تامير باردو رئيس المخابرات السابق رد على نتانياهو «بأن مغامرته الهوجاء سوف تؤدي لنهاية الحلم الصهيوني وإعلان الولايات المتحدة أن إسرائيل كحليف فقدت قيمتها الاستراتيجية والديمقراطية الإسرائيلية التي كانت قد وحدت البلدين لم يعد لها وجود، أما حلفاؤنا العرب الجدد فيتساءلون بدهشة كيف قررت الدولة اليهودية التي تعد معجزة إقتصادية واجتماعية وتقنية وأمنية تدمير نفسها بأيديها؟! ليس هناك زعيم مسلم لم يلاحظ ذلك». كما وصف باردو مايفعله نتانياهو أنه بمثابة حرب يأجوج ومأجوج.

ديفيد جروسمان صحافي الجارديان رد أيضاً على نتانياهو قائلاً إن «على إسرائيل أن تعترف بأن وجودها في المنطقة الذي يبدو رائعاً ومطلوباً واستثنائياً أصبح ممكناً بفضل التفوق الجوي الذي يضمن استمراره مئات الطيارين الذين علقوا خدماتهم التطوعية في الجيش الإسرائيلي، وعلى نتانياهو بدلاً من مناقشة شرعية تعليق خدماتهم أن يسعى إلى إتفاق سلام مع جيراننا الأعداء في أسرع وقت».

وبالفعل هذا ما حاول نتانياهو عمله خلال زيارته للصين التي لم تأت بمفعولها، ثم الإعلان عن خط السكة الحديد الذي سيربط شمال إسرائيل بجنوبها تمهيداً لمده للأردن ثم السعودية ثم الإعلان أن إسرائيل لن تمانع في إقدام السعودية على بدء أنشطة نووية، والتأكيد على رغبة إسرائيل إقامة علاقات مع السعودية من قبل إيلي كوهين وزير خارجية الحكومة المتطرفة والذي على حد قوله سيؤدي إلى التناغم الإقليمي الحقيقي، بل إن كوهين كتب في مقال بأنه يتوقع أن يصنع محمد بن سلمان ولي عهد السعودية وبنيامين نتانياهو التاريخ.

خطة نتانياهو هذه في الركض إلى الأمام تواجهها عقبات كثيرة أهمها أن الجانب الأميركي غير الراضي عن أداء الحكومة ولا التعديلات القضائية هو الضامن لها وهو الطرف الذي ترغب السعودية في الحصول منه على مكاسب أمنية أمام التهديد الإيراني، والثاني أن السعودية المدركة للفراغ الذي من الممكن أن تشغله في الحيز الإقليمي تصر على امتيازات للفلسطينيين معناها سقوط الحكومة اليمينية وتفريغ حلم نتانياهو الذي يسعى إليه من معناه، السعودية استبقت الأمر بتعيين سفير غير مقيم لها لدى السلطة الفلسطينية وقنصل بالقدس يقيمان في الأردن، ما دفع بكوهين الذي كان متفائلاً إلى التصريح بأنه لن يسمح للمملكة بمثل هذا التمثيل ولا ما يشبهه من أي نوع، وحدا بالمستشار القومي للحكومة للتصريح بأن الطريق مازال طويلاً أمام أي اتفاق مع السعودية، السعودية تدير مباحثاتها الخاصة مع إيران من خلال الروس المتعطشين لعالم متعدد الأقطاب والصينيين الطموحين للخروج من مشاكلهم الإقتصادية بمبادرة الحزام والطريق.

أما التكنولوجيا والخبرات الدفاعية الإسرائيلية فالواضح أنها الآن في أزمة كبيرة كما ذكر زعيم حزب الله اللبناني.

مغامرة نتانياهو كشفت اللبنة الضعيفة في جدار القلعة أمر لن يسمح به قادة الجيش بالتأكيد على الأخص بعد هجوم اليمينيين ومعهم نجل نتانياهو على القيادات ورئيس الأركان علناً مادفع الأخير للتأكيد على ثقته في كل القيادات.

هل نتانياهو من الغباء بحيث أنه بالفعل يقضي على الحلم؟؟

أغلب الظن أن نتانياهو لن يغامر بطرح بقية التعديلات على الأخص أن عدداً من نواب الليكود أعلنوا أنهم لن يصوتوا على بنود أخرى، هو كسياسي مخضرم يدرك ذلك لكن أعضاء حكومته غير المتمرسين قد لا يدركون هذا بعد، اختيار توقيت إقرار القانون قبل العطلة البرلمانية الممتدة لثلاثة أشهر أوضح دليل على ذلك فرصة لإمتصاص الغضب وجس النبض والتفاوض مع المعارضة والمحكمة العليا التي أجلت النظر في الطعن على القانون حتى منتصف سبتمبر.

قانون الحد من حجة المعقولية أن توصل المفاوضين إلى حل وسط سيصبح قانوناً للحد من سلطات المحكمة في الأراضي المحتلة وفي القضايا التي يرفعها العرب من سكان أراضي ١٩٤٨م وأهالي الضفة الغربية ضد سلطة الإحتلال لكي تتهود القدس وتهدم الأحياء العربيةويطلق يد الاستيطان في الضفة، وبعد الاحتجاجات سيهدأ حلفاء نتانياهو قليلاً ويدركون أن أحلامهم ليست قابلة للتحقيق بالكلية ويكفون عن تهديده المستمر بالإستقالة وإلا سيفسحوا المجال للنخب والمثقفين للعودة وساعتها لا مجال لإرجاع العجلة إلى الخلف لتحقيق مكاسب كبيرة أو صغيرة.

يوسف جبارين أستاذ القانون الدولي لخص الحكاية في أن التعديلات القضائية بمثابة إعلان حرب على وجود الشعب الفلسطيني داخل الخط الأخضر، لأنها تفتح الباب لتجريده من حقوقه الأساسية وفي مناطق ١٩٦٧م بمواصلة التطهير العرقي ونهب الأراضي لصالح الاستيطان، التعديلات هي إفتتاحية الدولة اليهودية على أرض إسرائيل الكبرى التي تشمل كل مساحة فلسطين التاريخية كأمر واقع، لكن التعديلات أيضاً كشفت للقاصي والداني هشاشة الحلم الصهيوني والحجم الحقيقي لديمقراطية العلوم التي لا تغيب عنها شمس التكونولوجيا في إسرائيل هي مجرد دولة دهماء ككل دول العالم الثالث غير محصنة ضد الاستبداد والديكتاتورية وخصائص الدولة العميقة، حتى جيشها الذي لا يقهر من الممكن أن يتحلل ويتفسخ من داخله رغم المحاولات اليائسة لاستعراض القوة والإرهاب في غزة وسوريا ولبنان للتأكيد على الوحدة والجهوزية.

يوماً ما كتبت حنا آرندت «أخطر التحالفات هي التي تعقد بين الرعاع والنخبة إنها بمثابة الشر المطلق»، هذا ما يسعى إليه نتانياهو الآن وسواء أقر القانون أو وصل الصهاينة إلى حل وسط فيما بينهم فالخاسر الأكبر في كل الأحوال هو الشعب الفلسطيني.

دولة الاحتلال الإسرائيلي - إلى أين

عليان الهندي*

أعادت المظاهرات والاحتجاجات العنيفة التي يشهدها المجتمع الإسرائيلي ضد التعديلات القضائية، إلى الواجهة الأزمات التي يحذر منها قادة المجتمع في إسرائيل وخبراؤها ومفكروها السياسيون والعسكريون، من أن عدم التوصل لحلول بشانها، فإن ذلك سيؤدي إلى زوال إسرائيل، أو إلى خراب البيت الثالث، علما أن لا التاريخ ولا الحفريات الأثرية العلمية التي أجريت في فلسطين من البحر إلى النهر تشير إلى بيت أول (حكم يهودي) أو بيت ثانٍ.

وفي الوقت الذي نجحت فيه النخب السياسية والاجتماعية اليهودية في التغلب على التناقضات والأزمات التي مر فيها المجتمع الإسرائيلي بعد إقامة دولة الكيان من خلال ما يسمى بـ «مفاعل الصهر» الذي نجحت فيه المؤسسة الصهيونية العسكرية، والجيش الإسرائيلي في دمج اليهود الشرقيين وغيرهم من اليهود الذين لا ينتمون للثقافة الغربية، في المؤسسات العسكرية والمدنية، وتجميعهم حول رواية تاريخية ودينية وجغرافية موحدة، تمنح اليهود الحق الحصري للسيطرة على فلسطين التاريخية من دون أي اعتبار لصاحب الأرض الأصلي -الشعب الفلسطيني.

ورافق الرواية الصهيونية المذكورة الادعاء برغبة الدول العربية، بمن فيهم الشعب الفلسطيني الذي لم تعترف بوجوده، بتدمير دولة إسرائيل ورمي اليهود إلى البحر، ما دفع المجتمع الإسرائيلي بكافة أطيافه الغربية والشرقية إلى التوحد والتركيز على التهديد القادم من الشعب الفلسطيني، الذي شنت ضده حربا عسكرية واستيطانية معلنة منذ عام ٢٠٢٠ هدفها الأساسي دفعه إلى التسليم بالسياسات الإسرائيلية العنصرية القائمة على القتل والتدمير، وخلق بيئة للتهجير الطوعي والقسري.

لكن توقيع اتفاقيات السلام مع الدول العربية، وانتهاء عصر الحروب الشاملة مع الدول العربية

* باحث في الشؤون الإسرائيلية.

منفردة ،ولو بشكل مؤقت، أو مجتمعة والخوف من التوصل لحل مع الشعب الفلسطيني بخصوص المناطق المحتلة عام ١٩٦٧، أظهر إلى العلن ،خاصة في العقود الثلاث الماضية، أزمات وتناقضات جديدة في المجتمع الإسرائيلي، التي يمكن وصفها بأنها مواضيع تؤدي إلى تفجر صراعات وخلافات حقيقية، سيكون لها انعكسات بعيدة المدى على بقاء دولة إسرائيل كدولة ذات اغلبية يهودية. والأزمات التي تجري حولها صراعات وخلافات داخلية هي: القضية الفلسطينية وطرق حلها، ومسألة المواطنين الفلسطينيين الذين يحيون في دولة الاحتلال الإسرائيلي، وهوية الدولة وتعريفها وهل هي دولة يهودية ديمقراطية، أو دولة ديمقراطية يهودية، والأزمة الأخيرة هي من يحكم دولة إسرائيل المؤسسة أم الحزب.

كذلك لا بد من الإشارة إلى الأطراف الأساسية في هذا الصراع الذي يضم تيارات اليسار وجزءاً كبيراً من اليمين الوسط العلماني، في مواجهة أتباع الكنيس (الصهيونية الدينية وأتباعها) والمستوطنين والمتدينين المتزمتين (الحريديم) وجزء مهم من اليمين الوسط في دولة الاحتلال الإسرائيلي.

لذلك تحاول المقالة الحالية، التركيز على الأطراف الأساسية المشاركة وعلى الأزمات التي يمر بها المجتمع اليهودي في دولة إسرائيل، وطرح انعكاسات إن كان على المجتمع اليهودي داخل دولة إسرائيل، أو على الشعب الفلسطيني بشقيه في فلسطين الانتدابية المحتلة عام ١٩٤٨ أو في المناطق الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧. وقبل الحديث عن تلك الأزمات لا بد من الإشارة إلى الأطراف المشاركة ونسبها في المجتمع الإسرائيلي:

الأطراف المشاركة

إثر الانتخابات الإسرائيلية التي جرت في نهاية عام ٢٠٢٢، وتشكيل حكومة بنيامين نتنياهو اليمينية المتطرفة، انقسم المجتمع الإسرائيلي ،البالغ عدد أفراده ما يقارب من ٩,٧ مليون نسمة منهم ٧,١ مليون يهودي وفق معطيات مكتب الاحصاء الإسرائيلي لعام ٢٠٢٢، إلى ثلاثة فئات أساسية هي : الفئة الأولى، العرب (٢,١ مليون نسمة) الذين يشكلون ٢١٪ من عدد سكان دولة الاحتلال، ولم يشاركوا منذ البداية في التحركات والمظاهرات المطالبة بعدم إحداث تغييرات في المنظومة القضائية الإسرائيلية، وحتى من شارك منهم ورفع العلم الفلسطيني طلب منه إنزال العلم من قبل المتظاهرين، أو تعرض للضرب الشديد على يد أفراد الشرطة، ما اعتبر رسالة إلى الشعب الفلسطيني في الداخل المحتل أن لا قادة ونخب المتظاهرين، ولا الحكومة التي ناصبتهم العداء أصلا كما هو حال كل الحكومات الإسرائيلية، يرغبون بمشاركتهم في هذا الصراع، وجعله حصرا في

الأغلبية اليهودية. أما الفئة الثانية، فهي مكونة من اليمين الإسرائيلي الذي تبلغ نسبته أكثر بقليل من ٤٥٪ من المجتمع اليهودي ،وليس من عدد سكان دولة الاحتلال، وهذه الفئة من اليمين الوسط العلماني حتى اليسار الصهيوني ويقودهم في الوقت الحاضر حزبي «يش عتيد يئير لابيد، و «المعسكر الرسمي» الذي يقوده بنيامين غانتس»، ومن هؤلاء معظم اليهود الروس، تميل في السياسة نحو اليمين المتطرف وفي الحياة العادية نحو العلمانية المفرطة. أما الفئة الثالثة، فهي مكونة ممن يصنفون أنفسهم اليهود المحافظين بدرجة أو بأخرى وأحزاب اليمين المتطرف (الصهيونية الدينية) واليهود المتزمتين دينيا (الحريديم)، وهؤلاء يشكلون أقل من ٥٥٪ من المجتمع اليهودي في دولة إسرائيل، منهم ٢٠٪ محافظون غير متدينين، وهم الذين يقودون الحكومة الحالية١.

قضايا الصراع وطرق الحل العدوان على الشعب الفلسطيني

مع نهاية الانتفاضة الأولى وصل الكثير من فئات المجتمع اليهودي إلى ضرورة إيجاد حل ما للقضية الفلسطينية يعتمد بشكل أو باخر على الحكم الذاتي من دون مشاركة منظمة التحرير الفلسطينية أو من يمثلها في أي مفاوضات ستجري مستقبلا. وكان هذا الحل محل إجماع الأوساط اليهودية المختلفة، باستثناء المستوطنين ومؤيديهم الرافضين لأي حل مع الفلسطينيين. لكن التوقيع على اتفاقيات أوسلو وما تبعها من مفاوضات أحدثت شرخا في المجتمع الإسرائيلي، وأبرزت إلى العلن الخلافات العميقة داخل دولة الاحتلال حول السلام ومفهومه والطرف الذي يجب التوصل إلى حل معه. ووصلت الخلافات المذكورة حدا بمقتل رئيس وزراء إسرائيل السابق إسحاق رابين على يد أحد أنصار الصهيونية الدينية. ما تطلب من المجتمع الإسرائيلي ونخبه السياسية العسكرية والاقتصادية والاجتماعية استحضار الرواية الصهيونية التقليدية بعدم وجود شريك للتفاوض معه على حل، وعدم استغلال الفلسطينيين الفرص التي اتيحت لهم من قبل رئيسي وزراء إسرائيل السابقين إيهود براك وإيهود أولمرط، وأن الشعب الفلسطيني مجموعة من الارهابيين لا يريدون دولة، ولا سلام، بل يردون القضاء على دولة إسرائيل وعلى اليهود فيها.

ونتيجة لهذه العودة للرواية الصهيونية التقليدية تجاه الفلسطينيين، قاومت دولة الاحتلال الإسرائيلي، خلال العقدين ونيف، كل الجهود الإقليمية والدولية، بما في ذلك جهود الولايات المتحدة الأميركية، للتوصل إلى أي حل القضية الفلسطينية، التي ضغط على قيادتها بمجموعة من الاشتراطات ،الإسرائيلية المغلفة بمطالب دولية، التي نفذ معظمها من دون أن يكون لذلك أي انعكاسات على الطرف الإسرائيلي الذي ازداد تطرفا، ما دفع بمختلف الأطراف الاقليمية والدولية إلى التخلي

عن الجهود السلمية تاركين الأمور على غاربها لجيش دولة الاحتلال ومستوطنيه، لينشروا القتل والتدمير في صفوف الشعب الفلسطيني وممتلكاته.

نتيجة لذلك، استحضرت الحلول الأمنية للقضية الفلسطينية التي عبرت عنها استراتيجيتا الجيش الإسرائيلي لعامي ٢٠١٥ و٢٠٢٠ اللتان تقولان أن مصادر التهديد القادمة على دولة إسرائيل ستأتي من دول بعيدة (إيران) وقريبة (لبنان) وفاشلة أو في طريقها للتفكك (سوريا)، أو من تنظيمات وكيانات تحكم رقعة جغرافية من دون أن تكون دولة (حزب الله وحماس)، ومنظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الوطنية الفلسطينية (المسيطرة نوعا ما على أجزاء من الضفة الغربية التي تضم معظم السكان تقريبا) التي تناضل ضدها في ساحات العمل الدبلوماسي والمقاومة الشعبية، أو ما تسميه إسرائيل الحرب الناعمة٢.

وأضافت الاستراتيجيتان العدوانيتان لدولة الاحتلال الإسرائيلي، أن ساحة الحروب الأساسية ستكون المدن والتجمعات السكانية، ويجب على إسرائيل تحقيق النصر فيها وقتل أكبر عدد ممكن، ممن يواجهها إن كانت المعركة مع حزب الله في لبنان أو مع حماس في قطاع غزة أو مع السلطة الوطنية في الضفة الغربية المحتلة. وفي السياق المذكور، صرح رئيس الأركان الإسرائيلي السابق أفيف كوخافي بحفل تنصيبه عام ٢٠٢٠، أنه «سيعد الجيش ليكون قاتلا ومفيدا وحديثا٣»، كما قاد الجيش في هجومه على مخيم بلاطة للاجئين الفلسطينيين عام ٢٠٠٢، حين ركز على القتل المجرد بدلا من تمكين المقاتلين الفلسطينيين من الانسحاب، وبالتالي إنهاء المعركة٤. وعلى عكس الاستراتيجيات العسكرية التي تتحدث عن تحقيق النصر بهدف توسيع هامش المناورة السسياسية للحكومات الإسرائيلية، جاءت الاستراتيجيات الجديدة لتقول ان الهدف من المعارك هو «الانتصار في المعركة بغض النظر عن خسائر الطرف المقابل ومنعه من تحقيق أي هدف سياسي، وأن المعارك والقتل لا يهدفا إلى زيادة مساحة المناورة للحكومة الإسرائيلية «.

تتوافق النظرية العسكرية المذكورة أعلاه، بشكل كامل، مع ما يطالب به اليمين والمستوطنون في دولة الاحتلال الذين يرفعون دائما شعار «دعوا الجيش ينتصر» في حربهم ضد ما يطلقون عليه «الارهاب الفلسطيني»، أو في «خطة الحسم» التي طرحها وزير المالية الإسرائيلي الحالي الفاشي بتسلال سموترتش التي تطالب بشن حرب شعواء على الفلسطينيين لتحقيق النصر الشامل عليهم.

ومن هنا كان الاتفاق بين أطياف المجتمع الإسرائيلي، على أحد أهم نقاط الخلاف داخله، بمعنى أن الاجماع في دولة الاحتلال لم يتحقق سوى بموافقة أبناء الكنيس -الصهيونية الدينية- على قتل وتدمير الشعب الفلسطيني.

الهوية

كانت مسألة هوية الدولة الدينية والوطنية أحد أهم المشاكل الأساسية التي شهدها المجتمع اليهودي في دولة إسرائيل، حيث خاضت النخب الإسرائيلية المختلفة جدالا ونقاشا ،على مدار العقود الثلاث الماضية، حول هوية الدولة وهل هي هوية ديمقراطية يهودية، أي دولة ديمقراطية يعيش فيها اليهود مع غيرهم ممن يتواجدون في إسرائيل، والمقصود هنا الأقلية العربية الفلسطينية صاحبة الأرض الأصلية، أم يهودية ديمقراطية، بمعنى أن أصل هوية دولة الاحتلال هو الهوية اليهودية، وما دونها شيء طارئ على هذه البلاد، ويمكن لأصحاب الهويات الأخرى (العرب الفلسطينيين) البحث لهم عن هوية وطنية ودينية خارج فلسطين التاريخية.

ونتج عن ذلك النقاش والجدال حلول خلاقة جاءت بها الأغلبية اليهودية عندما تم سن قانون القومية العنصري عام ٢٠١٨ الذي تتحدث بنوده عن أن «أرض إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب اليهودي، وأن دولة إسرائيل هي دولة قومية للشعب اليهودي، وان ممارسة حقه في تقرير المصير خاص به لوحده». وحدد القانون مجموعة من الرموز اليهودية الخاصة بدولة إسرائيل كلون العلم والنشيد الوطني «الأمل» والقدس الموحدة وأن اللغة العبرية هي لغة الدولة، وغير ذلك من البنود، متجاهلا في نفس الوقت المطالب الوطنية والقومية والسياسية والاجتماعية لأصحاب الأرض الأصليين الذين وصل عددهم آنذاك ٢ مليون نسمة، ومتناسيا في نفس الوقت وجود ٣ ملايين فلسطيني في الضفة الغربية ومدينة القدس يتطلعون إلى حق تقرير المصير٥. لذلك وعندما شكلت حكومة بينت-لابيد معتمدة في ذلك على أصوات القائمة العربية برئاسة منصور عباس بذلت جهود كبيرة جدا من أجل إسقاطها، والإتيان بحكومة جديدة تمثل الأغلبية اليهودية في إسرائيل.

علمانية أم دينية

يعتبر طابع الدولة هو أحد مواضيع الخلاف الأساسية داخل دولة إسرائيل بين من يتطلع إلى تحويلها لدولة الشريعة اليهودية، وبين من يتطلع إلى المحافظة على العناصر العلمانية فيها، رغم الأسس الدينية التي قامت عليها، ورغم الاتفاق على ما يسمى بـ «اتفاقية الوضع القائم» بين المتدينين المتزمتين (الحريديم) في القضايا المدنية كالزواج وتحديد من هو يهودي وضرورة أن تكون الأغذية وفق الطريقة اليهودية.

لكن موازين القوى الديمغرافية بين الطرفين، لم تمكن طرفاً من حسم المعركة على حساب الطرف الثاني، خاصة أن القوى اليهودية العلمانية في إسرائيل تشكل ٤٥٪ من مجموع سكان دولة إسرائيل،

في حين لم تصل نسبة المتطلعين لإقامة دولة الشريعة اليهودية إلى أكثر من ٢١٪ من مجموع السكان اليهود في إسرائيل٦.

نتيجة للاعتبارات الديمغرافية المذكورة، وبسبب مشاركة الأحزاب الدينية على مختلف اطيافها، في كل الحكومات منذ نشأة إسرائيل حتى اليوم، يحصل المتدينون المتزمتون (الحريديم) واتباع الصهيونية الدينية (المستوطنون) على امتيازات ومزايا تفوق تلك التي يحصل عليها اليهودي العادي في كافة المجالات، حيث تنتشر المدارس الدينية على مختلف أطيافها، وتصرف لطلابها ميزانيات شبيهة لتلك الميزانيات التي تصرف للذين يخدمون في الجيش، وتقدم لهم المنح المختلفة في مجال الإسكان والخدمات المختلفة وميزانيات مخاطرة لمن يسكن في مستوطنات الضفة الغربية.

إضافة لذلك، لم تنجح القوى العلمانية بسن قوانين تحرم الفئة المذكورة أعلاه من الامتيازات التي يحصلون عليها. وفي المقابل، لم ينجح طلاب دولة الشريعة اليهودية بفرض نمط حياتهم على بقية الدولة، الأمر الذي خلق تعايشا، ينتظر فيه كل طرف حدوث تغييرات ديمغرافية تمكنه من تحويل الدولة إلى النمط الذي يريده، علما أن الكفة تميل لصالح المتدينين والمستوطنين، لأن الـ ٥٥٪ المتبقية من المجتمع اليهودي تميل بشكل أو بآخر إلى التدين أو إلى التيارات الدينية المحافظة في دولة الاحتلال الإسرائيلي.

مؤسسات الدولة العميقة أم الأحزاب الحاكمة

موضوع أخر محل خلاف وصراع عميق داخل دولة الاحتلال الإسرائيلي يتمثل رغم ما يسمى بالطابع الديمقراطي لدولة الاحتلال الإسرائيلي، أو الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، وفق الرواية الصهيونية، تتمتع مؤسسات الدولة العميقة في إسرائيل بمكانة قوية تمكنها المشاركة في عملية اتخاذ القرار (الجيش الإسرائيلي) أو الإشراف على قرارات الحكومة وملائمتها للقوانين إن كانت محلية أو دولية (محكمة العدل العليا) أو إصدار أوامر تنفيذية لبقية مؤسسات الدولة تتعارض مع السياسات العامة لهذه المؤسسات مثل تدخل المستشار القضائي في قرارات الحكومة أو في عمل الشرطة الإسرائيلية.

ونتيجة للهيمنة الغربية (الاشكنازية) على مؤسسات الحكم في دولة الاحتلال الإسرائيلي، وعدم مشاركة أطراف أخرى في قيادة هذه المؤسسات، طمحت فئات مثل اليهود الشرقيين والمتدينين المتزمتين (الحريديم) والمستوطنين ،خاصة بعد عدم اخذ موافقتهم على الانفصال عن قطاع غزة، في المشاركة وأخذ دور في هذه المؤسسات، التي تتجاهل، دور المنتصر في الانتخابات، ما دفع تلك المجموعات إلى العمل على تحييد مؤسسات الدولة العميقة من عملية اتخاذ القرار، وتحويلها إلى

الكنيست والحكومة، أي الأحزاب اليمينية المتطرفة دينيا وسياسيا، ليبدأ تاريخ ما يسميه الكاتب الإسرائيلي آفي شاي بن حاييم «إسرائيل الثانية».

وتعتبر المؤسسات الأمنية أهم مواقع الهيمنة الإشكنازية في دولة إسرائيل، التي يرغب اليمين الإسرائيلي في إحداث تغييرات في صفوفها. لكن قوة هذه الأجهزة، إن كان بحكم القانون، أو بحكم سيطرتها على مراكز القرار أفشل المحاولة الاولى لبنيامين نتنياهو عام ١٩٩٨ بإحداث أي تغيير ودفع بدلا من ذلك كرسيه ثمنا لهذه المحاولة. وتشير المعطيات إلى وجود ١٣ رئيسا لجهاز المخابرات لم يشغل المنصب من أبناء النخب الشرقية سوى شخص واحد، في حين تولى منصب رئاسة الموساد ١٢ شخصية من بينها شخصيتان شرقيتان، أما منصب رئيس هيئة الأركان فقد تولاه ٢٢ جنرالا من بينهم ٥ جنرالات ذوي أصول الشرقية، في حين تولى منصب مفتش عام الشرطة ١٧ مفتشا عاما من بينهم ٤ شخصيات شرقية، أما مصلحة السجون فكانت هي المؤسسة الوحيدة التي تولى فيها ٩ شخصيات شرقية منصب المفتش العام للسجون، في حين شغل نفس المنصب ٨ شخصيات غربية٨.

ويعتبر الجهاز القضائي ثاني أهم مراكز القرار في إسرائيل الذي تسيطر عليه النخب اليهودية الغربية (الاشكنازية) حيث تفيد المعطيات أن ٧ شرقيين من أصل ٨٩ من قضاة محكمة العدل العليا كانوا من أبناء اليهود الشرقيين. وبخصوص المناصب الأخرى في الجهاز القضائي فتشير المعطيات أن منصب النائب العام حصرا على النخب القانونية الغربية (الاشكناز) الذين عين منهم ١٢ نائباً حتى عام ٢٠٢٠، أما منصب المستشار القضائي للحكومة فقد شغله أبناء النخب الغربية (١٤) وشخصية شرقية واحدة فقط٩.

لذلك كان العمل على إحداث إصلاحات قضائية في دولة الاحتلال الإسرائيلي هو الأسهل، في مسيرة السيطرة على مؤسسات الحكم. وتفيد المعلومات التي حصلت عليها وسائل الإعلام والتسريبات خاصة من قبل صحيفة هأرتس أن الاصلاحات القضائية تتكون من ٤ مراحل هي:

سن قانون إلغاء مبدأ «المسببات المعقولة»، وهو إجراء قانوني إداري، يمنح المحكمة الإسرائيلية العليا الحق في التدخل في القرارات الحكومية وإلغائها، وعدم الموافقة على بعض التعيينات في الوظائف العامة، أو التدخل لإلغائها مثل إصدار قرار يلزم الحكومة بإقالة آرييه درعي من وزارتي الداخلية والصحة، الذي التزم أمام المحكمة باعتزال الحياة السياسية مقابل عدم توجيه تهمة خيانة الامانة له، التي تحرمه من ممارسة المهام الحكومية لمدة ٥ أعوام.

إلغاء لجنة تعيين القضاة، وحصرها في الحكومة المنتخبة -أي تعيين سياسي للقضاة.

تعيين نائب عام مختص بالقضايا الجنائية للوزراء وأعضاء الكنيست من قبل المستوى السياسي، بهدف العمل على كسب الوقت في حال توجيه تهم جنائية لأعضاء كنيست أو أعضاء حكومة. والثاني، تحويل

صلاحيات المستشار القضائي للحكومة إلى استشارات غير ملزمة للحكومة، وليس كما هو الحال في الوقت الحاضر، الذي يقوم فيه المستشار القضائي بأحد الأدوار المهمة في عملية اتخاذ القرار، خاصة عندما تتعارض هذه القرارات أو التعيينات مع القوانين والتشريعات الإسرائيلية، أو في حالات الطوارئ مثل وجود حكومات انتقالية، التي تطلب من المستشار القضائي للحكومة الموافقة على بدأ إجراءات تعيين رئيس الأركان الحالي المستوطن هيرتسي هليفي، نظرا لوجود حكومة انتقالية يترأسها يائير لبيد. علاوة على ذلك، تتضمن الاصلاحات المنوي إدخالها من قبل الليكود إمكانية تمثيل الحكومة أمام المحكمة الإسرائيلية العليا بمحام من خارج المؤسسة القضائية الحكومية. وما ينطبق على المستشار القضائي للحكومة ينطبق على المستشارين القضائيين في الوزارات الإسرائيلية المختلفة.

إضافة لذلك تخطط الحكومة الإسرائيلية الحالية لتقليص إمكانية توجه الجمعيات والمؤسسات إلى تقديم التماسات للمحكمة الإسرائيلية العليا، واختصارها بالأشخاص المتضررين فقط، ما يعني ،من ضمن ما يعنيه، حرمان المؤسسات والجمعيات الحقوقية المدافعة عن الفلسطينيين من التوجه إلى سلطة قضائية في إسرائيل بشكل جماعي.

المسؤولية عن إعلان الحرب

المجال الآخر والحيوي بالنسبة لأحزاب اليمين الحاكم، وهو أيضا محل خلاف عميق مع الجهات المعارضة هو امتلاك الحق المطلق بإعلان الحرب أو شن عمليات عسكرية ضد اهداف مختلفة إن كان ذلك ضد الفلسطينيين أو ضد إحدى الدول العربية. في السياق المذكور تحدث البند الفرعي «أ» من بند ٤٠ من قانون الحكومة يقول أن الدولة لا تبدأ الحرب إلا بقرار من الحكومة.

رغم أن البند الفرعي «ب» من بند ٤٠ يقول أنه ورغم صلاحية الحكومة بعملية اتخاذ قرار الحرب، إلا أن ذلك لا يمنع شن عمليات عسكرية مطلوبة لتحقيق هدف الدفاع عن الدولة وعن الأمن العام١٠. وهو الإجراء الذي يستغله الجيش في شن الحروب، التي تبدأ بالعادة على أنها عملية عسكرية، ثم تتوسع لتصبح حربا شاملة.

واستكمل قانون الحكومة القول أن إعلان الحكومة الحرب يتطلب منها فيما بعد إعلام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست والكنيست بكامل هيئتها فيما بعد. أما في حالة العملية العسكرية فعلى الحكومة إعلام لجنة الخارجية والأمن التابعة للكنيست.

في السياق المذكور لا بد من التوضيح إن الحكومة الإسرائيلية لم تأخذ قرارا بالحرب سوى مرتين هما حرب لبنان الأولى والهجوم على قطاع غزة عام ٢٠١٤، في حين اندلعت حرب عام ١٩٦٧ بعد

ضغوط هائلة من المستوى العسكري على المستوى السياسي وصلت إلى ذروتها باستقالة رئيس الوزراء من منصب وزير الدفاع وتحويله لموشيه ديان.

لذلك ترى الحكومة باهمية كبيرة، اهمية السيطرة المنفردة على قرار الحرب، لأن من يسيطر على قرار الحرب يسيطر بالضرورة على قرار السلام، الذي لا تتطلع له لا مؤسسات الدولة العميقة ولا الأحزاب الحاكمة. ولصعوبة الأمر والمشاكل التي يمكن أن تواجه الائتلاف الحاكم ،خاصة أحزاب اليمين، يعتبر هذا الموضوع من المواضيع المؤجلة الحسم فيها، إلى حين اتضاح الصورة بشكل كامل في كل ما يتعلق بالإصلاحات القضائية.

تقليص صلاحيات رئيس الأركان

يسود الاعتقاد أن المجال الثالث الذي ترغب أحزاب اليمين الحاكم السيطرة عليه هو المؤسسات الأمنية، وفي مقدمتها جيش الاحتلال الإسرائيلي، حيث يشير القانون الأساس: أن رئيس الأركان هو القائد الأعلى للجيش الإسرائيلي١١، وأنه يدير الجيش بالتعاون مع أعضاء هيئة الأركان الذين يحملون جميعهم تقريبا رتبة جنرال، من دون تدخل المستوى السياسي في تلك الإدارة، بمن في ذلك وزير الدفاع. ويضيف القانون أن المستوى السياسي في دولة الاحتلال الإسرائيلي، هو المرجعية النهائية المسؤولة عن الجيش ،وليس شخصاً محدداً مثل رئيس الوزراء أو وزير الدفاع. وعندما يتخذ قرار بالحرب على كامل الحكومة أن تجتمع، وتوكل المجلس الوزاري المصغر بإدارة الحرب. وبعد اجتماع المجلس الوزاري المصغر يتم توكيل رئيس الوزراء ووزير الدفاع بالتعاون مع رئيس الإركان في الإشراف وإدارة الحرب.

لذلك وفي حال نجاح حكومة اليمين في مساعيها بإحداث الاصلاحات القضائية على مختلف أنواعها، ستعمل على سن قوانين تمنحها الحق الحصري بإعلان الحرب، بعيدا عن قرار الجيش، وسيذهب التيار الحاكم في إسرائيل إلى إجراء إصلاحات عسكرية تحول رئيس الوزراء إلى القائد الأعلى للجيش الإسرائيلي بدلا من رئيس الأركان.

ولمثل هذه الإصلاحات انعكاسات خطيرة على الدول العربية وعلى الفلسطينيين بشكل خاص، لأن نظام الحكم في إسرائيل هو نظام إئتلافي، يعطي القوة للأحزاب الصغيرة. وفي الوضع الذي نعيش، وفي حال نجاح المستوطنين ومعها الأحزاب الدينية المتزمتة في السيطرة على الجيش، ستعمل تلك الفئات على تسريع السياسات الإسرائيلية العنصرية بحق الفلسطينيين، القاضية بالتخلص منهم، وربما تكون حادثة طرد المسلمين من ميانمار حاضرة أمامهم، خاصة أن هناك علاقات وثيقة بين نظام الحكم في ميانمار ودولة الاحتلال الإسرائيلي.

خلاصة

العقد الاجتماعي الذي أسس عليه المجتمع اليهودي في دولة الاحتلال الإسرائيلي، الذي حافظت فيه القوى المختلفة على مصالحها، لم يعد صالحا لتستكمل دولة الاحتلال مسيرتها. ويعود السبب الأساسي في ذلك إلى تكون كتل ديمغرافية يهودية واسعة كالمستوطنين والمتدينين المتزمتين دينيا (الحريديم) المشكلين من الغربيين والشرقيين على حد سواء، واليهود الروس المتطرفين سياسيا والعلمانيين في الحياة العامة، والتيارات اليسارية المتضرر الأكبر من هذه الاصلاحات، التي إن تمت سيكون لها انعكاسات خطيرة على الفئتين الأخيرتين لأن جوهر الاصلاحات القضائية هو تعزيز مكانة المتدينيين والمستوطنين على بقية فئات المجتمع اليهودي في دولة الاحتلال، ما يساعد في زيادة حركة الهجرة إلى الخارج خاصة لجمهور بعض التيارات الليبرالية والتيارات اليسارية، التي بدأت الكثير من نخبهم السياسية والاجتماعية والاكاديمة إما بالانطواء والاعتزال أو بالعودة من حيث جاءوا.

الإصلاحات القضائية إن تمت بالكامل ستمنح الحكومة التي تتمتع بأغلبية في الكنيست ممارسة قمعها للمعارضة نفسها، وستوجه ضربة قاصمة للمدافعين عن حقوق الانسان في دولة الاحتلال، وبالحريات المحدودة التي يتمتع بها الفلسطينيون في الداخل المحتل، وكذلك الأمر فرض القوانين المباشرة لضم أجزاء من الضفة الغربية لدولة الاحتلال وفق صفقة القرن التي طرحت عام ٢٠٢٠ كمرحلة أولى من مراحل تهجير الفلسطينيين.

في السياق المذكور، لا بد من الإشارة أن الاجماع اليهودي لم يتم سوى بالموضوع الفلسطيني، الذي يشهد تصعيدا وعدوانا شاملا على الشعب الفلسطيني في القدس والضفة الغربية وقطاع غزة، تشارك فيه أجهزة الأمن الإسرائيلية المختلفة، وقطعان المستوطنين، رغبة منهم في دفع الشعب الفلسطيني إلى التسليم بالسياسات الإسرائيلية المختلفة، أو تحقيق الانتصار الشامل عليهم، وفق تصريحات كل المسؤولين في دولة الاحتلال.

الانقسمات التي يشهدها المجتمع اليهودي في دولة إسرائيل، لم تجد من يستغلها لا فلسطينيا ولاعربيا ولا إقليميا. بل العكس، حيث تهرول الدول العربية واحدة تلو أخرى باتجاه التطبيع وإقامة علاقات مع أكثر الحكومات الإسرائيلية عنصرية وفاشية، موجهة رسالة واضحة لإسرائيل بأن القضية الفلسطينية لا تعني الأنظمة العربية وأن لإسرائيل الحق بالتعامل مع القضية الفلسطينية على أنها قضية داخلية تحلها بالطريقة التي تراها مناسبة، خاصة أن الكثير من المواقف العربية الحالية تلتقي مع الرؤية الأميركية والغربية في التعامل مع القضية الفلسطينية.

الهوامش

١ . يوفال إينهورن، من اكثر في إسرائيل العلمانيون أو المحافظون، الموقع الاليكتروني لمجلة غلوبس الاقتصادية رابط المقال الاليكتروني 4\1\2023 .www.globes.co.il/news/article.aspx?did=1001434439.

٢ . مكتب رئيس الأركان، استراتيجية الجيش الإسرائيلي، منشورات جيش الدفاع الإسرائيلي، ص ٦، ٢٠١٥.

٣ . أي «مصدر الموت» وفق الاكاديمية العبرية للغة.

٤ . يغيل ليفي، بسبب الرفض السياسي للحكومة، أفيف كوخافي حول القتل لسياسات، «تيلم» مجلة ربعية لليسار الإسرائيلي، رابط المقال الاليكتروني 18\9\2022، https://telem.berl.org.il/6552.

٥ . القانون الأساس: إسرائيل – الدولة القومية للشعب اليهودي، موقع الكنيست الرابط الالكتروني

https://main.knesset.gov.il/Activity/Legislation/Documents/yesod18.pdf

٦ . مصدر سبق ذكره، يوفال إينهورن، ٤\١١\٢٠٢٣.

٧ . نفس المصدر.

٨ . أوراق فلسطينية، ص ٦٧، مجلة فصلية تصدر عن مؤسسة ياسر عرفات، عدد ٣٢، ربيع ٢٠٢٣.

٩ . بلوخ أبراهام، سلطة النخب: أين الشرقيين في قمة السلطة القضائية، موقع «سيروغيم» التابع لأنصار الصهيونية الدينية في إسرائيل، ١٠\١٢\٢٠٢٠، رابط المقال الاليكتروني، https://www.srugim.co.il/٤١٨٥٣٢-D%٩٨%٩C%DV%DV%A٩%DV%.

١٠ . القانون الأساس: الحكومة، ص ٩، الرابط الاليكتروني للقانون https://fs.knesset.gov.il//law/١٥/lsr_١٥_٣٠٠٣٣٧.pdf.

١١ . مكتب رئيس الأركان، استراتيجية الجيش الإسرائيلي، منشورات جيش الدفاع الإسرائيلي، ص ٢٥، ٢٠١٥.

١٢ شارك في دورية مسلحة لحركة فتح بعد حرب ١٩٦٧م اعتقل وأبعد حيث كان من أوائل المبعدين إلى ألمانيا، شارك في الدفاع عن الثوره في لبنان عام ١٩٧٦ ثم التحق بالقطاع الغربي بعد المؤتمر الرابع وظل هناك حتى العودة إلى الوطن.

١٣ شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية، ص: ٣١٧

١٤ فيصل دراج، ذاكرة المغلوبين، ص: ١٤٣

١٥ محمود درويش، يوميات الحزن العادي، ص: ٦٩

١٦ السابق، ص: ٦٩

١٧ السابق، ص: ١٤٨

١٨ السابق، ص: ١٥١

١٩ ٥ السابق، ص: ١٥٠

٢٠ مالك الريماوي، رؤى تربوية، العدد: ٣٨/٣٩ ص: ١٦١

٢١ عائشة عودة، ثمناً للشمس، ص: ١٤٨

٢٢ محمود شقير، ظل آخر للمدينة، ص: ١٥٢

٢٣ المتوكل طه، أيام خارج الزمن، ص: ٢٥٣

٢٤ السابق، ص: ٢٥٧

٢٥ محمود شقير، ظل آخر للمدينة، ص: ١٤٦

٢٦ عدنان ضميري، مكان مؤقت، ص: ٢٤٢

٢٧ المتوكل طه، أيام خارج الزمن، ص: ٢٥٢

٢٨ عدنان ضميري، مكان مؤقت، ص: ١٢٠

٢٩ المتوكل طه، أيام خارج الزمن، ص: ٢٥٥-٢٥٦

٣٠ عدنان ضميري، مكان مؤقت، ص: ٢٢٤

٣١ عائشة عودة: ثمناً للشمس، ص: ١٥٤

٣٢ حسن عبد الله، البستان يكتب بالندى، ص: ٤١

٣٣ السابق، ص: ٤٤-٤٥

٣٤ السابق، ص: ٥٤

٣٥ السابق، ص: ٥٤

٣٦ السابق، ص: ٢٦٤

٣٧ عدنان ضميري، ص: ١٠٥

٣٨ عائشة عودة، ثمناً للشمس، ص: ٤٢

٣٩ عدنان ضميري، مكان مؤقت، ص: ١١٠

٤٠ السابق، ص: ١٨٤

٤١ حسن عبد الله، كلمات على جدار الليل - أثر الرسالة في حياة المعتقل الفلسطيني، ص: ١٨٤

٤٢ المتوكل طه، أيام خارج الزمن، ص: ٢٥٤

٤٣ السابق، ص: ٢٥٢

٤٤ السابق، ص: ٢٥٤

٤٥ السابق، ص: ٢٥٢

٤٦ السابق، ص: ٢٥٤

٤٧ السابق، ص: ٢٦٤

٤٨ إبراهيم نصر الله، السيرة الطائرة، ص: ١٧٣

٤٩ عائشة عودة، ثمناً للشمس، ص: ٢٦٣

٥٠ مالك الريماوي، رؤى تربوية، العدد: ٣٨/٣٩ ص: ١٦١

٥١ عائشة عودة، ثمناً للشمس، ص: ١٥٥

٥٢ حسن عبد الله، البستان يكتب بالندى، ص: ٢٣٤

٥٣ مالك الريماوي، رؤى تربوية، العدد ٣٩/٣٨، ص: ١٦١

٥٤ بسام الكعبي، جمر المحطات، ص: ٧

مبدعون شهداء في حرب غزة

بديعة زيدان *

يفقد الوسط الثقافي والفني كلّ يوم، واحدا من أبرز العاملين في قطاعاته المختلفة، شهيداً جرّاء تواصل آلة القتل الإسرائيلية سياسة الإبادة الجماعية التي تمارسها منذ أكثر من شهر، فغاب مسرحيّون، وكتّاب، وشعراء، وفنانون بصريون، وحافظو أرشيف، وغيرهم، وربما غاب مع الكثير منهم ليس فقط جزءاً مهماً من حيوات الناجين من أحبتهم، ولكن من أعمالهم التي قد يكون القصف اغتالها وإياهم، قبل أن يسربوها بطريقة ما لحفظها من بعدهم، لكونهم لم يتخيلوا أن ما يحدث ممّا يفوق الوصف بالكلمات في قطاع غزة يحدث فعلاً، أو أنهم مضطرون لفعل ذلك، لكونهم سيصبحون أسماء في الذاكرة، وفي قائمة الشهداء التي تتسع يومياً.

"أوراق فلسطينية" تستعرض المسيرة الثقافية والفنية لبعض هؤلاء الشهداء المبدعين، كتّاباً وفنانين، ومن مختلف السياقات الإبداعية، كنوع من الإضاءة على ما قدموه وما كانوا يحلمون بتقديمه، وكنوع من الوفاء لهم ولمسيرتهم التي تختلف زمنياً باختلاف أعمارهم وتجاربهم.

إيناس السقا

في مسرحية «نساء غزة وصبر أيوب»، التي تطرّقت إلى آثار الاعتداءات الإسرائيلية المتكرّرة على نساء قطاع غزة، وعرضت أكثر من مرّة بين العامين ٢٠٠٩ و٢٠١٤، كانت الممثلة الفلسطينية إيناس السقا تصرخ في أحد المشاهد: «ولادي يا عالم... ولادي تحت الأنقاض».

واستشهدت إيناس السقا، رفقة ابنتيها وابنها، بقصفٍ إسرائيلي استهدف منزلاً كانوا قد لجأوا إليه جرّاء العدوان الإسرائيلي المتواصل على قطاع غزّة منذ انطلاق معركة طوفان الأقصى في ٧ تشرين

* كاتبة وناقدة أدبية فلسطينية

الأول (أكتوبر) الماضي.

وكانت السقا قد عاشت لسنوات في العاصمة المصرية القاهرة، قبل أن تقرّر العودة للاستقرار في القطاع، بحسب ما كشفه عضو فرقة أيام المسرح الفلسطينية الممثل ياسين صبرة عبر صفحته على «فيسبوك».

ولعبت الراحلة أدواراً بارزة في العديد من المسرحيات، من بينها مسرحية «فيلم سينما» (٢٠٠٩) للمخرج حسين الأسمر، إذ جسدت دور سعاد؛ الفتاة الفلسطينية التي يفتح لها الزواج باب العودة إلى غزّة التي هجّرت منها عائلتها، لكنّها تكتشف مع مرور الوقت أنّ الغربة ما تزال تسكنها. كذلك تعاونت مع الأسمر في مسرحية «كل شي تمام» عام ٢٠١٠ عن نص لعاطف أبو سيف، ويعالج العنف ضد المرأة في المجتمع.

كذلك، تألقت السقا في مسرحية «نساء غزة وصبر أيوب» للمخرج سعيد البيطار، عبر تجسيدها شخصية أم أسعد في العمل الذي عالج من خلالها قضية المفقودين.

وشاركت بدور الأم في مسرحية «كلهم أبنائي» للمخرج ناهض حنونة عام ٢٠١١، عن نص لآرثر ميلر من إعداد القاص والكاتب الفلسطيني خالد جمعة الذي لفت إلى أن: «إيناس السقا ممثلة مسرحية في غاية الأهمية، ومن أوائل الممثلات على قلتهن في تاريخ المسرح والسينما في غزة، وهي ممثلة متمكّنة ومقتدرة، وتميّزت بشخصية محبة للحياة، ومعطاءة... كانت ذات حضور طاغٍ في كل ما قدمته».

وجسّدت الراحلة في أدوارها المسرحية والسينمائية معاناة النساء الفلسطينيات عامة، والغزيّات منهن على وجه الخصوص، الأمر الذي اعتبرته نابعاً من «إيمانها بعظمة وقوة المرأة الفلسطينية في تحمل الصعاب».

وتعدّ السقا من أوائل العاملات في المسرح الغزّي، وشاركت في العديد من الأعمال الموجهة للأطفال، كما شاركت في ورش مسرحية مختلفة.

وأشار الكاتب خالد جمعة إلى أنّ: «إيناس اقتحمت عالماً لم يكن يُحبذ المجتمع اشتغال النساء والفتيات فيه، أي التمثيل والفنون عامة، وفي وقت مُبكّر نسبياً، وخاضت تحديات مقرونة بالعمل لتحقيق ذاتها من جهة، ولتقديم ما تحب، فالفن كان بالنسبة لها ليس فعلاً تنظيرياً كما الحريّات».

أمّا على الصعيد السينمائي، فقد قدّمت الراحلة عدداً من الأدوار المهمة، من بينها فيلم «ميلاد» للمخرجة أماني أبو رمضان، حيث لعبت دوراً مستوحى من تجربتها الشخصية لامرأة حاملٍ تعاني آلام المخاض في ظلّ عدوان الاحتلال على القطاع عام ٢٠٠٨.

وشاركت السقا أيضاً في الفيلم الروائي «عصفور الوطن» (٢٠١٠)، للمخرج مصطفى النبيه، وتناول نضال الشعب الفلسطيني منذ نكبة ١٩٤٨، عبر شخصية فتى فلسطيني فقد والديه في حرب عام ١٩٦٧، ثم هاجر رفقة شقيقته مع بقية الأسرة المكونة من الجد والجدة والأعمام، نازحين إلى بيت خالهم المختار في إحدى قرى قطاع غزة.

كذلك، لعبت الراحلة دوراً لافتاً في فيلم «سارة» (٢٠١٤) للمخرج خليل المزين، وهو فيلم روائي طويل حاز العديد من الجوائز العالمية، ويتناول حكاية فتاة فلسطينية من أحد مخيمات اللاجئين في غزة تعرضت للعنف الأسري والحبس ثم القتل على خلفية ما يسمى «جرائم الشرف».

مروان ترزي

"حارس أرشيف غزة»، و»حارس تاريخ غزة البصري»، و»حارس صور غزة»... هذه جميعها ألقاب للفلسطيني الستّيني مروان ترزي، الذي استشهد برفقة زوجته وعدد من أفراد أسرته بالقصف الإسرائيلي على كنيسة بورفيريوس للروم الأرثوذوكس في غزة، قبل أيام، وانتشل من بين شهداء المجزرة الجديدة من تحت أنقاضها.

كانت عائلة مروان ترزي قد توّلت في ثمانينيّات القرن الماضي إدارة الاستديو الأول في تاريخ غزة، وهو استديو «صور كيغام»، الذي تأسس في مطلع أربعينيات القرن الماضي، ما أهّله لإنقاذ وأرشفة جزء من هذه الصور، والنيغاتيف الخاصة بأخرى، وكان يضعها في صناديق كرتونية وأكياس بلاستيكية.

ظهر ترزي في فيلم وثائقي تلفزيوني من إنتاج وثائقية دي دبليو الألمانية، قبل ثلاث سنوات، بعنوان «ذاكرة غزة الفوتوغرافية».

من أحد صناديقه، أخرج العديد من الصور النادرة، من بينها صورة الرئيس المصري الراحل أنور السادات، حين كان ضابطاً في غزة، وأخرى لمحمد نجيب، أول رئيس لجمهورية مصر العربية، وأكثر من صورة للثائر تشي غيفارا، حين زار غزة في نهاية خمسينيات القرن الماضي، ومحطة القطارات التي كانت تصل قطاع غزة بمصر، مشدداً على أن هذه الصور هي كنز من تاريخ غزة، فمُسوداتها (النيغاتيف) ونسخها تعكس ثقافة سكّان القطاع وهويتهم، رغم أن ما نجا من مجمل ما صوّره كيغام يعدّ قليلاً، فالكثير من الصور لم يكن مُخزّناً بحرص، وتعرض لضرر كبير بسبب الرطوبة، علاوة على أن الكثير من هذه الصور لم يتم تحميضها، وبعضها غير موثق الحدث والتاريخ، لكن هناك صورا تُظهر فتيات بزي عصريّ في محطة إذاعة، وأخرى لبنك شهير قبل عقود، وبائع للتمر الهندي، وقوارب في ميناء غزة.

وكيغام جيغاليان، صاحب أول استديو تصوير في غزة، من مواليد أرمينيا عام ١٩١٥، وفرّ طفلاً برفقة والدته من المذبحة الأرمنية إلى سورية، وبعدها استقر في القدس. وفي مطلع أربعينيات القرن الماضي، انتقل إلى غزة، حيث بدأ يعمل مُصوّراً.

يشير ترزي في فيلم «ذاكرة غزة الفوتوغرافية»، إلى أن كيغام كافح وناضل حتى افتتح الاستديو الذي حمل اسمه عام ١٩٤٧، وبعد ما حصل عام ١٩٤٨ شعر بأن ما حدث مع عائلته يتكرر، وقرّر توثيق ما يحدث في غزة مع الموجات الكبيرة من اللاجئين إليها.

وحاول ترزي الحفاظ على هذه المواد البصرية لكونها تقدّم وصفاً مفصّلاً لتاريخ غزة الغنيّ والمضطرب، إذ التقط كيغام صوراً مؤثرة عام النكبة الذي شهد استقبال عشرات آلاف اللاجئين جرّاء تهجير العصابات الصهيونية لهم من ديارهم، وبالتالي تأسيس مخيّمات اللاجئين. بعد النكبة الفلسطينية، تهجر كثير من أهل فلسطين إلى غزة، وتم بداية تمركز المهجّرين على شاطئها وتأسس المخيّم الأول الذي حمل اسم مخيم الشاطئ. وقد وثق كيغام بالصور عملية التهجير ونصب الخيام. تحوّلت الخيام، فيما بعد، إلى زينكو، ثم إلى إسبست، كما أنه صوّر اصطفاف اللاجئين في طوابير الطعام، وعندما احتلت إسرائيل غزة لأشهر استطاع توثيق انسحاب الجيش الإسرائيلي.

وأظهر ترزي صوراً نادرة من أرشيف كيغام الذي بحوزته، لنرى كيف كانت غزة مدينة متكاملة، مُستعرضاً صوراً لمبانٍ تاريخية لم تعد موجودة عند تصوير الفيلم، مثل مبنى السرايا الذي تعرض للهدم، وكذلك قصر الحاكم المصري الذي لقي المصير نفسه، لكن هذه الصور ستبقى إرثاً للأجيال القادمة، والآن حتى الكنيسة المجاورة لمنزل ترزي تم قصفها قبل أيّام، ولا أحد يعرف مصير منزله ومصير الكنز.

في العام ١٩٥٦، صوّر كيغام مجازر خان يونس ودخول الدبابات الإسرائيلية التي احتلت غزّة لأشهر، كما وثق فوتوغرافيّاً لانسحابها، ولم يصور أحد تلك الصور غيره، لذا فهي صور نادرة.

عندما بدأت مصر في عهد جمال عبد الناصر بالعمل على تمصير البضائع في العام ١٩٥٧، وأقفل الباب أمام الاستيراد، أصبحت غزة سوقاً حرة، فكانت البضائع تأتيها مباشرة عبر مينائها، وبدأ كيغام يستورد أدوات التصوير، وكان المستورد الرئيسي لها، وعندما توسع عمله بدأ يستورد كاميرات للمستخدم العادي.

كانت السنوات، حسب ترزي، من العام ١٩٦٤ ولغاية العام ١٩٦٧، حافلة بالأحداث، فقد استطاع أحمد الشقيري (أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية لاحقاً)، في تلك الفترة أن يكوّن جيشاً كاملاً بدباباته وعتاده وجنوده. وقد وثّقت الصور والمسودات لجيش التحرير، لكن بعد حرب ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لغزّة تغيّرت الأحوال، لكن الصور بقيت شاهدة على التاريخ.

لا يضم أرشيف ترزي توثيق كيغام لزيارة تشي غيفارا لغزّة وحسب، بل ثمة توثيق فوتوغرافي لزيارات شخصيات أخرى، من بينها الممثل الهوليوودي الشهير، وقتذاك، يول براينر، لتسليط الضوء على محنة اللاجئين الفلسطينيين في المنطقة، ورئيس الوزراء الهندي جواهر لال نهرو.

وواصل مروان ترزي سرد الحكاية في الفيلم، بقوله: «في ستينيات القرن الماضي كان لي أخ اسمه موريس، وكان يهوى التصوير، وكان متدرباً عند كيغام، وبعد ذلك نشأت علاقة مودة بينهما، واعتبره كيغام ابناً له، فعلمه كل شيء حتى تشرّب الصنعة بأعلى جودة، وأصبح يعمل لديه، وكنت أذهب لأساعده في تنشيف الصور».

يتابع: «بعد وفاة كيغام، تسلّم شقيقي موريس الاستديو في العام ١٩٨٦، وبات الاستديو يحمل اسمه، واشتهر كسابقه، قبل أن تغلقه العائلة قبل قرابة ١٥ عاماً من اليوم».

وفي الجزء الثالث من سلسلة الوثائقيات «مصوّرو فلسطين»، للمخرجة الفلسطينية مروة جبارة الطيبي، وإنتاج «الجزيرة الوثائقية»، في العام ٢٠٢١، استعرض ترزي مع الوصف صوراً أخرى، بينها: تمثال الجندي المجهول في العام ١٩٥٧، وقبلها صور الاقتحام ومن ثم الانسحاب الإسرائيلي من القطاع عام ١٩٥٦، ومجازر خان يونس في العام نفسه، ولم يوثقها غيره.

وكان لافتاً في الفيلم الذي ظهر فيه ابن كيغام وحفيده من القاهرة، توثيقه في الصور التي بحوزة ترزي للجانب الفني والثقافي، حيث الفرق الأجنبية التي كانت تحيي حفلات راقصة في نهاية خمسينيّات وستينيّات القرن الماضي، وكذلك زيارات العديد من الفنانين إلى القطاع كعبد الحليم حافظ، وصباح، ومحمد عبد المطلب، وشادية، ونجاة، وغيرهم.

ولفتت المخرجة مروة جبارة الطيبي، إلى أهمية أرشيف كيغام، الذي كان يملكه مروان ترزي، والذي لولاه ما أنجزت فيلمها. وقالت: «حين بدأت الإعداد للفيلم، أخذت أبحث عن أرشيف كيغام في غزة بمساعدة معدّة ومنسقة الفيلم، ومن مهتمين وباحثين توصلنا إلى أن موريس ترزي كان يعمل معه، وحين توجهنا لمنزل العائلة تبيّن أن موريس رحل، لكنه ترك أرشيف كيغام لدى مروان، ومن هنا توطدت علاقة بيننا».

وصف ترزي الصور التي لديه من أرشيف كيغام، في الفيلمين، بـ»الكنز الذي يجب الحفاظ عليه»، وهو الوصف الذي شاركته إياه المخرجة الطيبي في حديثها لـ»العربي الجديد".

رحل ترزي تحت ركام الكنيسة التي كان يصلّي بها هو وأفراد أسرته كثيراً، وخالها ملجأ آمناً له من قصف طائرات الاحتلال، رحل ولا يزال مصير الكنز مجهولاً كحال مصير غزّة كلها.

هبة أبو الندى

"هنا ستجدُ نفسكَ تبحث مع آدم عن قاتل هلامي، وتعيشُ مع والدته وهي تفك ألغاز الحب المرسومة على البذلة العسكرية، وتحبو مع عزيز نحو النور في آخرِ نفق أحلامه، وستتناول جوعك مع أولئك الذين يعدّون موائد أرواحهم على حواف المدن، وستهتف للجموع، ستغني معها كأنك اكتشفت فمك قبل ثانية، واحذر لأنك ستُحبّ وتشعر بالأمل».

هذا شيء من رواية «الأكسجين ليس للموتى» (٢٠١٧) عن دار ديوان للنشر والتوزيع في الكويت، وهي الكتاب السردي الأول للشاعرة الشابة هبة أبو ندى التي استُشهدت، يوم الجمعة الماضي، جرّاء قصف لجيش الاحتلال الإسرائيلي على غزة.

وكان صدر للشهيدة عدد من المجموعات الشعرية المُشتركة، منها: «أبجدية القيد الأخير»، و«العصف المأكول»، و«شاعر غزة»، متناولةً قضايا حول المواطن الفلسطيني المُحاصر في قطاع غزة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، مازجة في أسلوبها مقاربات مختلفة عن الحبّ والحرب والتفاصيل اليومية.

وُلدت الشاعرة والروائية أبو ندى في العام ١٩٩١، لعائلة تنحدر من قرية بيت جرجا المُحتلة في العام ١٩٤٨، وحازت درجة البكالوريوس في الكيمياء الحيوية من جامعة الأزهر في غزّة، قبل أن تنشط في المجال التربوي، حيث عملت في مركز «رُسُل» التعليمي، فكانت قريبة من الأطفال وعوالمهم، لكنّ اهتمامها اللافت بالكتابة الإبداعية، وتوزُّع الأجناس الأدبية التي جرّبتها، هو ما جعل اسمها أكثر تداولاً.

انشغلت أبو ندى في روايتها الوحيدة بقضية العدالة، في محاولة منها للمَزج بين الواقع الفلسطيني تحت الاحتلال، وما شهدته البلدان العربية من انتفاضات بعد العام ٢٠١١.

يُصوّر العمل إرادة الشعوب، ورغبتها في العيش الحرّ الكريم، وما يمارسه الاحتلال من عنصرية تتواصل، وما ارتكبته الأنظمة الاستبدادية من فظاعات في سبيل البقاء على قيد السلطة.

ولجأت الكاتبة الشهيدة، لعرض هذه الفكرة، عبر شخصية «آدم»، الشخصية المحورية في روايتها، والذي تجعلنا نعود معه إلى زمنٍ سابق، لعلنا ننطلق منه للبحث عن الحرية والعدالة، وعن القاتل الهلامي، المعروف تماماً.

مع صبيحة السابع من تشرين الأول الجاري، تحوّل حساب أبو ندى في «فيسبوك»، إلى ما وصفَته بـ«بيت عزاء»، سواء للأصدقاء الذين يقضون تحت القصف، أو للأهل والجيران وعموم أهالي غزة.

تكتب، بُعيد ساعات من انطلاقة عملية «طوفان الأقصى»: «أيُّ كاتب مجنون هذا الذي وضعَ كلّ

الأحداث الصادمة في حلقة واحدة، لكنَّ شبابنا لا يُجيدون كتابة المسلسلات الخيالية. يُجيدون كتابة الواقع بالدم والنار! أيّتها الحلقة المهيبة لا تنتهي، كلّنا شهود الدهشة».

ودّعت أبو ندى، عبر «فيسبوك»، صديقتها الكاتبة مريم سمير التي استشهدت، الخميس الماضي، بالعدوان الإسرائيلي أيضاً، دون أن تستبعد صُحبتها قريباً في رحلتها الأبدية، فكانت هذه الكلمات آخر ما خطّته: «نحنُ في غزّة عند الله بين شهيد وشاهد على التحرير، وكلّنا ننتظر أين سنكون. كلّنا ننتظر، اللهمّ وعدَك الحق»، وكان أن استشهدت في اليوم التالي.

هبة زقوت

"أعمالي الفنية ليست مجرد تعبيرات فنية جميلة، ولكنها تعبيرات عن تاريخ معقد، وحياة جميلة، وآمال خالدة، اعتبر الرسم ملاذاً جسدياً وعاطفياً أسعى من خلاله إلى التخلص من المشاعر السلبية والقلق والرعب التي أشعر بها».

كانت العبارات السابقة شيئاً ممّا قالته الفنانة التشكيلية الفلسطينية هبة غازي زقّوت، التي استشهدت وابنها، في الثالث عشر من نوفمبر، في قصف لطائرات الاحتلال الإسرائيلي، ضمن عدوانه وحربه المفتوحة المتواصلة على قطاع غزة، هي التي أضافت في صفحتها على «فيسبوك»: أعتبر أرضي فلسطين هي المكان الذي ألهمني للرسم لأنها المكان الذي نشأت فيه في غزة، الأرض التي شهدت الكثير من النضالات والكثير من الظلم الذي تتعرض له المرأة الفلسطينية، وأحاول من خلال لوحاتي الدفاع عن حق الفلسطينيين في حياة أفضل من خلال الألوان الجريئة والمبهرة». قدمت الفنانة التشكيلية الفلسطينية هبة زقوت المولودة في غزة العام ١٩٨٤، العديد من اللوحات الفنية التي تصور فلسطين عامة، مع الانحياز لبيوتها، وهي معلمة فنون جميلة في غزة، حاصلة على دبلوم في التصميم الغرافيكي من كلية تدريب غزة، وبكالوريوس في الفنون جميلة من جامعة الأقصى في غزة.

آمنت زقوت، التي كانت تدرّس الفنون في مدرسة حكومية بغزّة، وتدرّب الأطفال في إطار مشروع «بالأمل نحيا» في جمعية «إنقاذ المستقبل الشبابي»، أن الفن، وتحديداً الرسم، وسيلة مهمة للتعامل مع الانفعالات السلبيّة وتفريغها، خاصة بالنسبة للأطفال، وكان ذلك نابعاً من تجربتها في القطاع المحاصر والمستهدف عسكرياً باستمرار.

أقامت معرضها الفردي الأول بعنوان «أطفالي بالحجر الصحي» في العام ٢٠٢١، بعد مُشاركتها في عديد المعارض المحلّيّة والدوليّة الجماعية، كان آخرها بعنوان «متجذرون كشجر الزيتون» بالتعاون مع مؤسسة «رواسي» في غزة.

لعلّها كانت تخمّن أن تلك البيوت الملونة التي شكّلت ثيمة محورية في رسوماتها، يمكن أن تكون آمنة، وأن تملأها الورود، والمقطوعات الموسيقية، والحياة العاديّة، لكن ذلك لم يكن.

ولم تكن تجربة زقوت الفنيّة أسيرة استنساخ الواقع المأساوي الذي تعيشه كما كلّ سكان القطاع المحاصر منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، بقدر ما كانت ترسم خارج الصندوق، وكأنها تخلق منظومة من الأمل والقوة والقدرة على المقاومة باللون والمضامين، عبر جماليّات لا تبدو متسقة مع زمكاناتها، ما يوحي بأن ريشتها ترفضه فتخرج لوحاتها بعيدة عن سواد يغلف كل أرجاء القطاع، وبياض بات كفناً لا أثواب زفاف، أو حتى رماديّاً كمواقف الكثيرين ممّا حدث ويحدث لأكثر من أسبوعين، ويتواصل، لينتهي بها المطاف ضحيّة حقد أعمى لصنّاع الموت.. حقد يطال الجَمال، والأمل، والرغبة في الحياة، الذي بات فعلاً ماضياً بالنسبة لزقوت وابنها، والآلاف في القطاع.

جدير بالذكر، أن الفنان البصري والرسّام محمد سامي قريقع، وكان يعمل رفقة زقّوت في مشروع «بالأمل نحيا»، وهو أحد المتطوعين الذين كانوا يقومون بتعليم الفن للأطفال، استشهد في قصف المستشفى الأهلي المعمداني، إذ كان يحاول خلال تواجده هناك، العمل على التخفيف من معاناة الأطفال عبر الرسم والغناء.

حليمة الكحلوت

"شظايا المدينة»، كان عنوان معرض انتظم الصيف الماضي، وتحديداً في الثاني والعشرين من آب، وجاب محافظات قطاع غزة، بدءاً من رفح جنوباً وانتهاء في مركز ثقافي بمخيم جباليا شمالاً، لينهي جولته في التاسع عشر من أيلول.

واشتركت في المعرض، الذي انتظم في إطار مشروع «حِراكات» بدعم من مؤسسة عبد المحسن القطان، التشكيلية الغزّية الشابة حليمة الكحلوت، التي ارتقت شهيدة يوم التاسع والعشرين من اكتوبر الماضي، رفقة والدها، وشقيقتها، وزوجة شقيقها وثمانية من الأحفاد الأطفال، إثر قصف طائرات الإبادة الإسرائيلية المتواصل.

وُلدت الكحلوت، في مدينة غزة، العام ١٩٩٤، وحصلت على درجة البكالوريوس في الفنون الجميلة من «جامعة الأقصى»، قبل أن تبدأ مشاركاتها في عدد من الأنشطة والمعارض الفنية، حيث حصلت على منحة إقامة فنّية في «مركز شبابيك» من خلال حَملة «فنّ لأجل غزة» الذي نفّذه الاتحاد العام للمراكز الثقافية بالتعاون مع «مركز خليل السكاكيني الثقافي» في العام ٢٠٢١.

في أحد المشاريع التي اشتغلت عليها الشهيدة، وحمل عنوان «خطوة خارج منطقة الراحة» تحدّثت

عن سبب تركيزها على الأدوات الحادّة، مُوضِّحة المُفارقة بين دَور الفُنون في الالتقاط الحسّاس للعنف المُحيط بالإنسان، وأي دور يُمكن أن تلعبه في ضبط ووَضْع حدود للعنف، فالسكاكين والمفارم التي مثّلتها بالحَفْر على الورق المُقوّى والرَّسم، ليست بعيدة عن واقع حياة الغزّي، على العكس تماماً، هي التمثيلات الأدقّ للعيش تحت وطأة الاحتلال.

كذلك اشتركت الكحلوت بجدارية رُسمت في «جامعة دار الكلمة» بغزّة، وتُحاكي أحد أعمال التشكيلي الفلسطيني إسماعيل شمّوط، وتظهر فيها الصحافية الشهيدة شيرين أبو عاقلة، ووقّعها فنانون شباب، تحت إشراف الفنان محمد الحاج الذي نعى الكحلوت عبر حسابه على فيسبوك، فكتب: «لم أتخيّل في يوم من الأيام أن أقوم بنعيك على صفحتي يا حليمة، آخر عهدي بك عندما سنحت لك فرصة التدريس بجامعة غزة وذهبنا سويّاً إلى هناك... حليمة عبد الكريم الكحلوت، الحاضرة دوماً وبشكل قوي في كلّ المعارض وكلّ الفعاليات... لقد تركتِ فراغاً كبيراً من خلفك يا حليمة يعجز ملؤه».

"على قيد المتابعة»، عملٌ آخَر للكحلوت، ضمن معرض جماعي بعنوان «مبنيٌّ للمعزول» (٢٠٢٢)، حيث تستبدل فيه شُعيرات المِكنسة لتضعَ مكانها رُزَماً من الوصفات الطبِّية.. عملٌ فائق الرمزية ومُوحٍ، إذ يقول الكثير عن رحلات علاج المرضى ومراراتها في غزة المُحاصَرة، هل يتسلّحون بقوة الوصفة ليكنسوا آلامهم؟ وكيف يصرفون تلك الوصفات في ظلّ شحّ الأدوية أصلاً؟ عنفٌ عميق لا يقلّ وحشية أبداً عمّا تمثّله ضخامة المفارم والسكاكين.

كذلك ساهمت الفنانة الكحلوت بمشروع «مسار وادي غزة» (٢٠٢٢)، إلى جانب فنانين فلسطينيين شباب، و»ملاذ الفن» (٢٠٢١)، ومعارض أُخرى.

استشهدت الكحلوت، عشرينية، مغادرة من تبقّى من محبّيها مبكراً، تاركة وراءها روحاً مرحة، وأعمالاً فنّية ملهمة، والكثير من الأحلام التي لم تكتمل.

محمد سامي قريقع

لم تُمهل طائرات الاحتلال الإسرائيلي الفنان البصري والرسّام الفلسطيني، الشاب محمد سامي قريقع (٢٤ عاماً)، ليكمل مشاريعه الفنيّة المغايرة التي أطلقها أو شارك في إطلاقها قبل أشهر، أو أن يتابع مهمته في تخفيف الضغوط النفسية على الأطفال الفارّين برفقة أسرهم إلى ساحات «المستشفى الأهلي المعمداني»، هو الذي لطالما رسم الابتسامة على وجوههم وصنع الأمل في دواخلهم، عبر مشروع «بالأمل نحيا»، فقد كان من بين المتطوعين الذين كانوا يقومون بتعليم الفن للأطفال، قبل

أن تنتهي رحلته القصيرة برفقة جلّ الأطفال الذين كان برفقتهم بجريمة قصف المستشفى، مساء السابع عشر من تشرين الأول ٢٠٢٣.

وكان الفنان الشهيد، المولود في العام ١٩٩٩، أطلق قبل قرابة العام مشروعه «كود الروبيك»، الذي يجمع بين الفن والتكنولوجيا للدفاع عن الرواية الفلسطينية، عبر تقنية المسح الضوئي (الباركود)، فعبر لعبة «مربّع روبيك» ولوحات و»إسكتشات» تنقل معاناة الفلسطينيين، تناول قريقع قضايا عدّة كقتل المدنيّين العزّل، ولم يكن يعلم، وقتذاك، أنه سيكون أحدهم، والقصف، الذي طاله والمئات في «المعمداني» بعد أقل من عام، والاعتقال، والحصار، والتهويد، وغيرها، بحيث ينقل إلى العالم الذي لم يكن يعرف أنه أعمى، ما يحدث في فلسطين من مآسٍ بسبب احتلال يواصل إجرامه بل ويزيد منذ أكثر من خمسة وسبعين عاماً، بمسح «الباركود» أو تقنية الـ (QR)، التي اتجه إليها العالم في ظل حصار «الكورونا»، وقريقع ابتلي ومعه أكثر من مليونَي وثلاثمائة ألف في قطاع غزة بحصار أشرس، زاد على خمسة عشر عاماً.

ويحوي «كود الروبيك» على صور ورسومات وفيديوهات لأعمال فنيّة من تنفيذ قريقع، عمد من خلالها إلى اختراق حصار خانق يحول دون معرفة الكثيرين، في ظل انحياز الإعلام الغربي لرواية الاحتلال، عمّا يحدث في غزة، ولم يكن يعلم أن جريمة اغتياله وقرابة خمسمائة آخرين بينهم الكثير من الأطفال في «المعمداني» ستكون هي الأخرى ضحية هذا الانحياز أيضاً، فرؤساء وقادة ما يعرف كذباً بـ»العالم الحرّ»، أو «العالم المُتحضّر»، تبنّوا رواية الاحتلال دون تردد، وبطبيعة الحال دون تحقق.

وفي العام الماضي أيضاً قام خرّيج جامعة الأزهر في غزة، وفي إطار مساعيه لإنشاء تجمّع لفناني الكوميكس بغزّة، أنشأ هو المهتم بهذا النوع من الفنون، برفقة الفنانين: خالد جرادة، وحلا العبسي، وهبة شحتوت، وآلاء الجعبري، وجهاد جربوع، وفاطمة الهوبي، وبيان أبو نخلة، وتامر كحيل، وغيرهم، مجلة «ترانزيت».

و«ترانزيت» مجلة رقمية فلسطينية تهتم بفن الكوميكس تأسست بدعم من مؤسسة عبد المحسن القطّان ضمن منحة «حِراكات» ٢٠٢٢، لها صفحة على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، وكان آخر ما نشرته قبل السابع من تشرين الأول، وتحديداً في الرابع من الشهر الماضي، قصة مصوّرة لقريقع بعنوان «تقلقش» تناول فيها قصة انقطاع التيار الكهربائي لفترات طويلة، وبالتالي الاتصال بشبكة الإنترنت عن القطاع المحاصر، وهو الانقطاع الذي تكرر ولكن بشكل كامل، وشمل الاتصالات أيضاً، بفعل الاحتلال، ليعزله أكثر عن العالم لأكثر من مرّة، لعله يمرّر جرائمه دون شهود

ينقلونها إلى العالم، في حين عمّمت المجلة قصّة مصوّرة عنه بالإنكليزية، وعلى لسانه، في اليوم التالي لاستشهاده، مرفقة بعبارة «وداعاً حبيبنا وصديقنا محمد سامي»، أنجزتها الراوية البصرية والفنانة اللبنانية لينا مرهج.

وكان محمد سامي عضواً في «مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي»، وقد نعته المؤسسة عبر حسابها على «فيسبوك»، قائلة: «شكّل محمد سامي روح المرسم في مؤسسة تامر.. كان فاعلاً في كلّ مبادراتنا وكل خطواتنا وأنشطتنا، كان أول المتطوّعين، وآخر المغادرين.

كذلك شارك قريقع في فيلم تسجيلي قصير بعنوان «المطار»، يرصد حلماً لم يتحقّق بأن يعود لغزة مطارها الدولي الكبير، الذي دمّره جيش الاحتلال الإسرائيلي في العام ٢٠٠١، أي بعد ثلاث سنوات فقط على افتتاحه، ويظهر فيه وهو يمسك ريشته ويخطّ على أحد جدرانه المهدّمة «هنا مطار غزة».

في الرابع عشر من أكتوبر الماضي، كتب قريقع، عبر حسابه على «فيسبوك»، منشوراً طويلاً يوضّح فيه نزوحه من حيّ الشجاعية إلى «المستشفى المعمداني»، مع مئات العائلات، وكيف لم يتورّع جيش الاحتلال الإسرائيلي عن قصف المباني المجاورة للمستشفى، وممّا جاء فيه: «قبل قليل تعرّض هذا المكان لهجمة همجية من قِبل الاحتلال الإسرائيلي، وضرب أحد المباني الخاصة بالمستشفى بشيء أشبه بصاروخ، يحمل صوتاً مُخيفاً ومرعباً جدّاً، في واجهته التي يجلس وينام تحتها هؤلاء المدنيّون، ما أدّى إلى إصابة متوسطة لطفل صغير ليس له أي ذنب وهو في حضن والدته وبين الناس".

أما الفيديو الأخير له في حسابه على «إنستغرام»، وكان قبل أربع وعشرين ساعة على استشهاده، فيظهر أطفالاً يلعبون في إحدى ساحات «المستشفى الأهلي المعمداني»، بحيث يقتربون من بعضهم ليشكلوا حلَقة يقف هو وسطها مليئاً بطاقة رهيبة، على خلفية نشيد «سلامٌ لغزّة سلام سلام».

يوسف دوّاس

بشَعره المُبعثَر وغيتاره الذي يحتضنه جسمُه النحيل المُستنِد إلى عمود خشبي، ومن خلفه البحر.. هكذا تُظهِر لنا إحدى الصور الشابّ العشريني يوسف دوّاس.

هي صُورة كان يُمكن لصاحبها أن يكبر في قلوب مُحبّيه وأهله، وكذلك رفاقه وأصدقائه الذين عرفوه عازفاً وكاتباً، خاصة بالإنكليزية، لولا القصف الإسرائيلي الوحشي الذي استهدف أحد الأحياء السكنية شمالي بيت لاهيا، في الرابع عشر من أكتوبر الماضي، ما أدّى، أيضاً، إلى استشهاد سبعة وعشرين شخصاً من عائلته. إنها جريمة إبادة موصوفة.

نشَط دوّاس في مبادرة «لسنا أرقاماً»، التي تحاول، منذ تأسيسها العام ٢٠١٥، أن توثّق معاناة الشعب الفلسطيني تحت الاحتلال، بعيداً عن ربطها بخطاب الإحصاءات التي تحوّل تجارب الناس المريرة إلى مجرّد أرقام.

ومطلع العام ٢٠٢٣، قدّم مقالاً بالإنكليزية حمل عنوان «من يدفع ثمَن العشرين عاماً التي فقدناها؟»، يعود فيه إلى أول أيام عيد الفطر في العام ٢٠٢٢، وكيف دمّرت الطائرات الإسرائيلية بستانهم. يوصّف المقال كيف حاولت عائلته أن تخلق جوّاً من الأمان في مواجهة الرعب الذي حلّ عليهم، وإن كان هذا صعباً، كما يقول، «العائلة تُفضّل أن تموت معاً على أن تكون متفرّقة»، ومن يقرأ هذه الكلمات يعتقد لوهلة أنها نبوءة، لكنها في حقيقة الأمر وعيٌ عميق بالواقع.

نتساءل: ماذا لو كان هذا الشابّ مُستوطِناً، بأيّ دعاية كان الكيان سيشيّعه يا تُرى؟ وكم من مثقّف أوروبيّ سيسارع إلى هرش ضميره أمام هذه الجريمة؟

إلى جانب ما سبق، كان دوّاس مُساهماً في كتاباته بموقع «الوقائع الفلسطينية»، الذي نشر، كتحية للكاتب، تسجيلاً له يُظهره وهو يتحدّث عن رغبته بزيارة مدن مختلفة حول العالم. كان ينتقل في كلامه بين موضوع وآخر باندفاع الشابّ الطموح. وعلى صفحات الموقع ذاته يستوقفنا آخر مقالٍ له وقّعه بالإنكليزية، أواخر شهر آب/ أغسطس الماضي، بعنوان «زرع الكلى والولادة الجديدة: قصة حبّ فلسطينية». حيث يتناول فيه قصة زوجين من غزّة: عنان وريما، والرحلة الشاقة التي خاضاها منذ عام ٢٠٢١ لعلاج الزوجة من فشل كلوي أُصيبت به. نقرأ كلمات دوّاس وهو ينتقل بنا في كلّ محطة مرّا بها، وبقدر ما يشفّ كلامُه عن حبّ كبير يجمعهما (استغرق العلاج عامين وشهراً ويومين وخمس ساعات)، يكشف، أيضاً، عن قدرته على التقاط تفاصيل معاناة الحياة اليومية التي يعيشها أهالي غزة في ظلّ الحصار الإسرائيلي المُطبق.

نعَى كتّاب ومثقّفون فلسطينيون وعرب الراحلَ، فضلاً عن أصدقائه الذين عرفوه وعملوا معه عن قرب، كما لفتت «مؤسسة تامر التعليمية»، عبر حسابها على فيسبوك، إلى أن الراحل كان عضواً ناشطاً في فِرق الشباب الأدبية التي ترعاها المؤسسة في غزة: «يراعات» و»أصوات من فلسطين».

وككاتب وعازف وناشط اجتماعي، وصاحب محاولات شعرية أُولى خطّها بالإنكليزية، ظلَّ طموحُه المستقبلي أن يصبح مُحلّلاً نفسانياً، كما كتب، في رثائه، زميل له في «لسنا أرقاماً».. لا يمكن أن نقول إن يوسف دوّاس هو فردٌ واحد، وإن كان تميّزُه يدفع إلى ذلك، بل هو يمثّل طيفاً واسعاً من الشباب الغزاوي الذين استطاعوا إثبات أنفسهم، رغم كل أهوال الاحتلال التي يعيشونها.

نعود إلى صُور يوسف، فنقع على واحدة مُلتقَطة منذ عامين، يرتدي فيها قناعاً اتّقاء الوباء ويُقدّم

بيده زهرة حمراء لصديق مفترض، أو ربّما لحبيبة موعودة. وأُخرى، يظهر فيها بحر غزّة ميداناً مفتوحاً لخَيله، وبصحبته شبابٌ وأصدقاء غزّاويون، مَن يدري كيف يدفعون، اليوم، عن أنفسهم الموت على الطريقة الإسرائيلية؟!

نسمة أبو شعيرة

استشهدت الفنانة والمحاضرة الأكاديمية بجامعة الأقصى نسمة أبو شعيرة، على أثر القصف الإسرائيلي المتواصل على قطاع غزة.

ونسمة أبو شعيرة (٢٦ نيسان ١٩٨٧ - ٢٨ تشرين الأول ٢٠٢٣)، هي محاضرة أكاديمية وفنانة فلسطينية عملت مساعد رئيس قسم الفنون التشكيلية والتصميم الغرافيكي في جامعة الأقصى بغزّة.

ولدت نسمة عادل أبو شعيرة في قطاع غزة، التحقت بجامعة الأقصى وحصلت على شهادة الفنون التشكيلية وكانت من الأوائل في تخصصها، وخلال دراستها أصدرت مجلة ساخرة هى وعدد من أصدقائها تعبر عن يوميات الحياة بقطاع غزة بعنوان «بَرم» في العام ٢٠١٢، وبعد تخرجها عملت كمساعد رئيس قسم الفنون التشكيلية والتصميم الجرافيكي في ذات الجامعة.

ومن وحي أحاديث المواطنين اليومية عن مشاكل مجتمعية في الشارع والبيت والمقهى وبين الأزقة وغيرها، كانت مجلة «بَرِم» الورقيّة قبل نحو عام، التي اتّسمت برسوماتها ونصوصها الساخرة، في صفحات تجاوزت الخمسين، نتيجة جهود شخصية لأربعة شباب من قطاع غزة، تنوعت تخصصاتهم بين الفنون الجميلة والإدارة والوسائط المتعددة والإعلام، بحيث نقلت «بَرِم» الواقع في القطاع بعيدًا عن النمطية، وهي المجلة الأولى الساخرة في فلسطين.

بدأت فكرة إصدار مجلة ساخرة، عندما طرحتها أستاذة الفنون الجميلة في جامعة «الأقصى»، الفنانة نسمة أبو شعيرة، على عدد من الشباب الذين بادروا بتبنيها والعمل عليها، فكان طاقم العمل الأساسي فيها يتكون من مسؤول العلاقات العامة حمزة أحمد، والمخرج المصمم يحيى جبر، والرسام الأساسي أحمد العدوي، والكاتب الساخر محمد قدادة، وكان جميعهم دون الثلاثين في العام ٢٠١٢.

ولاقت المجلة إعجاب القراء في العدد الثاني، أكثر منه في الأول، حيث لم تكن فكرة الرسوم والنصوص الساخرة مقبولة لعدد من القراء، لعدم اعتيادهم على هذا النوع.

وبسبب تكلفة طباعة المجلة الباهظة بالنسبة لنا، لم يصدر إلى الآن الا عددين؛ الأول في نيسان (أبريل) من العام ٢٠١٤، بـ٧٠ صفحة، والثاني مطلع العام ٢٠١٥، بـ٥٥ صفحة، ووزع من كل عدد ٣ آلاف نسخة مجانًا، فيما بلغت عدد المشاهدات على موقع المجلة الإلكتروني الـ٦ آلاف لكل منهما.

وكانت المجلة تضم زوايا ثابتة ذات مغزى، منها زاوية حوار بين شخصين؛ حيث يحاول أحدهما إقناع الآخر بوجهة نظره وينجح في ذلك، وكلام السياسين، بالإضافة إلى المقال الأدبي وقصة نجاح مجموعة شبابية.

أصدقاء المجلة سائد كرزون من رام الله، وميساء الشاعر من جنين، ساعدا بتوزيع المجلة في بعض مناطق مدن الضفة الغربية، لكن تكلفة النقل من غزة، تحول دون وصولها إلى كل المدن.

انضم عدد كبير من كتاب المقال والرسامين لطاقم المجلة، فيما يُنقح فنانون وكُتَّاب العدد قبل إصداره، علماً أن المجلة كانت تصدر عن شركة هَوَس للإنتاج، التي أسسها طاقم المجلة نفسه، مطلع العام ٢٠١٤، لتصميم الإعلانات والبوسترات الكرتونية، إلا أن التجربة المثيرة للاهتمام توقفت عند العدد الثاني، فحتى العدد الثالث الذي كان من المزمع إصداره إلكترونياً، لم يصدر على ما يبدو، فتوقفت التجربة عند عددها الثاني.

وكانت في العام ٢٠١٠ أبو شعيرة شاركت عدداً من الفنانين الفلسطينيين في رسم لوحاتٍ جداريةٍ عبَّروا فيها عن كل مراحل النضال الفلسطيني؛ وذلك احتفاءً بذكرى يوم الأرض في ذلك العام، واختارت وقتها أن ترسم شجرة زيتون تصل جذورها لتتعمَّق في كل الكرة الأرضية، وقالت إنها اختارت شجرة الزيتون لأنها تمثل التاريخ الفلسطيني وتعتبر من أكثر الأشجار المقدسة لدى الشعب الفلسطيني.

استشهدت أبو شعيرة في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٢٣ خلال ضربةٍ جوية نفذتها القوات الجويّة الإسرائيلية على منزلها الكائن في مدينة غزة.

طارق ضبان

هزّت صدمة كبيرة قلوب محبي ومتابعي الفنان الفلسطيني طارق ضبان بعد أن فقد الفنان البارز وزوجته وبعض أطفاله حياتهم في قصف نفّذته قوات الاحتلال الإسرائيلي، مطلع تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٢٣، وفقاً لما نشرته وزارة الثقافة الفلسطينية عبر حسابها الرسمي على موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك».

وكان الفنان طارق ضبان كتب في آخر منشور له عبر حسابه الرسمي بموقع «فيسبوك»: «استشهد

الوالد وماتت فرحةُ، البيتِ أين صوتك الشجي يا والدي؟»، تلاه منشور آخر مفاده: «وأين ابتسامة أمي التي فارقت البيت مع روحك التي فارقتنا.. اللهم ارحمهما».

وروى ابن خاله محمود عبد العزيز اللحظات الأخيرة في حياة طارق ضبان وأمنيته التى كأن يأمل تحقيقها، إلا أن الموت حال دون ذلك..وكشف محمود عبد العزيز عن المكالمة التى جمعته بالفنان طارق ضبان، قبل استشهاده، مشيراً إلى أنه كان يأمل أن يزور مصر مجدداً، بعد تركه لها قبل أربعين عاماً، ليستقر في غزة رفقة زوجته التي استشهدت معه.

واشتهر ضبان مغنياً ذاع صيته وأبناؤه، وخاصة ابنه الأكبر أحمد، من بعده، في إحياء الفعاليات الوطنية والمهرجانات، وسهرات حفلات الزفاف والأعراس في مختلف محافظات قطاع غزة، ما جعله قريباً من عشرات الآلاف الذين شاركهم أفراحهم، وصار جزءاً من يوميّاتهم لاقتناص لحظات فرح في القطاع المحاصر والمنكوب بالعدوان الإسرائيلي تلو الآخر.

وكان الفنان ضبان يلقب بـ»فارس الأغنية الشعبية»، وكان منحازاً إلى الغناء الشعبي السائد في جمهورية مصر العربية، التي قضى عديد السنوات فيها، حتى بات يُعرّف نفسه بـ»سفير الأغنية المصرية»، مبدياً إعجابه بعدد من أبرز الأسماء في هذا المجال بمصر، وبينهم: أحمد عدوية، وعبد الباسط حمودة

علي نسمان

في الثالث عشر من تشرين الأول (أكتوبر) الماضي، أعلن عن استشهاد الفنان الفلسطيني علي نسمان، في غارة جوية إسرائيلية على قطاع غزة، وذلك بعد يوم من ظهوره في مقطع فيديو تحدث فيه عن «حتمية النصر أو الشهادة».

وظهر نسمان في مقطع فيديو عبر حسابه الرسمي على إنستغرام تحت عنوان «لن نريكم منا لا خوفاً ولا فزعاً.. ورحم الله الفرحين بما آتاهم الله من فضله».

رصد نسمان شوارع غزة بعد القصف، وقال «من المؤكد أن الناس انسحبوا منها، هذا المكان كان القصف فيه مستمرا طوال الليل وتم تدميره بشكل كامل، وهذا ما وعدنا الله ورسوله به ومعركتنا مستمرة.. أهل غزة معنوياتهم عالية، وترى على وجوههم الإرهاق والتعب بسبب التعب والسهر وخوفهم على أطفالهم».

واستمر نسمان في نشر مقاطع فيديو يومية من تحت القصف في غزة، لينقل إلى متابعيه والعالم ما يحدث على الأرض من صمود أهل غزة رغم التدمير، مؤكداً: «أهل قطاع غزة رأسهم مرفوعة».

ونسمان ممثل كوميدي ومدون فلسطيني وناشط، شارك في عدد من المسلسلات الفلسطينية من بينها: المسلسل الكوميدي الساخر «على البركة»، ومسلسل «الروح»، ومسلسل «بوابة السماء»، ومسلسل «الفدائي»، كما وشارك مؤخراً في مسلسل «شارة نصر جلبوع»، الذي روى قصة الأسرى الستة الذين حفروا النفق ونالوا حريتهم من سجن جلبوع في أيلول (سبتمبر) من العام ٢٠٢١.

ولد النسمان في غزة يوم ١٥ نيسان (أبريل) ١٩٨٥، وينحدرُ من شمال مدينة غزة وقد قضى هناك سنيّ عمره، هو الذي أنهى دراسة الثانوية العامة وحصل بعد ذلك على شهادة البكالوريس في إدارة المال والأعمال ثم على دبلوم في إدارة المنظمات.

عمل نسمان في مجال التجارة، وشارك في عدة مسلسلات فلسطينية، بالإضافة إلى نشاطه على مواقع التواصل الاجتماعي التي بدأ مشواره الفني من خلالها، هو الذي كان صوت الناس عبر برنامجه «نسمان في الميدان"، كما كانت له أعمال ساخرة من رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو باللغة العبرية، وأخرى من المستوطنين.

عمر أبو شاويش

كان الروائي والشاعر عمر أبو شاويش المولود في ٢٢ آذار من العام ١٩٨٧، أول شهداء القصف الإسرائيلي على قطاع غزة من الأدباء والفنانين، في الحرب المتواصلة، وتحديداً في اليوم الأول من الحرب في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٢٣.

وأبو شاويش هو شاعرٌ وكاتبٌ فلسطيني، وكان ناشطاً مجتمعياً بارزاً في مخيم النصيرات وسط قطاع غزة، وله إسهاماتٌ مختلفة على الصعيد المجتمعي والشبابي والثقافي والفكري.

وتعود أصول الشاعرعمر فارس عمر أبو شاويش إلى قرية برقة، التي احتلتها العصابات الصهيونية خلال عملية «باراك» في أيار (مايو) من العام ١٩٤٨.

تعلم في مدارس مخيم النصيرات، وحصل على درجة البكالوريوس في الإعلام من جامعة الأزهر بغزّة، والده فارس أبو شاويش، رياضيٌ معروف، تقلد عدة مناصب في الاتحاد الفلسطيني لكرة القدم، وكان قد عمل في مجال التعليم لأكثر من ٤٠ عاماً، وتذكر المصادر أنه «رياضيّ مخضرم وله جماهيريته وشعبيته الواسعة، كما أنه من رجال الخير والإصلاح داخل المجتمع الفلسطيني».

كان عمر عضواً في الاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين، وعضو مجلس إدارة نادي خدمات النصيران، وعضو في اللجنة الشعبية للاجئين، كما كان متواجداً في معظم الفعاليات الوطنية

والمجتمعية واللقاءات والندوات الثقافية والفكريَّة التي تقام في قطاع غزة، وعضوا في العديد من الجمعيات والهيئات المحلية المجتمعيَّة والثقافيَّة والشبابيَّة، ومنها «شبكة شباب فلسطين الثقافية» التي شارك في تأسيسها.

قدّم أيضاً العديد من الأعمال الأدبية خلال الأمسيات الأدبية والشعرية في فلسطين وخارجها، كما كتب عدداً من الأغاني الوطنية والإنسانية، التي انتشرت بشكل واسع خلال العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في العام ٢٠٠٨.

وكان من المقرر أن يشارك عمر في عددٍ من الفعاليات، من بينها معرض الكتاب بمدينة تورينو الإيطالية، لكنه انسحب من المعرض بسبب اعتماده إسرائيل ضيف شرف، هو الذي شارك سابقاً في مهرجان الصداقة الدولي الثقافي والرياضي بأوسلو، ومؤتمر الشباب العربي للتطوع في الجزائر، ومؤتمر قادة النهضة الأول في القاهرة، مؤتمر بيت المقدس الدولي الرابع (٢٠١٣) في رام الله، كما شارك في المؤتمر العربي العالمي لقضايا الشباب في الفكر والثقافة في العاصمة المصرية، وقدم ورقة عمل تحت عنوان «دور الشباب الفلسطيني في نصرة القضية الفلسطينية فكرياً وثقافياً»، كما قدم مبادرةً بعنوان «الفكر الفلسطيني للحق الفلسطيني – الغزو الفكري الفلسطيني للغزو الفكري الصهيوني العالمي ومجابهته»، وكان أيضاً ضمن وفد نادي خدمات النصيرات، الذي شارك ضمن الأنشطة الشبابية والرياضية والثقافية في سوريا.

نشر في العام ٢٠١٦ روايةً عنوانها «على قيد الموت» عن بيت الياسمين للنشر والتوزيع في القاهرة، وتتناول أحداث الرواية الحرب الإسرائيلية على قطاع غزة في العام ٢٠٠٨، حيث يرصد الحياة عن كثب، ويسرد مواقف وشواهد وتجارب مختلفة من هذه الحرب بتفاصيل دقيقة، وهي الرواية التي أُعيد نشرها بواسطة دار «المنهل» في العام ٢٠١٨.

وكان الشهيد أبو شاويش حاز العديد من الجوائر الأدبية والفنية، بينها جائزة «أفضل أغنية وطنية للعام ٢٠٠٧» ضمن المهرجان الدولي للأغنية الوطنية والتراث في الأردن، وجائزة «قلم الشعراء الدولية» للعام ٢٠٠٧ في باريس، وجائزة «المتطوع المتميز والشاب المثالي»، للعام ٢٠١٠ ضمن المهرجان الوطني لتكريم المتطوعين الفلسطينيين بمبادرة من منتدى شارك الشبابي في فلسطين، وجائزة «الشباب العربي المتميز في مجال الإعلام والصحافة والثقافة للعام ٢٠١٣» عن فئة «الإعلام الإلكتروني والثقافة»، من قبل مجلس الشباب العربي للتنمية المتكاملة التابع لجامعة الدول العربية، وذلك لدوره المتميز في المجتمع كشاب فلسطيني مثقف وناشط شبابي، ترك بصماته في العمل الوطني والمجتمعي والثقافي والفكري والأدبي والتطوعي، وكان مثالاً حياً للعطاء والتقدم والإبداع والابتكار.

غزة بعيونٍ سينمائية غربية كسرت الحصار

يوسف الشايب*

منذ ما يقارب العقدين من الزمن، وسلطات الاحتلال الإسرائيلي لا تكتفي بحصار قرابة مليونين ونصف المليون فلسطيني في قطاع غزة، لتجعل منه أكبر سجن مفتوح بالعالم، بل تأبى عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم بما لا يقارن بما تملك من أعتى وأحدث الأسلحة، فنراها تشن عدواناً تلو الآخر، آخره ما يصنف كحرب إبادة، منذ السابع من تشرين الثاني (أكتوبر) ٢٠٢٣، بينما العالم ما بين داعم لقوة الاحتلال، أو صامت، أو منند دون فعل يذكر، أو داعٍ إلى ضبط النفس، أو حتى مُبرّر.

وبينما ترتكب قوات إسرائيل جرائم حرب ضد الفلسطينيين، تروج ماكينة دعايتها، عبر وسائل الإعلام الغربية، روايتها فقط، بحيث تغيّب مشاهد القتل والتدمير والإبادة في غزة.

ومع هذا، لا تزال في عالمنا بقية من ضمائر حيّة، قرّرت كسر الحصار الإسرائيلي، وكشف أبعاد معاناة الفلسطينيين، بشهاداتهم وعلى أرض الواقع، فكانت أفلام عدّة، قوبلت بحرب إسرائيلية في المحافل الدولية، بإسناد من أنصارها في غالبية الدول الأجنبية، لاسيما الغربية منها، غير أن رسالتها، ولو حجبت عن عدد من المهرجانات السينمائية العالمية، وجدت ضالتها في مهرجانات أخرى، ولامست ضمائر الأحرار، بل وبعضها توّج بجوائز في هذه التظاهرات الدولية.

"يلّا غزة" (٢٠٢٣)

"يلّا غزة"، فيلم وثائقي فرنسي من إنتاج العام ٢٠٢٣، وإن كان كلاسيكي الشكل، بحيث يضم مقابلات مع خبراء وشهود وضحايا الحصار، والقصف الإسرائيلي المستمر منذ سنوات على قطاع

* كاتب واعلامي فلسطيني

غزة، تتخللها صور جميلة للأماكن التي تدور فيها أحداث الفيلم أو موضوعه.

ويبدأ فيلم "رولاند نوربيه" ببيان واقعي وتربوي إلى حد ما عن إنشاء وطن يهودي في فلسطين في بداية القرن العشرين، تلاه نكبة العام ١٩٤٨، والنزوح الفلسطيني الذي سبق وأعقب الإعلان عن إنشاء دولة إسرائيل على أنقاض الأراضي والمنازل التي هُجّر منها أصحابها.

الفيلم الذي يبدأ بأغنية «يا طير يا طاير» للنجم الفلسطيني محمد عسّاف، يقدّم للمشاهد الغربي عامة، والأوروبي على وجه الخصوص، ما خفي ويخفى عن غزّة، إذ صوّر آثار الحروب الإسرائيلية السابقة عليها متتبعاً حياة البسطاء وسط الخراب.. هؤلاء الذين يأملون العيش في سلام كجميع الناس على هذه الأرض.

في تسجيلات بانورامية، يتناول فيلم «يلّا غزة" الكثير من الجوانب الاجتماعية في غزّة فنرى فيه الفلاح الذي يشكو أثر الحصار على منتوجه الزراعي وعدم أمنه، والصيّاد الذي يُسمح له فقط أن يبقى في حدود بحريّة لا تهبه سوى الأسماك الصغيرة غير المربحة، متسائلا لماذا لا نعيش كالآخرين.

وأكثر ما لوحظ في الفيلم هو تصويره لعلاقة صداقة حميمة بين مسيحي ومسلم فنرى الأول يقود صديقه الأعمى إلى المسجد لأداء الصلاة ويظلّ ينتظره حتى ينتهي منها، إضافة إلى آراء رجال دين تنفي تلك الصورة المكرّسة عن اضطهاد «حماس» للمخالفين لها، على الرغم من تصرفات صاحبت السنوات الأولى لاستيلاء هذه الجماعة على قطاع غزّة عُرفت بنزعتها المتطرفة. وفي هذا الجانب قدّم ناشطون إسرائيليون شهاداتهم ورفضهم للاحتلال أبرزهم طيّار مروحية في جيش الاحتلال الإسرائيلي انتقل للعيش في المجر.

ومن بين المتحدثين في الفيلم "جان بيير فيليو" الأستاذ في جامعة ساينس بو باريس وجامعة كولومبيا، والمتخصص بلا منازع في شؤون الشرق الأوسط؛ و"سيلفان سيبيل"، الصحفي في صحيفة لوموند، و"ماتياس شمالي"، مدير عام وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (الأونروا) في غزة؛ و"كين لوتش"، المخرج الشهير، إضافة إلى المتحدثين الفلسطينيين المقيمين في غزة خاصة، أو في فلسطين أو خارجها.

ويتتبع الفيلم سيرورة وصيرورة الأوضاع التي يعيشها سكان غزة، قبل السابع من تشرين الأول (أكتوبر)، بطبيعة الحال، بحيث يشدد على أنهم شعب متعلم، رغم القيود التي تفرضها إسرائيل، وأن التعليم بالنسبة لهم شكل من أشكال المقاومة.

وبعد ذلك بقليل، يشرح "كريستوف أوبرلين"، الجراح الفرنسي الذي قام بتدريب الأطباء في غزة لعشرين عاماً، الصعوبات التي يواجهها في ممارسة مهنته في ظل التوتر المستمر الذي تمارسه الدولة العبرية على هذه المنطقة الصغيرة، وخاصة منذ مطلع العام ٢٠٠٦، عندما فازت حركة حماس بالانتخابات التشريعية الفلسطينية، ومنذ ذلك الحين، تخضع غزة لمقاطعة سياسية وحصار اقتصادي.

وفي الجانب الإنساني بـ»يلّا غزة»، تظهر فتاة تمشي بقدم واحدة، ولم تيأس من المطالبة بتعويضها عن ساقها التي بترت بقصف إسرائيلي، فبدا إلحاحها على التعويض كأنّه كشف للجريمة وإن لم يُعترف بها، وهذه الفتاة ليست الوحيدة، فهناك فريق لكرة القدم تكّون من فتيات بُترت سيقانهن في أكثر من عدوان سابق، ومع هذا ارتبطن بالأرض، على الرغم من معارضة المحافظين بالقطاع، عبر ركلات أقدامهن الوحيدة، مثلهن مثل ضربات أقدام راقصي الدبكة الغاضبة والمتحدّية، والتي يظهرها الفيلم وسط خرائب شوارع وأنقاض عمارات.

والرقصة هنا أحد أعمدة الفيلم، وقد أدّاها فريق من الشباب الفلسطيني بصحبة العروض التمهيدية للفيلم في أكثر من عشر مدن فرنسية، بتنظيم من المخرج نفسه وجمعية التضامن الفرنسي الفلسطيني والاتحاد اليهودي الفرنسي للسلام، وذلك قبل عرضه الذي كان مقرراً في تشرين الثاني (نوفمبر) في سينما «سانت ميشال» المعروفة باهتمامها بعرض الأفلام اليسارية والجدلية من كلّ بلدان العالم بما فيها الأفلام الوثائقية والتسجيلية القديمة، وهو عرض يأتي وسط تخوفات من منعه بعد أن أثيرت الكثير من النقاشات والمواقف حول الأحداث الأخيرة، إلاّ أن المخرج لم يأبه بارتباك الآراء حول ما حدث أخيراً، فهو يرى أن "فلسطين أكبر قضيّة ظُلم في العالم".

ينتقل الفيلم بعد ذلك إلى وضع سياسي أكثر، إذا يذكر المخرج العالم بأن إسرائيل تنتهك القوانين الدولية التي وضعتها الأمم المتحدة، وكذلك أحكام المحكمة الجنائية الدولية، حيث أن «إسرائيل من الدول الموقعة على المعاهدة، لكنها لم تصادق عليها".

هذا الفيلم، إلى جانب أفلام أخرى لا تبدو بمنحاها هذا وجهة نظر فردية تجاه غزّة وفلسطين عامة وإنّما تعبّر عن رؤية متجذرة ومتنامية ترفض الدعاية الإسرائيلية المكرّسة عن الفلسطينيين باعتبارهم عابرين في أرض ليست لهم.

"إيراسموس في غزة»

قدمت "كيارا أفيساني" رفقة "ماتيو ديلبو" قصة مثيرة في فيلمهما «إيراسموس في غزة»، توثق الطريق الذي سار عليه جراح إيطالي طموح، هو أول طالب على الإطلاق ضمن برنامج التبادل «إيراسموس" يسافر إلى قطاع غزة المحاصر، وهو الفيلم الذي ظهر في عديد المهرجانات السينمائية الدولية العام ٢٠٢٢.

إن الرحلة التي بدأها طالب إيطالي شاب يطمح إلى أن يصبح جراحاً في قطاع غزة ونموه الاستثنائي، سواء على المستوى المهني أو الإنساني، هي جوهر الفيلم الوثائقي المثير «إيراسموس في غزة»

للمخرج كيارا أفيساني وماتيو ديلبو، والذي تم عرضه في قسم الحياة المعاصرة في مهرجان بولونيا الثامن عشر لأفلام السيرة الذاتية.

والفيلم لا يصور فقط تجربة "ريكاردو كورادیني"، أول طالب على الإطلاق يشارك في برنامج التبادل الجامعي الأوروبي «إيراسموس" في القطاع المحاصر، ولكنه ينقل أيضاً إحساساً بما يعنيه ذلك، خاصة بالنسبة للشباب.. إحساس أن تعيش كالسجين في منزلك تحت التهديد المستمر بالقنابل.

يريد ريكاردو، البالغ من العمر ٢٤ عاماً، والذي يدرس الطب في جامعة سيينا، أن يتخصص في جراحة الطوارئ، ومن أجل تعميق معرفته بالإصابات الناجمة عن أعيرة نارية، يختار «بؤرة ساخنة» تكون مستشفياتها ممتلئة بانتظام عن آخرها.

مع المرضى المصابين في قطاع غزة، حيث علم أن ١٨ ألف شخص أصيبوا في الفترة ما بين آذار (مارس) وأيلول (سبتمبر) ٢٠١٨ وحده، لذا وجدها «فرصة لمعرفة ما إذا كنت قادراً على ذلك»، وهو ما برّره حيث كان يودع الأصدقاء والعائلة في سيينا.

إذا لم تكن تعمل في مؤسسة صحفية أو إحدى المنظمات غير الحكومية، فإن الدخول إلى غزة سيكون أمراً معقداً، ففي غزة لا تجد بالمطلق طلاباً أجانب، وبمجرد وصول ريكاردو إلى منزل عائلته المضيفة، يتم استقباله بالظلام، بسبب تقنين الكهرباء الذي تفرضه إسرائيل.

ومع ذلك، فإن السكان المحليين ينظرون إلى الطبيب الشاب ويعاملونه بنفس الطريقة التي كان يعامل بها الأجانب في أوقات أخرى: بالفضول والاحترام والاهتمام بأن لديه كل ما يحتاج إليه.. «بالنسبة لنا، إنها فرصة للتواصل مع شخص من الخارج»، يوضح زملاؤه من الفلسطينيين الذين يدرسون في غزة، والممنوعون من السفر، والذين عليهم «الحصول على تصريح بالخروج سيكون بمثابة الفوز بمليون دولار».

روتين ريكاردو الأكاديمي، الذي تتخلله لحظات من الاسترخاء، بما في ذلك حفلة رقص للرجال فقط، والوقت الذي يقضيه في التعرف على الثقافة المحلية، سرعان ما تحطم بسبب واقع الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، الذي اندلع في حياته مع حمولته من عظام مشقوقة بالرصاص، وأرجل مبتورة، وأطفال مرضى.

إنه أول اختبار حقيقي لريكاردو على أرض الواقع وهو مستاء، يتساءل عما حدث ويحدث، ولماذا.. وبعد ذلك بوقت قصير، بدأت القنابل الإسرائيلية تتساقط على بعد أمتار قليلة من منزله، وسرعان ما تحول الإحساس بالخروج من منطقة راحته إلى حالة من الذعر التام.

مثل غيره من الأجانب الذين يعيشون في غزة، يتم نقل ريكاردو إلى مكان أكثر أماناً، فينتقل من

قطاع غزة إلى مدينة بيت لحم بالضفة الغربية، تاركاً وراءه الأشخاص الذين أصبحوا أصدقاء له، بالإضافة إلى عائلته الجديدة التي لا يُسمح لها بالخروج «ببساطة لأنهم حصلوا على جواز سفر خاطئ"، ولكن عندما تهدأ الأمور، ولو مؤقتاً، ويُسمح له بالعودة إلى غزة، يدخل ريكاردو مرحلة جديدة تمامًا في حياته تساعده على إدراك ما يريد فعله حقاً من أجل لقمة العيش.

الفيلم إسباني الإنتاج، مليء باللقاءات والتجارب والتأملات، وهو عبارة عن قصة نابضة بالحياة عن بلوغ شاب إيطالي سن الرشد، قصة يتم التقاطها فور حدوثها.

يسلط النهج التحريري الديناميكي وغير الزائد للفيلم الضوء على جوهر كل خطوة في نمو هذا الطالب الشاب على أكثر من صعيد، بحيث ينقل شغفه ومخاوفه، ولكن أيضاً قوة أخوّة الإنسان والطبيعة النبيلة لمهنة الطب، في أرض يرفع فيها الناس موسيقاهم بمجرد توقف القذائف عن السقوط، للاحتفال بحقيقة أنهم ما زالوا على قيد الحياة.

"قفزة أخرى" (٢٠١٩)

في فيلمه «قفزة أخرى" (٢٠١٩)، يسلط المخرج "إيمانويل جيروسا"، الضوء على حكاية الشابين الفلسطينيّين جهاد وعبد الله، اللذين أسسا فريق «غزة باركور"، ففي حين بقي الأول في غزة، رحل الثاني إلى إيطاليا، ليعيش في منزل مهجور في ضواحي مدينة فلورنسا.

و»الباركور" فنّ التغلب على العقبات، ولكنه في قطاع غزة أكثر من ذلك بكثير: إنه شكل من أشكال البقاء، بكل وضوح وبساطة، ففي مكان حيث الحصار في كل مكان، تعد هذه الرياضة البهلوانية إحدى الطرق القليلة للشعور بالحرية: القفز، والدوران في الهواء، والمخاطرة.

وفي وسط الشباب الفلسطيني الذي يمارسها، وهي رياضة ظهرت لأول مرة في تسعينيات القرن الماضي، في شوارع الضواحي الباريسية الداخلية، يذهب بنا جيروسا بفيلمه الوثائقي «قفزة أخرى»، إلى حيث الأمل والذكريات، بعيداً عن الشعاراتية والبلاغة السينمائية الفارغة، وبكثير من الحساسية تجاه الوضع المؤلم والمحبط الذي يواجههم.

يتتبع الفيلم المصيرين المتعارضين للصديقين جهاد وعبد الله، بحيث يعيش الأول في غزة ويعتني بوالده المريض ويحلم بالهروب من القطاع المحاصر إلى أوروبا، فيما تمكن الثاني من ذلك، وبات يعيش في إيطاليا، لكنه يحلم بالعودة إلى منزله يوماً ما.

أسس عبد الله فريق «غزة باركور" قبل بضع سنوات، وتولى جهاد قيادته عندما غادر صديقه

القطاع مُهاجراً، مع أنه لم يسامح عبد الله أبداً على رحيله، حيث "كان من المفترض أن يغادرا معًا"، ولم يتحدثا منذ ذلك الحين.

وهكذا يستمر جهاد في تعليم الأطفال والمراهقين تحت أعين الطائرات الإسرائيلية بدون طيار، في حين أن عبد الله، الذي يريد أن يذهب إلى أبعد من ذلك، ويصبح رياضياً محترفاً، يقرر المشاركة في مسابقة الباركور الدولية في السويد.

جهاد يركض ويقفز مع فريقه وسط الركام والهياكل العظمية للمباني التي قصفت في خانيونس؛ يتدرب عبد الله في أنفاق محطة السكك الحديدية في فلورنسا أو على ضفاف النهر.. تجري الكاميرا خلفهما عن كثب وسط حركات بهلوانية تحبس الأنفاس، وكان التأثير مذهلاً، لكن الوجوه الحزينة للبطلين هي حجر الزاوية الحقيقي لهذا الفيلم الوثائقي.

يُظهر الفيلم انعدام الآفاق والشعور بالسجن والرغبة في اكتشاف العالم من جهة، وصعوبات الاندماج، والحنين إلى الوطن، ومعرفة عدم القدرة على العودة أبداً، من جهة أخرى.

يجسد جهاد وعبد الله تناقضات جيل من الفلسطينيين الذين أجبروا على العيش في سجن مفتوح ويشعرون بأنهم غرباء أينما ذهبوا، حتى في منازلهم، حيث اليأس مكتوب على وجوههم، وعندما يواجه أحدهم عوائق المسابقة السويدية المصنوعة من الخشب الرقائقي وقاعاتها المليئة بالشباب السعداء وذوي المظهر الجميل، نقرأ الشعور بالغربة في عيون عبد الله، الذي اعتاد على أداء الشقلبات بين الأنقاض وأعمدة الدخان.. لعل الـ«هنا" والـ«هناك" في فيلم "قفزة أخرى" هي محور الفيلم، حيث الـ«هنا" حاضرة في الحالتين، تماماً كما الـ«هناك".

"غزة" (٢٠١٩)

في الفيلم الوثائقي الدرامي (ديكودراما)، ويحمل عنوان "غزة"، تم حذف المانشيتات التي عادة ما ترافق الحديث عن قطاع غزة، أو الكليشيهات المرتبطة بالقضية الفلسطينية وعدالتها، عادة، لجهة تهميش الحالة السياسية في هذا المنتج البصري الرصين الذي يدور حول حياة المدنيين العاديين في غزة.

هذا الشريط الساحلي، الذي يبلغ طوله ٢٥ ميلاً وعمقه سبعة أميال، بات، كما يقول أحد الأشخاص الذين تمت مقابلتهم، «مثل سجن كبير مفتوح» منذ الانقسام الفلسطيني الفلسطيني وفرض سلطات الاحتلال الإسرائيلي الحصار الكامل على القطاع.

الفيلم، وهو إنتاج أيرلندي كندي مشترك، يعترف بالتاريخ الحديث المضطرب الذي أدى إلى إنشاء

مدينة تحت الحصار، لكن المخرجين "غاري كين" و"أندرو ماكونيل" يهتمان أكثر بالقصص الإنسانية الفردية، وبالنضال من أجل حياة ذات معنى في مقبرة الطموح هذه، التي باتت منذ السابع من تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٢٣، مقبرة جماعية بالفعل.

الفقر منتشر في كل مكان، ولعله أكثر بقليل من الهواء، وبكثير من التيار الكهربائي والمياه الصالحة للشرب، في «غزة» الجغرافيا والفيلم الذي نلتقي فيه بأحمد، الصبي البالغ من العمر، وقتذاك، ١٤ عاماً، وهو واحد من أربعين ابناً لأب من ثلاث زوجات.

تتكدس العائلة الممتدة في ثلاث غرف في مخيم للاجئين، لكن أحمد يفضل النوم على الشاطئ، فالشريط الساحلي له معنى رمزي لجميع سكان غزة.. إنه يقدم الوعد المثير بالآفاق المفتوحة والغذاء والصناعة لكن حد الصيد الذي يبلغ ثلاثة أميال يتم فرضه بواسطة الطائرات الحربية.. الحرية وهم بصري، وتبقى شباك الصيد فارغة.. يقول أحمد: "هناك أيام نأكل فيها الملح فقط".

نلتقي بخياط يحاول إدارة مشروع تجاري بأربع ساعات فقط من الكهرباء يومياً لتشغيل أجهزته، ومسعف يقوم بترميم المتظاهرين الشباب الذين يلقون الحجارة ويحرقون الإطارات على الشريط الحدودي، وفتاة مراهقة تجد العزاء في آلة التشيلو الخاصة بها، وسائق سيارة أجرة قضى عقوبة السجن بسبب الديون ووجد نفسه مسجوناً جنباً إلى جنب مع كل رجل أعمال تقريباً في غزة، علاوة على مصممة أزياء تصر أن تبدو نساء غزة رائعات مهما كانت الظروف.

إنها قطعة مذهلة من صناعة الأفلام، تم تصويرها بشكل جميل، كما أن الشخصيات مرسومة بشكل غنيّ، تماماً كالتي نلتقي بها والتي يبدو ظهورها وحده كافياً دون سينوغرفيّات.

وحظي الفيلم المؤثر حول البؤس الذي لا ينتهي في غزة المحاصرة باستقبال متفاوت في الأوساط المتخصصة، منذ عرضه لأول مرة في مهرجان «صندانس" بالولايات المتحدة الأميركية في العام ٢٠١٩، بحيث هوجم من بعض أنصار إسرائيل حدّ وصفه بالتلاعب، باعتبار انه لا يذكر حماس إلا بشكل عابر، فيما تتضمن لقطات لقصف إسرائيلي، ويظهر فيه رشق الحجارة كرد فعل.

ومع ذلك، فإن العديد من النقاد الغربيين، وجدوا أن للفيلم قيمة حقيقية باعتباره وثيقة إنسانية رحيمة، في إظهار الناس العاديين الذين يتعين عليهم بشجاعة الاستمرار بطريقة ما، في أحلك الظروف، في عالم حيث، كما يقول أحدهم، يوجد «جدار بين أهل غزة والحياة نفسها».

إن البحر هو ما يواجهه سكان غزة: الحدود الوحيدة التي لا تبدو وحشية إلى هذا الحد، وهي الحدود التي ينبغي أن تكون مصدراً للراحة، ولكنها تكاد لا ترحم مثل الحواجز البرية، بحيث

يمكن وصف الفيلم لمن لا يعرف الكثير عن واقع غزة بالكئيب والغاضب عن شعب تحت الحصار منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وتحت الاحتلال ومن قبله التهجير منذ ما قبل خمسة وسبعين عاماً.

"طريق السموني" (٢٠١٨)

وفي هذا الإطار لا يمكن إغفال الحديث عن فيلم «طريق السموني»، وهو وثائقي للإيطالي "ستيفانو سافونا"، كان فاز في العام ٢٠١٨ بجائزة «العين الذهبية» لأفضل وثائقي في مهرجان كان.

ولكون سافونا يدرك تماماً ان الفيلم الوثائقي يصبح أحادي الاتجاه وغير متوازن حين يسعى لإدانة جانب بعينه، وتقديم وجهة نظر واحدة فقط، نراه في "عائلة السموني" لا يتحدث عن الأسباب، إرهاب الدولة أو الإرهاب الديني، فهو فقط ينقل إلى العالم كيف تبدو حياة عائلة كبيرة جداً تعيش في أحد الأحياء على مشارف مدينة غزة، وكيف ينفجر كل شيء وينهار بين عشية وضحاها.

وهنا ينقل المخرج الإيطالي وجهة نظر الأصغر سناً، والأكثر هشاشة، والذين لا يملكون إجابات من عائلة «السموني»، في الفترة ما بين نهاية كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٨ ومنتصف كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٩، في العدوان الذي أطلقت عليه اسرائيل اسم عملية «الرصاص المصبوب»، وهو كناية عن القتل دون عقاب، بالاتكاء كعادتها على سياسة الأرض المحروقة، والتدمير، والهدم، والقتل، فمقابل كل قتيل إسرائيلي أعداد مضاعفة بشكل مبالغ فيه ممن لا ذنب لهم من الفلسطينيين في غزة.

"السموني" أيضاً كان حيّاً زراعياً في غزة، حيث التوترات بين حماس وفتح والسلطة الفلسطينية أكثر وضوحاً، وهو ما ينم تناوله عبر الرسومات المضحكة والدقيقة لمونتي بايثون في مرحلة ما في الفيلم الوثائقي، ولو بدون فكاهة، بحيث ينتهي الأمر بالتأثير على السكان البعيدين عن السياسة، والذين يريدون الاستمرار في أحلامهم بالعيش بسلام، كما هي عائلة السموني، التي من المستحيل الانتهاء من وضع كل فرد من أفرادها، ما بين إخوة من أمهات وأبناء إخوة وأبناء عمومة وأعمام، في سلة واحدة، والتعامل معهم كما تفعل إسرائيل باعتبارهم إرهابيين.

وحسب المخرج الإيطالي ستيفانو سافونا، فإنه حاول أن ينقل بدقة ما جرى لعائلة السموني التي استهدفتها القوات الإسرائيلية شمال قطاع غزة أثناء عملية «الرصاص المصوب»، وأجهزت على ٢٩ فرداً منها العام ٢٠٠٩.

حينها، كان المخرج الإيطالي يصوّر العدوان على غزة يومياً، ونظراً للكم الهائل من شهادات الناجين التي وقف عليها، قرّر العودة بعد عام من ذلك ليحضر حفل زفاف للعائلة نفسها، ثم عزم على رواية حكاية العائلة قبل وأثناء وبعد فقدانها فلذات أكبادها، ونجح في ذلك بعد تهريبه عبر نفق

من مصر إلى القطاع المحاصر.

وفي مواجهة نقص الصور، استعان سافونا بسينما التحريك بعدما وقف على عمل سيموني ماسي الذي أنتج أفلاماً قصيرة بهذه الطريقة الفريدة.

واعتبر سافونا أن «الرسوم المتحركة تسمح بطريقة ما بإرجاع الموتى»، مضيفاً: «كان الوضع مأساوياً في غزة قبل ٢٥ عاماً، وقد تفاقم الوضع، وجلّ ما أردته هو إبراز هؤلاء الأشخاص ومنحهم حق الكلام".

قضى سافونا تسع سنوات في محاولة لتجميع الأحداث، حين دمرت القوات الإسرائيلية الخاصة مجتمعاً زراعياً بسيطاً في شمال قطاع غزة، حيث بقي المستهدفون من المدنيّين الفلسطينيين، ومعظمهم من النساء والأطفال، جرحى لثلاثة أيام قبل أن يتمكن الصليب الأحمر من الوصول إليهم، وكان قضى منهم قرابة الثلاثين، بحيث بقيت الجثث في المنزل الذي تعرض للقصف لأربعة عشر يوماً.

يتذكر المخرج الإيطالي: كنت أذهب إلى هناك كل يوم.. كان الناس يعودون كل صباح ليبحثوا تحت الأنقاض، وكنت أتحدث معهم.. كان هناك ١٥٠ شخصاً في المنزل وكلهم أبناء عمومة عندما قصفته مروحيات أباتشي الإسرائيلية الحربية.

ونجح «طريق السموني» في عرض حياة حقيقية تأثرت بالوحشية التي تفوق الخيال، فكان أن ساهم في إسكات تلك الأصوات الصاخبة من جميع الأطراف غير القادرة على الرؤية لأبعد من الدعاية المتعصبة الخاصة بهم، فتابع آلام وصمود هؤلاء، أو من تبقى منهم، في محاولة لإعادة بناء حياتهم بعد مجزرة ٢٠٠٩، مشيراً إلى أن عائلة أو عشيرة السموني ظلت تزرع حقولها في شمال غزة منذ عصور موغلة في القدم.

إن عائلة «السموني» تعتبر نفسها من سكان غزة الأصليين، وكانوا يفخرون بذلك.. كانوا مجتمعاً منفصلاً داخل غزة، يتزاوجون فيما بينهم ولهم لهجتهم الخاصة.

ومن الناحية السياسية، كانوا أقل مشاركة من معظم سكان غزة اللاجئين، الذين استقروا في القطاع بعد فرارهم أو طردهم من منازلهم مما يعرف الآن بإسرائيل، بحيث يؤكد سافونا أن عائلة «السموني» كانوا مناهضين لحركة حماس، إلا أن أراضيهم ومنازلهم ومساجدهم دمرت خلال العملية الإسرائيلية واسعة النطاق، والتي حولت مجتمعهم إلى «صحراء من صنع الإنسان».

لم يرد مخرج «طريق السموني» أن يستغرق في مشاعره داخل هذا الفيلم، خشية أن ينتهي به الأمر مقدماً مادة بصرية تظهر للآلاف كأنها «نوع من الابتزاز النفسي."

قدّم سافونا المهمة البصرية التي خرجت على شكل فيلم وثائقي غير كلاسيكي، بأسلوب أنيق، من

خلال بناء ذكريات الماضي الرائعة لتخبرنا الفتاة أمل بما حدث تماماً حتى انتهى الأمر بها مصابة بشظية في جمجمتها ودماغها.

تظهر ابنة عائلة «السموني» في مشهد أولي مليء بالمعنى السينمائي غير المباشر، بحيث تخبر الطفلة الساكنة العالم كيف كان حيها.. ماذا كان هناك قبل ذلك اليوم، ما الذي حدث لشجرة الجميز الكبيرة التي كثيراً ما لجأوا إليها لتقيهم من الحر، أو التي تسلقوها مراراً لقطف ثمارها، وعن بيت أمها وأبيها، وبيوت إخوتها غير الأشقاء، وبيوت أعمامها وأجدادها.

يرسم الفيلم مساحة ثلاثية الأبعاد لم يتبقَ منها شيء، ممارساً تمريناً للذاكرة، شيئاً فشيئاً، بحيث يعيد المتذكرون بناء ما هدمه جيش الاحتلال الإسرائيلي وبعثره.

إن الناجين لا يعرفون ما السبب فيما حصل لهم، كما كان من قبل الضحايا.. إنهم يعرفون فقط أنهم مزارعون، وأنهم عملوا في إسرائيل حتى تم إغلاق الحدود أمام العمال الفلسطينيين، وأن لديهم أصدقاء بين زملائهم في العمل على الجانب الآخر من الحدود، وأنهم اعتقدوا أنه ليس لديهم ما يخشونه إذا تم إغلاق الحدود أمام العمال الفلسطينيين.

وفي الفيلم يطلّ جيش الاحتلال، على الرغم من أن العديد من أفراد العائلات وسكان الحي اختاروا اللجوء إلى المدينة، ليبدأ الهجوم المدمر والقاتل وغير المبرر.

ولا يبدو مستهجناً في الدقائق الأولى من الفيلم، أن تترك أمل، عندما تمشط شعرها، عصابة رأسها على مستوى العين بل تستخدمها كعصابة للعينين كي لا ترى الحاضر، لعلها لا تتذكر الماضي، فقد تُركت «ميتة» لثلاثة أيام لم يسمح خلالها جيش الاحتلال الإسرائيلي للصليب الأحمر بالدخول للتحقق من الجثث والبحث عن ناجين بين الأنقاض في الحي، وكانت من بينهم، هي التي باتت شاهدة من الموتى وبينهم عن الموتى.

"غزة الرواية الأخرى" (٢٠١٧)

في الشهر الثاني من العام ٢٠١٩، فاز فيلم "غزة" للمخرج الإسباني "خوليو بيريث ديلكامبو" بجائزة «غويا ٣٣» عن أفضل فيلم وثائقي قصير.

ويتناول الفيلم أوضاع قطاع غزة المحاصر منذ سنوات، حيث يسلّط الضوء على محنة الفلسطينيين ومراحل حياتهم اليومية في ظل إنتهاكات الإحتلال، ومحاولاتهم البقاء على قيد الحياة.

في كلمته التي ألقاها أثناء تسلّم الجائزة أهدى ديل كامبو الفوز لجميع المناضلين الذين دافعوا عن

حق الشعب الفلسطيني في الكفاح، مضيفاً: أعتقد أنه يمكن القيام بأشياء كثيرة لمناصرة القضية الفلسطينية من بوابة الثقافة، ومعبراً عن موقفه الرافض لإضفاء الشرعية على البلدان التي تنتهك حقوق الإنسان بشكل منهجي.

ومن بين ما نقله الفيلم شهادة مزارع على الشريط الحدودي للقطاع مع إسرائيل، كلما قام وأسرته بزراعة أرضهم، كلما قامت جرافات الاحتلال بالتوغل، وتخريب ما زرعوه، وإن لم تتوغل، تقصف الأرض بشكل مباشر، لدفعهم على تركها بعيداً، هذا غير استهداف بإطلاق النار مباشرة عليهم.

ويعرض الفيلم الذي يمتد على قرابة العشرين دقيقة، معاناة المزارع وأسرته، مظهراً القصف الذي طال منزلهم، وإطلاق النار الذي يحفر آثاره على الجدران، وفي نفوس ساكنيه، وخاصة الأطفال منهم، حيث الصراع ما بين البقاء في الأرض والمنزل، ورعب الموت في أي لحظة بسبب الاستهداف المستمر من دبابات الاحتلال وآلياته.

ومن ثم يتنقل إلى شهادات أخرى من المزارعين على المناطق الحدودية، واحدة لرجل فقد وأسرته بيتهم بالكامل بفعل القصف الإسرائيلي العام ٢٠١٤، وأخرى لسيدة تشير بأسى إلى منزلها، مشيرة إلى أن أضواء الليزر توحهت إليهم قبل اقتحام منزلهم من جنود إسرائيليين، طالبين منهم الخروج من المنزل، وسط قصف بالطائرات والدبابات في محيطه، ففرت تحمل ابنتها بصعوبة، بينما كانت الدبابة الإسرائيلية التي لا تبعد خمسين متراً عنهم، توجه سبطانتها نحو البيت الذي فقد بعض سكّانه شهداء.

ويسرد ديلكامبو مشاهداته في الفيلم، وسط الدمار الهائل، متحدثاً عن غياب الأمن في تلك المنطقة من القطاع، أي الشريط الحدودي، وقتذاك، قبل أن يتجوّل في أروقة مستشفى الوفاء القريب، والذي طالته آلة الحرب الإسرائيلية في ذلك العام، حيث الطفل صهيب الذي كان يبلغ من العمر، حينها، عامان ونصف العام، وتم انتشاله حيّاً من تحت الأنقاض، لينتهي الفيلم على وقع صراخه ودهشته، فليست جريمته إلا أنه «فلسطيني».

ولفت ديلكامبو إلى إنه، وبعد العدوان الإسرائيلي على غزة في العام ٢٠١٤، رأى أن من واجبه أن يزور القطاع، ليقف على حقيقة الوضع فيه ويصوره للعالم تعريفاً بالواقع الذي أرادت إسرائيل إخفاءه، فبدأ تنفيذ فكرته رغم المعوقات الإسرائيلية ورغم قساوة ظروف إنجاز فيلم هناك بسبب أوضاع غزة والدمار الشامل، ولكنه وجد «تعاونا جيدا في الإعداد» من أهالي غزة.

وأضاف أن إسرائيل لديها ماكينة إعلامية من أقوى مثيلاتها دولياً، ومن الصعب مواجهتها بما لدى الفلسطينيين من مقوّمات، خاصة أن مثل هذه الأفلام دائماً ما تجد محاربة كبيرة وواسعة من إسرائيل وحلفائها في العالم وخاصة في الدول الغربية، إذ رفض كثير من المهرجانات عرض الفيلم،

وهددوا كل من يختاره للعرض، مع أن الفيلم لا يعكس الأوضاع سياسياً، بل من وجهة نظر حقوق الإنسان التي تنتهكها إسرائيل، رغم كونها شريكة للغرب.

وأوضح ديلكامبو أنه رغم ذلك لقي الفيلم رواجاً كبيراً، ورحّب به كل من شاهده، ثم نال جائزة «غويا» التي وصفها بالمهمة لأمرين: الأول يتعلق بأصدائها العالمية التي روّجت للفيلم فحظي بملايين المشاهدات، والثاني أنها منحت الفيلم فرصة مخاطبة العالم بأنه يقف أمام نظام فصل عنصري إسرائيلي حصد الكثير من أرواح الأطفال، وأن على الغرب متابعة وسائل إعلام أخرى غير تلك التي تنحاز لإسرائيل.

يبقى الإشارة إلى أن القصص المماثلة لما عرضه في الأفلام سابقة الذكر، لا تحظى بتغطية في الإعلام الغربي، لأن هناك سيطرة قوية لإسرائيل وداعميها في أبرز وسائل هذا الإعلام، ولذلك فإن الرواية الإسرائيلية تلقى رواجاً، فيما يُمنع سواها، وهذا جزء من المعركة ضد الفلسطينيين، حيث يُمنع وصول قصصهم المأساوية للعالم بشكل حقيقي وكامل.

ولهذا فإنه من المهم إنتاج أفلام بلغات الغرب، لأنها ستكشف للغربيين العاديّن أشياء يمكنهم التفاعل معها بصورة عاطفية ومؤيدة لرفع الظلم عن الفلسطينيين، فهي أعمال تصوّر معاناتهم الواقعية بصورة مفهومة لكل الناس وبعيدة عن الأدلجة، ولذلك فإن إسرائيل ستظل تحارب هذه النوعية من الأفلام الموجهة للرأي العام العالمي، والغربي منه.

"نادي غزة لركوب الأمواج" (٢٠١٦)

يبرز فيلم "نادي غزة ركوب الأمواج"، وهو وثائقي ألماني أنتج في العام ٢٠١٦ للمخرجين: "فيليب جنات" و"ميكي يمين"، بحر غزة المحاصرة بشكل مغاير، بدءاً من اصطدام أمواج البحر الأبيض المتوسط العنيفة بالأرصفة الخرسانية والجروف المتصدعة، على وقع آثار العنف البشري، الذي يتجلى في المباني المتهالكة والمدمرة بفعل أكثر من عدوان إسرائيلي في مدينة غزة الساحلية، أو في فقر سكانها، وفي الرسائل الإخبارية التي يتم عرضها كمتكآت افتتاحية للفيلم، وتتحدث عن الغارات الجوية الإسرائيلية، واتفاقات وقف إطلاق النار المنقضية.

هناك اتساع المحيط والحدود الغربية لغزة، التي تمتد نحو أوروبا وأفريقيا، والواقع القاسي للحياة في ظل الحصار الإسرائيلي، المحاط بحدود ضيقة وزوارق دورية إسرائيلية تحصر الصيادين في غزة داخل ممر مائي ضيق، فهناك الكثير من الأسماك في البحر، لكنك صيّاد فلسطيني تعيش في غزة.

ومن قلب البحر، يُبرز الفيلم إرهاصات ثقافة ركوب الأمواج التي تحاول مجموعة من سكان غزة، وخاصة الشباب منهم، استيرادها من الخارج، للخروج بطريقة حياة مريحة وهادئة تتكئ على

ركوب الأمواج، في تناقض صارخ مع الضغط الناتج عن الوجود داخل طنجرة الضغط السياسي، وأيضاً مع النزعة المحافظة التي ظهرت في عهد سيطرة حركة حماس على القطاع منذ العام ٢٠٠٧.

ليست السياسة هي الهدف من فيلم «نادي غزة لركوب الأمواج»، فهو في الواقع لا يذكرها مباشرة إلا نادراً وبشكل غير مباشر، لكن الوضع السياسي هناك يوجه كل جزء من هذا المشروع، فاستيراد ثقافة ركوب الأمواج إلى غزة يمثل في الواقع كابوساً لوجستياً، فرغم توفر القبعات، والقمصان، والسراويل القصيرة، نسبياً، إلا أن ألواح ركوب الأمواج نفسها سلعة نادرة.

من دون الألياف الزجاجية الضرورية ومعدات التشكيل، حاول المتبنون الأوائل في غزة لهذه الرياضة البحرية الاكتفاء بالبدائل الخشبية المنحوتة يدوياً، لكن النتائج أثبتت هشاشتها وخطورتها، فأحد راكبي الأمواج يعرض بقايا لوحه الخشبي، المحطم والمسنن.

وفي وقت لاحق، عندما أرسل أحد المتبرعين الأميركيين ٢٤ لوحاً حديثاً، احتجزتها الجمارك الإسرائيلية لعامين، وحالت دون دخولها إلى غزة، وهذا ما عبّر عنه أبو جيّاب (٤٢ عاماً)، بالقول: «خلال الحرب كنت أخشى على الألواح أكثر من خوفي على أطفالي»، وكأنه يقول إنه يمكنك إنجاب طفل آخر، ولا يمكنك إنشاء لوح أخر.

يحكي الفيلم أيضاً حكايات عدّة كحكاية إبراهيم، الشاب العشريني الذي حاول خمس مرات السفر بحراً عبر غزة، ولم ينجح، مع أنه أنفق آلاف الدولارات، ولكونه يحب البحر كان يحلم على الدوام بالعيش في هاواي.

وتشكل رحلة إبراهيم العمود الفقري للفيلم، بحيث يحصل في النهاية على تأشيرته ويسافر إلى هاواي للقاء معلمه وصديقه ماثيو، مرسل ألواح ركوب الأمواج الأميركي.

يجد إبراهيم في الثقافة الأميركية ما يثير القلق بادئ الأمر.. «في الأيام العشرة الماضية لم أرَ فتاة واحدة ترتدي كامل ملابسها»، لكنه ما بين البقاء والعودة، وما بين التفكير في طرق لإدخال ألواح ركوب الأمواج إلى غزة، وما إذا كانت أثمانها بحوزة الراغبين باقتنائها، نراه يصل إلى قناعة مفادها أنه «طالما لم يتغير الوضع في غزة، فسيكون الأمر صعباً، مهما كان الثمن».

في وقت ما، ظهر إبراهيم على شاشة التلفزيون المحلي، حيث أجرت مذيعة أخبار مقابلة معه.. «هل هناك فتيات يمارسن رياضة ركوب الأمواج في غزة؟»، تسأله، فيجيب: الآن لا.. هذا صعب، ولكن كان هناك بعض الفتيات الصغيرات اللواتي تعلمن القليل عن ركوب الأمواج. لكنهن الآن لا يفعلن، لأنهن نساء ولسن رجالاً، ونحن في غزة.

صباح، مثلاً، وعندما كانت في الثانية عشرة من عمرها، شكلت الوجه الشجاع للفتيات راكبات الأمواج في غزة، عبر قصة صحفية وفيديو نشرته «الغارديان» البريطانية الشهيرة، وبعد ثلاث سنوات، تتعقبها كاميرات فيلم «نادي غزة لركوب الأمواج»، وهي ترتدي الحجاب وتشاهد الفيديو الذي يظهرها أكثر شباباً وأكثر حرية.. في التصوير كانت تتوقع صباح الأصغر سناً: عندما أكبر وأصبح طبيبة، لن يسمح لنا مجتمعنا بركوب الأمواج لأننا سنصبح بالغات، وهذا أمر مخجل.. صباح التي كبرت تراقب مع عائلتها وتضحك.

"اليوم، الجميع يسيطر علينا، في البحر وفي كل مكان آخر"، هكذا تحسر والدها، وهو رجل إنقاذ قام بتعليم جميع بناته السباحة، دون الإشارة ما إذا كان الحديث يطال الاحتلال الإسرائيلي أم قيود حركة حماس أو التبعات الاجتماعية للحياة في غزة، أم كلها مجتمعة.. ويتذكر الوقت الذي أحضر فيه فتياته لركوب الأمواج في الميناء، حيث طلب منه خفر السواحل أن يأخذهن إلى المنزل.

في وقت لاحق، بالنسبة للكاميرات، حاول مرة أخرى: قام بربط حبل على لوح ركوب الأمواج من الجزء الخلفي من زورقه ودفع صباح إلى البحر، وبعيداُ عن الشاطئ، تخلع معطفها الطويل ووشاح رأسها، وتبتسم، وتقفز في الماء.. تجدف على اللوح، وتقف، وتركب الأمواج في أعقاب قارب والدها.

تعتبر العديد من الشواطئ بمثابة ملاذ من صعوبات الحياة اليومية، ولكن بالنسبة لسكان قطاع غزة، فإن التناقض بين الجزء الذي يعيشون فيه من البحر الأبيض المتوسط وواقع الحصار هو الفرق ما بين الفرح واليأس، ومن هنا يقدم فيلم «نادي غزة لركوب الأمواج» لحظات ملهمة، بحيث تابع صانعو الأفلام المقيمون في ألمانيا قصتهم على مدار عدّة سنوات ليخرجوا بوثائقي يتميز بتركيزه على الأفق والتوسع الذي يولده.

"دموع غزة" (٢٠١٠)

يمثل فيلم «دموع غزة» للمخرجة "فيبيكي لوكيبيرغ"، حسب وصف عديد النقاد الأجانب انفجاراً وحشياً لا هوادة فيه، بل إن هناك من قال إنه «ليس فيلماً وثائقياً بقدر ما هو عبارة عن كتلة من المعاناة»، بحيث يسقطنا في قلب الهجمات الإسرائيلية العدوانية على غزة في شتاء ٢٠٠٨-٢٠٠٩، فيدوس السياسة تحت وطأة الشهادات الإنسانية، مقدماً مونولوجات عن الفجيعة، تنسج سوية صوراً فظيعة تستعصي على التفسير العقلاني، وتشكل نسيجاً من البؤس الإنساني من الصعب وربّما من المستحيل التخلص منه.

وباستخدام لقطات غير عادية التقطها العديد من المصورين الفلسطينيين، تسلط لوكيبيرغ، وهي نرويجية مُنعت من الوصول إلى غزة، الضوء على الحرمان الشديد من الحياة في ظل الحصار والجروح الجسدية والنفسية التي خلفتها الحرب.

أمطار مرعبة من الصواريخ الليلية، تتبعها طلقات مؤلمة لأطفال مختنقين يتم انتشالهم من تحت أنقاض المنازل المدمرة، فيما تحضر أجساد صغيرة ومكسورة، بعضها تم إطلاق النار عليه من مسافة قريبة.

الفيلم، تم تصويره غالبية مشاهده عن قرب، عبارة عن كتلة بصرية مؤلمة، خاصة عندما تترافق مع مقابلات ما بعد المجازر لثلاثة أطفال كانوا، حينها، على قيد الحياة، بحيث تشكل مع بعضها البعض حالة من التأمل في حياة تغيرت بشكل لا رجعة فيه.

ويلتزم فيلم «دموع غزة»، بشكل لا يتزعزع بأسلوب تجاوز السياق، أو ما يوصف نقدياً بـ»البصق على السياق"، وهو ما يبدو مُبرّراً، فلا أهمية للسياق في ظل كل هذا الرعب.

والفيلم الذي تعرض لحملة تحريضية أيضاً يمكن وصفه بتجربة عاطفية مرهقة، خاصة لمن لا يعرف أو لا يعرف الكثير عمّا حدث ويحدث في قطاع غزة، بل بالنسبة لنا نحن الفلسطينيين خارج القطاع أو خارج فلسطين كلها، فهذه السردية الفيلمية تجعل الواحد منّا يشعر بالغضب والعجز إلى حد كبير.

أعتقد أن هذا الفيلم، وما أحدثه من أثر، مهم جداً، ومن المهم إعادة تعميمه في الغرب، وللعامة، خاصة أنه يتعاطي مع الصراع الفلسطيني الإسرائيلي من منظور إنساني بحت.. قد يرى البعض أنه منظور من وجهة نظر فلسطينية، لا ضير في ذلك، برأيي، فثمة ما يطلق عليه في صناعة الأفلام «وجهة نظر»، فليست كل الأفلام الوثائقية تتخذ نهج العمل الصحفي المتوازن، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بقصص إنسانية عميقة في معناها ومغزاها وتأثيرها.

كان العدوان الذي شنه جيش الاحتلال الإسرائيلي في كانون الأول (ديسمبر) ٢٠٠٨ وكانون الثاني (يناير) ٢٠٠٩ على السكان الفلسطينيين في غزة، موضوع هذا الفيلم الوثائقي المؤثر والصعب للنرويجية فيبيكي لوكيبيرغ، فقد هزت اللقطات المؤلمة للقصف الذي استمر ٢٢ يوماً الجمهور في المهرجانات التي عرض فيها، بدءاً من مهرجان تورنتو السينمائي الدولي.

فيبيكي لوكيبيرغ أوضحت أن فيلم «دموع غزة» تم تجميعه بشكل أساسي من لقطات الخطوط الأمامية التي التقطها العديد من الفلسطينيين، فخلال الحصار، مُنعت وسائل الإعلام العالمية من الدخول إلى قطاع غزة، لذا قامت لوكيبيرغ بصناعة الفيلم وإنتاجه رفقة زوجها، بما في ذلك جمع مواد الفيديو من خارج منطقة الحرب، حيث مشاهد القنابل تسقط على المباني والناس يركضون وهم يصرخون من بين الحطام الذي يتصاعد منه الدخان، وفي بعض الأحيان مشاهد لمن يحملون أطفالاً جرحى أو ممزقين أو قتلى.

نشاهد أباً يظهر جسد ابنته الصغيرة المحترق من الوجه إلى القدم، متسائلاً باستنكار عن مستقبلها وقدرته على حمايتها، فيما يقول أحد الصبية: "حتى لو أعطونا العالم، فلن ننسى".

ويظهر الفيلم أيضاً نقص سيارات الإسعاف إلى تنقل المصابين إلى المستشفيات التي تعمل بموارد بدائية، بحيث يتعامل الموظفون قدر المستطاع القليل مع ضحايا القنابل الفسفورية والمتفجرات المعدنية الكثيفة، وكثير منهم أطفال، وهو جهاز ينفجر من الأرض إلى الأعلى مخلفاً إصابات جسيمة في الجزء السفلي من البطن، ثم هناك الجثث المتفحمة التي يصعب التعرف عليها، والعائلات المكلومة التي تعاني من الصدمة لدرجة أنها لا تستطيع التحدث.

تتخلل اللقطات قصص ثلاثة يافعين: يحيى ورسمية وأميرة، الذين يقدمون شكلاً وبنية لفيلم لا يُقدّم الكثير من السياسي والتاريخي في سياقه، بحيث أجرى صانعو الفيلم مقابلات مع الثلاثة بشكل فردي في الفترة التي تلت وقف إطلاق النار، وهم ممّن فقدوا أفراداً من عائلاتهم، وأصبحوا بلا مكان للعيش فيه، ولا طعام ولا ماء ولا كهرباء.. رسمية تقول للكاميرا، مثلاً، إنها تشعر بالعطش دائماً.

نتابع في «دموع غزة» بشكل فضفاض هؤلاء ممّن قدموا شهادات مُباشرة على ذبح أحبائهم.. وعندما نفقد أثر الأطفال، نحصل على مونتاج للقنابل المنتشرة، والمباني المدمرة والمحترقة، وجثث الأطفال المتفحمة التي يتم سحبها من تحت الأنقاض مثل دمى القماش، وسط الكثير الفوضى حيث صرخات النساء والأطفال في الشوارع، وحيث تختفي أرواحهم أمام أعيننا في غمضة عين، فيما تمتلئ المستشفيات بتدفق مستمر من الجثث المكسورة، والأطفال المتفحمين، بينما يلعن الناجون عدوهم المرير، ويستحضرون باستمرار أيامهم التي مزقتها الحرب، ليعود الأطفال الحكماء الذين يتجاوزون أعمارهم بكثير للإمساك بناصية الشاشة، مؤكدين أن «الحياة صعبة».

وكانت المخرجة فيبيكي لوكيبيرغ كشفت أنها تحمّست لإنجاز فيلم «دموع غزة»، منذ أن شاهدت لأول مرة وجوه الأطفال الذين عاشوا الحرب في برنامج تلفزيوني، وأصرّت وزوجها بعدها، على عرضه، رغم الاحتجاجات.

"دموع غزة"، فيلم وثائقي يصور لقطات لطائرات ودبابات جيش الاحتلال الإسرائيلي وهو يقصف غزة في نهاية العام ٢٠٠٨ وأوائل العام ٢٠٠٩، وجد فيه البعض أمر تقشعر له الأبدان، لكن بالتأكيد أن الواقع أكثر صعوبة من أي رعب خيالي قد شاهدوه وشاهدناه.

"غزة غيتو" (١٩٨٥)

يصوّر الفيلم الوثائقي «غيتو غزة» (١٩٨٥) حياة الفلسطينيين في قطاع غزة تحت الاحتلال الإسرائيلي، حيث تم تصويره قبل الانتفاضة الأولى أو "انتفاضة الحجارة" في العام ١٩٨٧، ويُظهر مخيمات اللاجئين المزرية والقمع العسكري للاحتلال الإسرائيلي على أرض غزة، والمقاومة المدنية

السلمية لسكان القطاع.

توثق المشاهد اليأس الاقتصادي والاحتجاجات الأساسية، وسط النقص المزمن وحملات القمع القاسية، عبر صور صارخة للظروف البائسة والمقاومة اللاعنفية.

وأنذر «غيتو غزة» بالمحنة المستمرة لسكان غز، وكأنه تنبأ بالانتفاضة، غير متغافل لسياسة «العقاب الجماعي» التي تمارسها سلطات الاحتلال منذ احتلالها في العام ١٩٦٧ للقطاع كما الضفة الغربية بما فيها الجزء الشرقي من القدس.

تصوير «غيتو غزة» للهجمات الإسرائيلية المتواصلة على المدنيين الفلسطينيين، يتردد صداه بقوة في ضوء الأحداث الجارية، بحيث يصنع الفيلم وجهاً إنسانياً لقطاع غزة، في مواجهة التجريد من الإنسانية المستخدم لتبرير العقاب الجماعي، والمتواصل حتى أيامنا هذه، وهو ما تجسّد بوضوح في وصف وزير الدفاع الإسرائيلي يوآف غالانت سكان غزة بـ»الحيوانات البشرية» في تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٢٣، أو دعوة وزير التراث الإسرائيلي كميحاي إلياهو لإسقاط قنبلة نووية على القطاع في الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٢٣.

والفيلم الذي هو إخراج السويديّين "بيير بيوركلوند" و "بير آكي هولمكويست"، والأميركي "جوان ماندیل"، يعتبر أول فيلم وثائقي طويل يتم تصويره في غزة، حسب بعض المؤرخين، أو على أقل تقدير أول فيلم وثائقي أجنبي يتم تصويره في القطاع، بحيث يسلط الضوء على السوابق التاريخية للحرب والسلب والسيطرة العسكرية الإسرائيلية التي تؤثر على الحياة اليومية لعائلة في مخيم جباليا للاجئين الفلسطينيين، عبر مشاهد حميمة، من بينها طفل يولد، وجدة تموت، وتتخللها زيارات لمهندسي الاحتلال العسكري الإسرائيلي، مثل: آرييل شارون، وبنيامين بن أليعازر، وغيرهما.

وفي هذا الإطار، يتتبع الفيلم حكاية عائلة لاجئة من قطاع غزة تزور موقع قريتهم السابقة، التي هُجّروا منها في العام ١٩٤٨، وأصبحت الآن مدينة يهودية في إسرائيل، وبينما يشير الجد والجد الأكبر إلى بستان وشجر جميز يعود لمحمد أيوب والعم خليل، يظهر أحد السكان الإسرائيليين ويطلب منهم المغادرة، مدعيا أنهم بحاجة إلى تصريح للتواجد هناك.. تقول له الأم: «نحن نعمل في يافا وتل أبيب وهذا ليس ممنوعاً»، فيجيبها: «هنا ممنوع».

وفي الفيلم تحكي الأم عن روتين يومها الطبيعي بابتسامة ملتبسة، بينما تحضِّر أبناءها للمدرسة، لافتة إلى أنه عندما يطبق نظام حظر التجوال تُقطع المياه نهائيّاً، وإلى أنها تحذّر أولادها من الاحتكاك بالجنود أثناء العودة، وأن يعودوا قبل موعد الحظر.

تقف تلك التفاصيل حائلاً أمام اعتبار هذا البورتريه تصويراً لأسرة تعيش حياة طبيعية، كما في تتمة

عنوان الفيلم «بورتريه لأسرة»، بل هي أسرة تحاول العيش بطبيعية من قلب الاحتلال، الذي حوّل القطاع بعد الانسحاب الأحادي الجانب، ومن ثم الانقسام الفلسطيني وسيطرة حركة حماس عليه، إلى «سجن مفتوح»، كما وصفته، مؤخراً، النجمة الأميركية الهوليوودية "أنجلينا جولي".

واللافت أن الفيلم صُوّر في مخيم جباليا للاجئين، وعن أسرة بعينها لدواعٍ درامية، التركيز الدرامي والتوثيقي، وهو المخيم الذي تعرض ولا يزال لقصف متواصل منذ ما بعد الأسبوع الأول من تشرين الثاني (أكتوبر) ٢٠٢٣، فإن كان بقي من العائلة أبناء باتوا مسنّين أو أحفاد، لا نعرف أن نجا أحدهم أو أكثر، أو سيواصل النجاة لو كتب له، لعله يظهر في جزء آخر ليس بالضرورة ثانياً او عاشراً من حكايات تزداد مأساوية في جباليا، كما في القطاع بأكمله.

ورغم أن الفيلم يقوم بتركيب شهادات الفلسطينيين من عائلة الجد «أبو العدل» وقيادات جيش الاحتلال وجنود، وكأنه يموضع نفسه في خانة محايدة، إلا أنه ليس حياداً تاماً، ولا حقيقياً، ففي المضمون انحياز أخلاقي لما يحدث بفعل الاحتلال في غزة.

كثيرة هي الأفلام التي صنعها مخرجون غربيّون عن غزة، ليس من السهل الإحاطة بها، لكن مؤخراً، أطلقت منصة الفيلم الفلسطيني، التابعة لمؤسسة الفيلم الفلسطيني، عبر موقعها الإلكتروني، سلسلة أفلام تحتفي بجمال غزة وشعبها، وكفاحها وبقائها، بهدف الوقوف في وجه شيطنة هذا المكان الجميل، تحت عنوان «سرديات رغم التبرير»، وكان من بينها عديد الأفلام التي صنعها مخرجون غربيّون، كـ«غيتو غزة»، و«طريق سموني»، و«قفزة أخرى» أو «غزة تقفز»، بحيث عرضت مترجمة لتنقل صورة مغايرة عن غزة التي تُباد إلى العالم.

إن الشاشات عامة، والأفلام كلغة على وجه الخصوص، يجب أن تُفهم على أنها مواقع للصراع والتنافس، وفي حالة القطاع المحاصر، فإنها تكافح لتصل إلى العالم لعله يرى بشكل مختلف الواقع الغزي، بذات أدوات النظام البصري العالمي، لعل صور هذه الأفلام تحدث سلطة تكافح تلك السطوة القوية للسردية الإسرائيلية بما فيها البصرية، أو، ولو لبعض الوقت، أو في بعض الجغرافيات، تنجح في تقويضها، مع أن الأهم هو وجودها كأرشيف للوجود الفلسطيني على أرض فلسطين عامة، وفي قطاع غزة خاصة، ما يشكل تحدياً، يجب أن يتواصل عند الفلسطينيين، بمساعدة أنصار الحقيقة والإنسانية، لتصوّر مبني لدى النقيض على ضرورة اختفائهم.

أوراق عربية

تاريخية الجامعة العربية وفلسطين

رضوى عبد القادر

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية(١٩٣٩_١٩٤٥)، بدأ فرز الأوراق، بالنسبة للمشروع الصهيوني في فلسطين؛ كما صرح وزير الخارجية البريطانية، آنذاك، أنتوني إيدن، خلال تلك الحرب، بأن حكومته تميل إلى قيام كيان عربي موحَّد، واتضح بأن بريطانيا هدفت من ذلك الكيان التصدي لِـ «المعسكر الإشتراكي"، الذي استجد، وللاستقواء بذلك الكيان في مواجهة أطماع واشنطن، غير الخفية،في وراثة باريس ولندن في مستعمراتيهما بالعالم.

لم تتلق فلسطين دعوة رسمية، كغيرها من الدول العربية،للاشتراك في المفاوضات التمهيدية،التي سبقت اجتماع الاسكندرية، المزمع عقده في ١٩٤٤/٩/٢٥،لوضع "ميثاق الجامعة العربية"، إلا أن رئيس الوزراء المصري،آنذاك، مصطفى النحاس باشا، وهو الذي كان يدير المفاوضات الخاصة بتأسيس جامعة الدول العربية، في القاهرة، أبلغ القنصل المصري في القدس، محمود فوزي،رغبته في أن ترسل الأحزاب الفلسطينية وفدًا عنها.ولم تستطع الأحزاب الاتفاق على اختيار وفد من زعمائها، بسبب إصرار «الحزب العربي»على أن تكون له الأغلبية؛ وإزاء هذه العقبة،تم الاتفاق على اختيار مندوب واحد،لا ينتمي إلى أي من هذه الأحزاب، واختير المحامي المقدسي،بريطاني الثقافة،موسى العلمي، وقد عمل في حكومة الانتداب،فترة طويلة،وكان العلمي أحد أعضاء الوفد الفلسطيني في «مؤتمرالمائدة المستديرة»،بلندن، سنة ١٩٣٩.وعندما وصل العلمي إلى مصر،لم توجَّه إليه الدعوة، لحضور جلسات المؤتمر،كما شعر بفتور من المسؤولين المصريين تجاهه؛ ولما علم بأن الحكومة البريطانية قد أوعزت إلى سفيرها في مصر بعدم رضاها عن إقحام القضية الفلسطينية في مواضيع البحث، وإعطائها عناية زائدة،عرف سبب الفتور،فقابل النحاس باشا،إلا أن المقابلة كانت قصيرة وجافة، واقتصرت وجهة نظر النحاس على أن يُدعى العلمي إلى جلسة غير رسمية،

* كاتبة وباحثة..

يحضرها من يشاء من الأعضاء، ليستمعوا إلى مندوب عرب فلسطين، إلا أنه لم تُتح لهذا المندوب أكثر من فرصة إلقاء خطاب دعائي، لمن يشاء الاستماع! وإزاء هذه العقبة، لم يتصل العلمي برؤساء الأحزاب الفلسطينية، لاستشارتهم،بل حاول أن يتجاوز العقبة، معتمدًا على صداقاته الخاصة مع البريطانيين؛ فاجتمع برئيس الاستخبارات العامة البريطاني، في الشرق الأوسط، والمقيم بالقاهرة، الجنرال كلايتون؛ وبعد اجتماع دام ساعتيْن،خرج العلمي،يحمل منه رسالة إلى النحاس، جاء فيها بأن الحكومة البريطانية لا تمانع في قبول السيد العلمي مندوبًا عن عرب فلسطين في المؤتمر؛ وسلَّم العلمي الرسالة إلى النحاس، في مقابلة قصيرة، تسلَّم العلمي، في نهايتها،دعوة رسمية، من قبل النحاس، لحضور جلسات مؤتمر الاسكندرية التمهيدي، وما أن ذهب العلمي إلى الاسكندرية، حتى أحس بتحوُّل الفتور الرسمي السابق إلى احترام، وتقدير!(١)

ابتدأت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي اجتماعاتها، في الاسكندرية، يوم ١٩٤٤/٩/٢٥،واستمرت حتى١٠/٧،وتكلم في إحدى جلساتها، مندوب فلسطين، وشرح القضية الفلسطينية، بملابساتها، وأبعادها، وركَّز في كلمته على مشكلة الأراضي العربية، المهدَّدة بالاستيلاء اليهودي، وقدم اقتراحًا بضرورة إنشاء صندوق عربي لإنقاذ الأراضي.اقتنع الأعضاء بكلامه، كما كان واضحًا من الأسئلة، والتعليقات، أن بعضهم كان يجهل، بالفعل،الكثير عن القضية الفلسطينية.(٢)

أصدرت الوفود العربية،الممثلة لمصر،وسوريا،والأردن،والعراق،ولبنان،في نهاية المؤتمر،بيانًا عُرف بـ «بروتوكول الاسكندرية»، ونصَّ على تأليف»جامعة الدول العربية»، من الدول العربية المستقلة، التي تقبل الانضمام إليها، ويكون لهذه الجامعة مجلس، يُسمى «مجلس جامعة الدول العربية»،تُمثل فيه الدول المشتركة، على قدم المساواة. والقرار المهم، الذي احتواه»بروتوكول الاسكندرية"،تعلق بفلسطين، ويبدو أن الأجواء الحماسية، في غمرة الاجتماع العربي الأول، ساهمت في صنع القرار الخاص بفلسطين، والذي اعتبرته الحكومة البريطانية قرارًا ثوريًا،وتحديًا لسلطتها، وتدخلاً من قبل الجامعة في شؤون فلسطين، لا ترضى عنه لندن،والدليل الأكبر على الرضوخ العربي الرسمي للتحكُّم البريطاني كان خلو»ميثاق الجامعة»، في السنة التالية، من أي تأييد عربي لحقوق الفلسطينيين، وحتى من أي ذكر للقضية الفلسطينية! لقد مُسخ القرار الخاص في «بروتوكول الاسكندرية»إلى مجرد ملحق خاص بفلسطين،في ميثاق الجامعة، وليس فيه إلا الإشارة التاريخية إلى وجود فلسطين، وجودًا شرعيًا، ومستقلاً،منذ ميثاق»عُصبة الأمم»، سنة١٩١٩! ولدى صدور ميثاق الجامعة، انقلب تفاؤل الشعب الفلسطيني إلى تشاؤم؛ ففي حفلة توقيع الميثاق، كانت خيبة الأمل كبيرة، عندما تكلم مندوبو الدول العربية، ولا ذكر هناك لفلسطين، ولا لمندوبها! وتعزَّزت خيبة الأمل بالميثاق نفسه، الذي تنكَّر لنضال الشعب الفلسطيني، وتنصَّل من دور الدول العربية في هذا النضال.(٣)

غرقت الجامعة العربية، فيما بعد، بتفاصيل موضوع اشتراك فلسطين، وقد عيَّنت لجنة،مهمتها دراسة طبيعة اختيار؛ أو تعيين الوفد الفلسطيني؛ وعدد أعضائه، وصلاحياته، وقد ارتأت اللجنة أنه يحق للفلسطينيين أن يقوموا بترشيح مندوب عنهم، ثم تأتي عملية التعيين،والتصديق من حقوق مجلس الجامعة؛ أي بعبارة أخرى أن الترشيح الذي يتقدم به الفلسطينيون مُعرَّض للقبول؛ أو الرفض من قبل المجلس، وقد تقرر ألا يتعدى عدد الوفد الفلسطيني ثلاثة أعضاء!(٤)

بسبب استقالة العلمي، عادت، من جديد، مشكلة الاتفاق بين رؤساء الأحزاب الفلسطينية على خَلف له، ويفسر البعض جنوح مجلس الجامعة إلى إعطاء نفسه صلاحية البت، والتعيين، بأنه نتيجة لانعدام الاتفاق بين الفلسطينيين.(٥)

في ١٤ شباط/فبراير ١٩٤٥،عقد اجتماع اللجنة الفرعية، في دار وزارة الخارجية المصرية بالقاهرة،ووفدت على مصر وجوه جديدة، وأخرى قديمة، وافتتح الاجتماع وزير الخارجية المصري، آنذاك، محمود فهمي النقراشي باشا، بخطاب اختلف عن الخطب الافتتاحية، التي كان يلقيها النحاس باشا، أثناء مشاورات الوحدة العربية في الاسكندرية؛ وجاء في خطاب النقراشي، أنه:»يجب على الشعوب العربية ألا تطمع بأكثر من التعاون،وكفى!" وطال الجدل، والنقاش،بين الوزراء، حول تمثيل فلسطين، واقترح البعض حذف كل ما جاء من المحضر، بصدد هذا الموضوع، واقترح آخرون صياغات متعددة: «يحضر السيد موسى العلمي شخصيًا»؛ «يحضر السيد موسى العلمي مندوب فلسطين»؛ «يحضر السيد موسى العلمي، ممثل الأحزاب الفلسطينية»؛ وغيرها، ثم رسا الاتفاق، بأن يُدعى «السيد موسى العلمي»، بلا صفة ولا عنوان! وأعلن وزير خارجية لبنان، هنري فرعون، أن حضور العلمي سيكون استشاريًا! ولقد صدر هذا القرار، بعد أن أكَّدت بقية الوفود العربية لفرعون، بأن هذا الاستثناء قاصر على فلسطين، لما لها من أهمية خاصة، وأن هذا الاستثناء لا يطبَّق على الجزائر، ومراكش؛ وهكذا، تم الاطمئنان على المخاوف، والمصالح الفرنسية! فقد كان عدد غير قليل من ساسة العرب موزعي الصداقة، والولاء، ما بين بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، وانعكس ذلك على الاجتماعات العربية، في الغرف المقفلة، لسنين طويلة؛ أما القومية العربية، فكان يمثلها الشعب العربي نفسه، لا داخل هذه الاجتماعات، بل في الشارع.(٦)

"الهيئة العربية العليا"

قُبيل مؤتمر مجلس الجامعة العربية، في بلودان(حزيران/يونيو١٩٤٦)؛ لبحث قضية فلسطين، إثر صدور تقرير»اللجنة الأنغلو-أميركية"، دعا رؤساء الأحزاب الفلسطينية الخمسة إلى مؤتمر سياسي،في

القدس، حضره مندوبون من الأحزاب، من مناطق فلسطين،بالإضافة إلى مجموعات من العمال اليساريين؛ والزعماء؛ والحياديين؛والشباب المثقفين. وقررالمؤتمرون تأليف»الجبهة العربية العليا»، من رؤساء الأحزاب الخمسة، وبعض الشخصيات الأُخرى، كسليمان طوقان، من حزب «الدفاع»، وأحمد حلمي عبد الباقي، وسرعان ما أبرقت اللجنة التنفيذية للجبهة إلى أمانة الجامعة العربية، بشأن عدم موافقتها على أية قرارات قد تُتخذ في بلودان، إلا في حالة تمثيل «الجبهة»في جلسات مجلس الجامعة، واشتراكها في أبحاثه عن فلسطين. ولم يتجاهل مجلس الجامعة طلب «الجبهة»، فأبرق الأمين العام، عبد الرحمن عزام باشا، داعيًا أركان «الجبهة»؛ كما أبرق،يدعو أركان»اللجنة العربية العليا»*،وبعض العاملين في القضية، الموجودين في دمشق.(٧)

استمع أعضاء مؤتمر مجلس الجامعة، إلى الفريقيْن، وكان سخط المؤتمر على الانقسام واضحًا، وبينما كان الجدل والعتاب لا ينقطع، في الاجتماعات، وفي الكواليس، أعلن وزير الداخلية اللبنانية، آنذاك، صائب سلام، فجأة، مشروع تأليف « هيئة» فلسطينية من أربعة أشخاص، فقط، نصفها من»اللجنة"، ونصفها الآخر من»الجبهة". وبالرغم من غرابة المشروع،وغموضه، بالنسبة لأعمال هذه»الهيئة"، وارتباطاتها، فإن الخبر لاقى تأييدًا سريعًا من الوفود العربية، كلها؛ ما يدل على أن الوعي السياسي المنظَّم لدى الوفود العربية لم يكن أعلى منه لدى الشعب الفلسطيني. وقد مثَّل "الجبهة»أحمد حلمي عبد الباقي؛ والدكتور حسين فخري الخالدي، فيما مثَّل كل من جمال الحسيني؛ وإميل الغوري،»اللجنة". ورشح البعض أنطوان عطا الله،أو هنري كتن، عوضًا عن الغوري، باعتبار أن المقعد الرابع للمسيحيين، بينما يمثل الحسيني حزبه(العربي)، أو»اللجنة"؛ ويمثل الخالدي بقية الأحزاب،أو»الجبهة"؛ ويمثل عبد الباقي المستقلين؛ إلا أن الحسيني أصرَّ على إضافة الغوري، واتفق على أن يبقى مركز الرئاسة شاغرًا، حتى يعود الحاج أمين الحسيني من أوروبا؛ ومنذ عودة الأخير، وتسلُّمه رئاسة "الهيئة»،لم يثُر، من جديد، أي إشكال حول تمثيل فلسطين في الجامعة العربية، إلا أن ذلك لا يعني أن «الهيئة» كانت تُملي على الجامعة مطالبها؛ وحدث تجاهل، وتجاوز لمركزالحاج الحسيني، *

*تألفت "اللجنة العربية العليا"،في١٩٣٦/٤/٢٥،إثر اندلاع الإضراب السياسي العام في فلسطين،في سياق ثورة ١٩٣٦ الوطنية المعروفة. وضمت مندوبين عن الأحزاب العربية الفلسطينية، وترأسها رئيس المجلس الإسلامي الأعلى،الحاج أمين الحسيني.

بانعقاد مجلس الجامعة، دون توجيه الدعوة إليه؛ كما حصل في اجتماع عاليه الشهير؛ وكذلك رفض المجلس لمطالب المفتي الرئيسية، وأهمها إعلان حكومة فلسطينية؛ وأما الصدام المباشر، فقد كان يحصل، باستمرار،بين المفتي؛ وحكومتيْ الأردن، والعراق، وبأشكال علنية؛ ويفسر هذا الواقع صمت الحكومة البريطانية عن عودة المفتي إلى الرئاسة العلنية، فقد بات واضحًا عجز هذه

الرئاسة،في إطار الجامعة العربية، عن ممارسة زعامة فعلية، كالماضي.(٨)

قمة أنشاص

قررت قمة انشاص (٢٨-١٩٤٦/٥/٢٩)، فيما يخص فلسطين، على ضوء التقرير الذي قدمته لجنة التحقيق الأنغلو- أميركية: أن قضيتها قلب القضايا القومية؛ وأن خطر الصهيونية داهم للبلاد العربية، والإسلامية جميعًا؛ وحددت القمة الحد الأدنى المقبول لحماية عروبة فلسطين؛ متمثلاً في إيقاف الهجرة الصهيونية؛ ومنع تسرُّب الأراضي العربية، والعمل على تحقيق استقلال فلسطين؛ وتشكيل حكومة؛ كما قررت القمة مساعدة عرب فلسطين، بكل الوسائل الممكنة، والدفاع عن كيان فلسطين، في حال الاعتداء عليه(٩). واللافت أن هذا المؤتمر اتخذ مجموعة من القرارات السرية، ظن الناس بأنها بصدد القضية الفلسطينية، لكن سرعان ما اتضح أنها»لمكافحة الشيوعية في الأقطار العربية».

المخاض

في أواخر العام ١٩٥٩، تأسس»الاتحاد العام لطلبة فلسطين»، في القاهرة، بدعوة من الروابط الطلابية الفلسطينية، التي كانت منتشرة بين بيروت، ودمشق، والقاهرة، والاسكندرية. ومَثَل «الاتحاد» أول مؤسسة كيانية علنية للشعب الفلسطيني، فضلاً عن أنه كان أول المؤسسات الفلسطينية، التي قامت على حق الانتخاب المباشر. وقد حاز الاتحاد، لصفته هذه،على اعتراف الجامعة العربية، وهيئات رسمية أخرى، عبر تمثيله لطلاب فلسطين في عدة مؤسسات طلابية عالمية، وفي طليعتها»اتحاد الطلاب العالمي».(١٠)

اقتحمت القضية الفلسطينية الصراع المحتدم، بين بغداد والقاهرة*، منذ خريف ١٩٥٨، وغدت تلك القضية بندًا مهمًا فى ذلك الصراع.

*معروف أن عبد الناصر ألحَّ، منذ انتصار الثورة العراقية (١٩٥٨/٧/١٤)، على ضرورة دخول العراق في الجمهورية العربية المتحدة، في وحدة اندماجية فورية، لكن الرئيس العراقي، عبد الكريم قاسم، اقترح الدخول في اتحاد، مع المتحدة، وأيده حزبان عراقيان، هما «الشيوعي»، و «الوطني الديمقراطي»، وبعض « الاستقلال». فيما أيد عبد الناصر كل من «البعث»، و «القوميون العرب «، ومعظم «الاستقلال».

المفارقة هنا، أنه عندما وصل «البعث « إلى سدَّة الحكم (١٩٦٣/٢/٨)، لم يصل إلى أي وحدة مع مصر، بل عطلها،ومعه «البعث» في سوريا، بعد أن استأثر الأخير بالحكم هناك (١٩٦٣/٣/٨).

الأنكى، أنه حين أطاح الرمز الناصري العراقي المعروف، عبد السلام عارف،بالبعث في العراق، لم

يعمد عارف إلى الوحدة،أو الاتحاد مع مصر !

في آذار /مارس ١٩٥٩،وافق مجلس جامعة الدول العربية على إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني، بناءً على اقتراح من الحكومة العراقية.(١١)

في أيار/مايو ١٩٥٩، فشل اجتماع في القاهرة، برئاسة منير الريس، رئيس بلدية غزة،ورأس الاتحاد القومي في قطاع غزة،بهدف توحيد «الاتحاد القومي الفلسطيني» في مصر، وقطاع غزة، وسوريا. وجاء الفشل، أساسًا، بسبب استنكاف الحاج أمين الحسيني، ومقاطعته هذا الاجتماع،(١٢) وهو الذي يعتبر نفسه رأس الحركة الوطنية الفلسطينية، وليس رقم ١٢ في قادتها، كما وضعته الحكومة المصرية في الاجتماع الموما إليه.

في الشهر التالي، سارع الرئيس العراقي، عبد الكريم قاسم، إلى تشكيل «فوج التحرير» الفلسطيني، الذي ضم نحو ٣٠٠ جندي، و٥٠ ضابطًا،معظمهم من قطاع غزة.(١٣)

تعاملت كل دولة عربية مع القضية الفلسطينية، من خلال موقف الدول الأخرى من الرموز الفلسطينية، مثل الحاج أمين الحسيني، وموقف هذه الرموز من تلك الدول؛ فمثلاً أدى وجود الحسيني في القاهرة،إلى تردي العلاقات بين الرياض والحسيني، التي كانت في خصومة شديدة مع الحكم المصري. وفي وقت لاحق، بدأت بعض الدول العربية تلاحظ النشاط الذي يبديه الشباب الفلسطيني، لخلق كيان مستقل عن الدول العربية، ويبدو أن أكثر من جهة مصرية؛ وعربية، نصحت الرئيس المصري، آنذاك، جمال عبد الناصر، باحتواء طموح الشعب الفلسطيني بكيان سياسي مستقل، ما جعل مصر تبادر إلى الإسراع في العمل لإقامة كيان فلسطيني مرتبط بمصر، أو بجامعة الدول العربية، تشرف هي عليه، وعلى نشاطه. ولهذا، قدمت الخارجية المصرية توصية، إلى مجلس جامعة الدول العربية، في آذار/ مارس ١٩٥٩، من أجل العمل على إبراز الكيان الفلسطيني. ووافق المجلس، في دورته الحادية والثلاثين، على قرارات مهمة، تتعلق بالشعب الفلسطيني. إذ كانت المرة الأولى التي تبحث فيها الجامعة في»إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني، وإبراز كيانه، شعبًا موحدًا، يُسمع العالم صوته في المجال القومي، وعلى الصعيد الدولي، وبواسطة ممثلين يختارهم الشعب الفلسطيني». كما دعا قرار مجلس الجامعة لإنشاء جيش فلسطيني، في الدول العربية المضيفة، إلا أن هذا لم ينفذ، وأعادت مصر تقديم مذكرة لجامعة الدول العربية، مطلع ١٩٦٠، طلبت فيها بحث قضية»إبراز الشخصية الفلسطينية»، خلال اجتماع مجلس الجامعة، في شتورة(آب/ أغسطس ١٩٦٠)، وكانت هذه المحاولات للمجلس قد تكررت، منذ٢/٢٩، ٤/٩، ثم٨/٢٨ /١٩٦٠،في شتورة، حيث قرر المجلس»إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني، وإبراز كيانه، شعبًا موحدًا». غير أنه، بسبب معارضة الأردن؛ لم يُتخذ قرار

بهذا الخصوص، ما اضطر المؤتمرإلى رفع القضية إلى اللجنة السياسية للجامعة(وزراء الخارجية)، لتبت فيها. ونتيجة لعدم الاتفاق بين الدول العربية، لم يُتخذ أي قرار جديد، حتى العام١٩٦٣.(١٤)

في بيروت، انعقد المؤتمر القومي الرابع لحزب البعث، في آب/أغسطس ١٩٦٠، وقرر العمل على إنشاء الكيان الفلسطيني، عبر جبهة شعبية، مستقلة.(١٥) ومع وصول «البعث» إلى سدَّة الحكم، في كل من العراق، وسوريا، شباط / فبراير، وآذار /مارس ١٩٦٣، على التوالي، انعقد المؤتمر القومي السادس للحزب، في العام الموما إليه،وأصدر المؤتمر قرارًا، قضى باعتماد «عرب فلسطين أداة أولى في تحرير فلسطين، عبر جبهة تحرير فلسطين».(١٦)

أرادت مصر تشكيل تنظيم فلسطيني، يحل محل «الهيئة العربية العليا "،بسبب عدم وجود انسجام بين الحاج أمين الحسيني؛وعبد الناصر،الذي كان يعتقد بأن « الزعيم الفلسطيني الهرِم يرمز إلى ماض ولّى، إلى الأبد «. (١٧) كما أن الحسيني كان قد اقترح على عبد الناصر، خلال إقامته في القاهرة، الاعتراف «بالهيئة العربية»، التي يترأسها، كممثلة للفلسطينيين، و أن تنضم فلسطين إلى الاتحاد بين مصر، وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة)، غير أن الزعيم المصري، الذي لم يتشجع للفكرة، لاعتقاده أن « الهيئة العربية العليا « لا تمثل الشعب الفلسطيني، سعى من أجل إيجاد بديل لها، قادر على أن يستقطب الفلسطينيين (١٨). و من الجدير بالذكر،في هذا الصدد، أيضًا، أن العراق كان قدم مذكرة إلى اجتماع مجلس الجامعة العربية، في العام ١٩٦١، من أجل «إبراز الكيان الفلسطيني «،أكد فيها على ضرورة إطلاق حرية شعب فلسطين، بتنظيم نفسه في جبهة تحرير فلسطينية، وعدم زج قضية فلسطين في السياسات الإقليمية؛وتضمنت المذكرة النقاط البارزة التالية: (١٩)

يقسَّم الفلسطينيون، المقيمون في كل من قطاع غزة، والضفة الغربية، وسوريا،ولبنان، والعراق،وحيثما توفر عدد كاف منهم،إلى دوائر انتخابية،تنتخب كل منها ممثلاً عنها؛

يجتمع الممثلون الفلسطينيون، في مجلس وطني فلسطيني، وينتخبون حكومة فلسطين؛

تقيم حكومة فلسطين علاقات سياسية مع كافة الأقطار العربية، وتنسِّق العمل مع الحكومات العربية، من أجل تحرير فلسطين؛

توضع خطة عربية، لاستعادة فلسطين، تشارك فيها الحكومة الفلسطينية، وكافة الدول العربية،المهتمة بتحرير فلسطين؛

تتولى هذه الحكومة، وممثلوها خارج الوطن العربي، الدعوة لقضية فلسطين، وتمثيل شعبها،في المحافل الدولية، والمؤتمرات، والمناسبات؛

تقوم حكومة فلسطين بتأليف جيش التحرير الفلسطيني، الذي تتعهد الحكومات العربية بمسؤولية تدريبه،وتسليحه، ضمن خطة تعبوية موحَّدة، تستهدف استعادة فلسطين،وتحريرها؛

يكون مقر حكومة فلسطين في أي قطر عربي، تراه مناسبًا،وبموافقة حكومة ذلك القطر.

كانت القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي أصدرت مشروع الكيان الفلسطيني،ورأت أن الكيان الفلسطيني الحقيقي: (٢٠)

- يجب أن تتوفر فيه المقومات الأساسية لكل كيان؛وهي الأرض،، والسلطة، والشعب؛

- وأن الكيان ليس غاية بذاته، وإنما هو وسيلة، تقتضيها معركة تحرير الوطن السليب؛

- كما أن جيش فلسطين مستقل، يرتبط بالسلطة العليا للكيان، ويخضع لها، وله ممثلون في "القيادة العربية الموحدة"؛

- أما هيئات الكيان، فتتضمن: مجلساً وطنياً منتخباً، ولجنة تنفيذية عليا.

وبعد، فيبقى دور جامعة الدول العربية، في إحياء الكيان الفلسطيني، الذي تمثل في (منظمة التحرير الفلسطينية)، ما يتطلب دراسة أخرى.

الهوامش

(١) مذكرات الدكتور حسين فخري الخالدي: ومضى عهد المجاملات، المجلد الأول، رام الله، دار الشروق، ٢٠١٤، ص ٤٢٧-٤٣١.

(٢)للمزيد، انظر:

-المشروع الإنشائي العربي – اريحا:تاريخه وتطوراته ١٩٤٤-١٩٦٦،القدس،المطبعة التجارية،١٩٤٦،ص٢٣؛

-الوثيقة رقم (٤٦)،"كلمة مندوب فلسطين في اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي في الاسكندرية"،١٩٤٤،

_ أوردته: بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨،ط٣،بيروت،مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٦،ص٥٣٨.

(٣) للمزيد،انظر: المرجع نفسه، ص٥٣٨-٥٤٤.

(٤) أروى طاهر رضوان،اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، بيروت، دار النهار للنشر، ١٩٧٣،ص١٠٦.

(٥) للمزيد،عن الخلاف بين الأحزاب الفلسطينية،وقتها،انظر:

_ الحوت،مرجع سبق ذكره،ص٥٤١؛

_ نبيه العظمة،أوراق خاصة، محفوظة في مؤسسة الدراسات الفلسطينية،الملف رقم (١٨)، الوثيقة رقم (٥٥٢)،(٥٥٤)،(٥٥٥)؛

-عوني عبد الهادي،أوراق خاصة، إعداد خيرية قاسمية،بيروت،منظمة التحرير الفلسطينية،مركز الأبحاث،١٩٧٤،ص١٣٨-١٣٩؛

- رضوان،مرجع سبق ذكره،ص١٠٦؛

- الخالدي،مرجع سبق ذكره،ص ٤٣٢

(٦)للمزيد، انظر:

أحمد الشقيري،حوار و أسرار مع الملوك و الرؤساء،بيروت،دار العودة،١٩٧١،ص٩٧-١٠٠.

(٧) للمزيد،انظر:

-الخالدي،مرجع سبق ذكره،المجلد الثاني، ص ٦٠-٦١.

-عبد الهادي،مرجع سبق ذكره،ص١٤٢.

(٨)المزيد، انظر:

-المرجع نفسه،ص١٤٣؛

-الخالدي،مرجع سبق ذكره، المجلد الثاني،ص٧٠-٧٢

- محمدعزة دروزة،حول الحركة العربية الحديثة، صيدا،المكتبة العصرية،١٩٥١،الجزء الرابع،ص٥٨.

(٩)للمزيد، انظر:

مؤتمرات القمة العربية، قراراتها و بياناتها ١٩٤٦-١٩٩٠،القاهرة، جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، ١٩٩٦،ص٢٣-٢٤.

(١٠)للمزيد،انظر:

عيسى الشعيبي،الكيانية الفلسطينية، الوعي الذاتي والتطور المؤسساتي ١٩٤٧-١٩٧٧،بيروت،منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٧٩،ص٥٨-٦٣.

(١١)للمزيد، انظر:

- جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، إدارة شؤون فلسطين، قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين، منذ الدورة الأولى حتى الدورة الخمسين(يونيو/حزيران١٩٤٥-سبتمبر/أيلول ١٩٦٨)،القاهرة،١٩٧٠،ص٢٧.

(١٢)فيصل حوراني، الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث،١٩٨٠، ص ١٧-١٨.

(١٣) الشعيبي، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣.

(١٤)للمزيد، انظر:

- جامعة الدول العربية، الأمانة العامة، إدارة شؤون فلسطين، قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين،

منذ الدورة الأولى حتى الدورة الخمسين(يونيو/حزيران١٩٤٥-سبتمبر/أيلول ١٩٦٨)،القاهرة،١٩٧٠،ص٨-١٠؛

- د.أسعد عبد الرحمن (المشرف –رئيس التحرير)،منظمة التحرير الفلسطينية، جذورها، تأسيسها، مساراتها،بيروت، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٧،ص٦٦-٦٧؛

- الشعيبي، مرجع سبق ذكره،ص٨٨-٩٠.

(١٥) غازي حسين، الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٣-١٩٨٨، دمشق، دار دانية للطباعة والنشر، ١٩٩٣، ص ٥٠.

(١٦) حوراني، مرجع سبق ذكره، ص ١٩.

(١٧)صلاح خلف (أبو إياد)،فلسطيني بلا هوية،لقاءات مع الكاتب الفرنسي إريك رولو، الكويت، دار كاظمة، بلا تاريخ نشر، ص ٧٧.

(١٨)عصام سخنيني،"الكيان الفلسطيني، ١٩٦٤-١٩٧٤،شؤون فلسطينية (بيروت)،العدد ٤١-٤٢،كانون الثاني / شباط (يناير/ فبراير)١٩٧٥،ص ٧٧،نقلًا عن نشرة «الثأر»،١٩٥٥/٧/٨.

(١٩)للمزيد، عن المذكرة العراقية، انظر: الشعيبي، مرجع سبق ذكره،ص٨٠-٨٢، ٩٢-٩٣.

(٢٠)للمزيد: المرجع نفسه،ص٢٥٧-٢٦٤

مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية

د. نجلاء مكاوي

مرت العلاقات بين مصر و"منظمة التحرير الفلسطينية"، بمراحل عدة، منذ تأسيسها، وحتى توقيع اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣، ارتبط مسارها بتوجهات كل من القيادة المصرية وقيادة المنظمة، فما بين الدعم المصري والعلاقات القوية، إبان عهد الرئيس عبد الناصر، إلى الانتقال من التعاون والاستقرار للصدام، في عهد الرئيس السادات، الذي قاد تحولاً كبيرًا في السياسة الخارجية المصرية لجهة الصراع العربي ـ الصهيوني، ما جعل العلاقات تمر بتطورات دراماتيكية، ثم حكم الرئيس مبارك الذي شهد تحولاً في موقف المنظمة ذاتها، تلاقى مع موقف النظام المصري، صاحب أول اتفاق اعتراف وسلام عربي مع إسرائيل.

ما قبل التحول المصري: العلاقات حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣

كانت مصر، فترة حكم جمال عبد الناصر، الدولة الأكثر دعمًا وتأييدًا لمنظمة التحرير الفلسطينية، وذلك منذ تأسيسها، ما جعل أحمد الشقيري، مؤسس المنظمة، يعتبر أنه لولا مصر، والرئيس عبد الناصر، ما قامت المنظمة، فقد قدمت مصر كل ما يلزم من تسهيلات لقيام المنظمة، وكان من أبرز إسهامات مصر إقامة جيش التحرير الفلسطيني في قطاع غزة، وتخصيص إذاعة من القاهرة، مكنت الشقيري من مخاطبة العرب والفلسطينيين. فيما أصدر عبد الناصر قرارًا في العام ١٩٦٥ بحل الاتحاد القومي العربي الفلسطيني في غزة، وتسليم مهامه للمنظمة، كما تم إغلاق مكتب القاهرة للهيئة العربية العليا لفلسطين، بمجرد قيام المنظمة، حتى تضطلع بالقضايا التي ته م شعب فلسطين.

ظلت العلاقات بين مصر والمنظمة، ذات خصوصية، برغم تأثرها، سلبًا، بفعل بعض الخلافات، كان

* كاتبة وباحثة من مصر

أهمها «مبادرة روجرز»، التي قبلتها مصر، في يوليو ١٩٧٠، وتضمنت وقف حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية، تسعين يومًا، تجري خلالها وساطة الأمم المتحدة، والأطراف المعنية؛ للوصول إلى حل، على أساس قرار مجلس الأمن ٢٤٢؛ حيث قابلت المنظمات الفلسطينية قبول مصر المبادرة بالرفض والتنديد، واستُخدمت إذاعة الثورة الفلسطينية بالقاهرة في الهجوم على عبد الناصر وموقفه، ما جعل الأخير يغلق الإذاعة.

توفي عبد الناصر، في ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، وخلفه محمد أنور السادات، الذي اختلفت فترة حكمه، تمامًا، عن الحقبة الناصرية، لجهة الدور المصري في الصراع العربي ـ الصهيوني، لكن الفترة الأولى من حكم السادات لم تشهد ما يمكن اعتباره تغييرًا جوهريًا عن خط عبد الناصر، الذي قَبِل "مبادرة روجرز"، وجمَّد صراعاته مع النظم العربية المحافظة، ذات العلاقة الوثيقة مع الولايات المتحدة؛ لذا فإنه يمكن اعتبار الممارسات الساداتية، منذ وفاة عبد الناصر، وحتى حرب أكتوبر، امتدادًا لسياسات وخطط دبلوماسية وعسكرية وضعت أسسها في الفترة الناصرية؛ ومع ذلك، فثمة تفصيلات في تلك الممارسات، ذات دلالات مهمة؛ لانطوائها على مؤشرات لأسس مرحلة ما بعد أكتوبر، مثل موافقة السادات، دون تحفظ أو شروط، على مذكرة جونار يارنج (٨ فبراير ١٩٧١)، الخاصة بالتعهد بالدخول في اتفاقية سلام مع إسرائيل، تقوم على الأسس الواردة في المذكرة، وهو ما لم يكن واردًا من قبل. وأيضًا، طرح السادات مبادرته في ٤ فبراير من العام نفسه، الخاصة بفتح قناة السويس للملاحة البحرية، بعد قيام إسرائيل بانسحاب جزئي من القناة. وما تلا ذلك من تصريحات رسمية، أوحت باستعداد مصر للدخول في مفاوضات مباشرة مع إسرائيل(١).

على الجانب الفلسطيني، كانت قوات الثورة الفلسطينية قد تعرضت إلى ضربة قوية من النظام الأردني، في سبتمبر ١٩٧٠، وتلتها أخرى، في يوليو ١٩٧١، وخرجت منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن إلى لبنان، الذي كان أشبه بالرمال المتحركة، بسبب تركيبته السكانية المعقدة، والتربص الإسرائيلي بقوات الثورة(٢). واستقر في مدركات قيادة المنظمة أنها لا تستطيع الاعتماد على أي بلد عربي، لتضمن لنفسها ملاذًا آمنًا، وقاعدة لعملياتها ضد إسرائيل، وأنه لابد للفلسطينيين من إقامة دولتهم الخاصة، «ولو على بوصة من فلسطين»(٣)، كطريق للوصول إلى دولة ديمقراطية تعددية على كامل فلسطين.

ازداد انتشار وتقدم هذه الفكرة، بعد إعلان الملك حسين مشروعه الخاص بالمملكة العربية المتحدة، في ١٥ مارس ١٩٧٢، الهادف إلى إقامة مملكة على ضفتي نهر الأردن، على أن تكون عمان عاصمة قطر الأردن، والقدس عاصمة قطر فلسطين، ورئيس الدولة هو الملك حسين(٤)، وقد قوبل المشروع برفض حاسم من منظمة التحرير، واعتبرته مؤامرة، ومحاولة من الملك لفرض الوصاية على الشعب

الفلسطيني، الذي لا يمثله سوى المنظمة، ولا يحق لأحد أن ينطق باسمه، ويتلاعب بمصيره(٥).

دعَّم السادات موقف المنظمة، برفضه المشروع، وقطعه العلاقات الدبلوماسية مع الأردن، وبعدها دعا إلى إقامة حكومة فلسطينية في المنفى، وهي الفكرة التي كانت تناقش داخل المنظمة، ولم يُتخذ بشأنها موقف حاسم. واعتبر السادات أن تلك الدعوة هي الرد العملي على الأخطار المحدقة بالشعب الفلسطيني وكيانه، مؤكدًا لوفد المنظمة، في اجتماعه به، في القاهرة (٧ أكتوبر ١٩٧٢)، أن المنظمة هي الممثل الشرعي للشعب الفلسطيني، فاعتبرت المنظمة أن الرئيس المصري يتبنى مواقف داعمة للكيان الفلسطيني، قولاً وفعلاً، ولحق الشعب الفلسطيني في النضال(٦).

على ذلك، فإن العلاقات بين مصر والمنظمة، خلال تلك الفترة، كانت إيجابية ومستقرة، حتى اندلعت حرب أكتوبر، وبدأت اندفاعة السادات في طريق التسوية السلمية.

المنظمة وبدايات خروج مصر من دائرة المواجهة

برز نشاط مكثف باتجاه التسوية السياسية بين مصر وإسرائيل، بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣، ونجحت جهود هنري كيسنجر، وزير الخارجية الأميركي، المنطلقة من دبلوماسية «الخطوة خطوة»، بتوقيع مصر وإسرائيل اتفاق فض الاشتباك الأول، في ١٨ يناير ١٩٧٤، الذي لم تعلن منظمة التحرير موقفًا رسميًا منه، بل انتقدت ذلك التوجه الدبلوماسي الأميركي، وهو ما أغضب السادات من المنظمة، فوجه نقدًا حادًا لياسر عرفات، وصلاح خلف (أبو إياد)، بسبب البيان الذي نشرته اللجنة التنفيذية للمنظمة، بصدد ذلك التوجه(٧).

مع ظهور مؤشرات على جنوح النظام المصري للتسوية السلمية، بشكل ثنائي، كان ثمة تقدم لتيار سياسة المراحل، والتدرج فيها، داخل المنظمة، تكلل بوضع برنامج النقاط العشر، الذي تبناه المجلس الوطني الفلسطيني، المنعقد في القاهرة، يونيو ١٩٧٤، وتضمن إقامة دولة مستقلة «على كل جزء، أو أية أراض فلسطينية يتم تحريرها»، مع التأكيد على أن «الهدف الاستراتيجي لمنظمة التحرير، يظل بناء دولة ديمقراطية على كامل الوطن الفلسطيني»، وهو ما قوبل بالرفض الشديد من قِبل مجموعة فصائل فلسطينية، أعلنت، في يوليو ١٩٧٤، عن تشكيلها «جبهة القوى الرافضة للحلول الاستسلامية"(٨).

وبدفع ضرورة مواجهة ضغط النظام الأردني؛ من أجل إدخال الأردن في العملية الدبلوماسية؛ كوسيلة لاستبعاد منظمة التحرير، وهو ما دعمه كيسنجر(٩)، جاءت القمة العربية في الرباط (٢٦ ـ٢٧ أكتوبر ١٩٧٤)، لتتوج جهود ياسر عرفات الدبلوماسية، التي لقيت دعمًا من مصر، بالاعتراف بالمنظمة، "الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني»، وبحق الشعب الفلسطيني في إقامة

سلطة وطنية مستقلة تحت إدارة المنظمة. وتبع ذلك إلقاء ياسر عارفات خطابًا، في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بصفته رئيسا للمنظمة، في ١٣ نوفمبر ١٩٧٤، واعتراف الجمعية، في ٢٢ من الشهر نفسه، بحق الشعب الفلسطيني في السيادة والاستقلال الوطني، والعودة إلى دياره، وقبول منظمة التحرير بصفة مراقب(١٠).

لم تكن المنظمة، وبرغم قبولها بالتدرج والميل نحو الحلول، لتقبل بدخول مصر في تسوية منفردة، تضر بمصالح الشعب الفلسطيني، وعلى حسابه؛ لذا رفضت منظمة التحرير اتفاقية فض الاشتباك الثانية بين مصر وإسرائيل (٤ سبتمبر ١٩٧٥)، التي تضمنت تنازلات سياسية، أهمها تعهد مصر بعدم استخدام القوة، أو التهديد بها، أو الحصار العسكري، وقبول مصر مرور شحنات غير عسكرية إلى إسرائيل، عبر قناة السويس، في مقابل انسحاب إسرائيل بضعة كيلو مترات فقط. فيما جاء تعمير منطقة القناة، وفتح القناة للملاحة البحرية، بمثابة تأكيد عزم مصر الواضح على عدم اللجوء إلى القوة، مرة أخرى، في حال النزاع مع إسرائيل(١١).

كما ألحقت تلك الاتفاقية بمذكرة تفاهم سرية بين إسرائيل والولايات المتحدة، ألزمت الأخيرة بعدم الاعتراف بمنظمة التحرير، أو التفاوض معها، إلى أن تعترف بحق إسرائيل في الوجود، وتقبل قراري الأمم المتحدة (٢٤٢، ٣٣٨)(١٢).

قابلت منظمة التحرير الاتفاقية بالرفض، وأكدت، في بيان اللجنة التنفيذية، والمجلس المركزي للمنظمة، أنها لم تكن، على الإطلاق، مجرد خطوة عسكرية، في إطار ما يسمى بفصل القوات، بل هي، في حقيقتها، اتفاقية سياسية تُجمِّد حالة الحرب مع العدو الصهيوني على جبهة واحدة، وترفع عنه الحصار، العسكري والاقتصادي؛ لتفتح الطريق أمام التعامل معه، وتعمل على عزل مصر، عمليًا، عن دائرة الصراع العربي ـ الصهيوني. ودعت المنظمة جميع الحكومات والقوى الوطنية والجماهير العربية إلى شجب واستنكار الاتفاقية "المؤامرة"، بكل الوسائل، والتصدي لإدانتها، وإزالة كل نتائجها، وآثارها اللاوطنية(١٣).

على الرغم من ذلك، لم تنقطع علاقة المنظمة بالنظام المصري، إلى أن جاءت لحظة الصدام المباشر، مع إعلان السادات مبادرته، خريف العام ١٩٧٧.

كامب ديفيد ومعاهدة السلام

مع تسلم جيمي كارتر الرئاسة الأميركية، تجددت الآمال حول ترك سياسة المقاربة الجزئية لمشاكل الشرق الأوسط، التي استنفدها هنري كيسنجر، وبدا للرئيس الجديد أنه ينبغي التوصل إلى تسوية

شاملة للصراع العربي ـ الإسرائيلي، وهو ما يتطلب استئناف مؤتمر جنيف، إطارًا للمفاوضات. وفي ١٦ مارس ١٩٧٧، تحدث كارتر عن ضرورة إيجاد وطن للمهاجرين الفلسطينيين، الذين عانوا، منذ سنوات. فيما أكدت منظمة التحرير موقفها الجذري، برفض القرار ٢٤٢، في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني بالقاهرة (٢٠ مارس١٩٧٧)، وحقها في المشاركة، بشكل مستقل، ومتكافئ، في كل المؤتمرات، والمحافل والمساعي الدولية، المعنية بقضية فلسطين،.وذلك برغم انفتاح برنامجها السياسي الجديد(١٤).

جاءت الانتخابات الإسرائيلية، في مايو ١٩٧٧، باليمين الإسرائيلي، بقيادة مناحيم بيجن، وتصلبت حكومته بشأن التمثيل الفلسطيني في جنيف، ومصير الضفة الغربية. أما السادات، فكان يهتم، بالأساس، باستعادة سيناء، وتمت اتصالات، مباشرة وغير مباشر، بين الجانبين، المصري والإسرائيلي، ليدرك بيجن أن الانفتاح من قِبل مصر ممكن، وأنها مستعدة لإبرام اتفاق سلم، مقابل استعادة سيناء(١٥).

وفي مشهد مسرحي، في التاسع من نوفمبر، وجد ياسر عرفات نفسه، في قاعة مجلس الشعب المصري، في أجواء احتفالية، وهو عائد لتوه من ليبيا، إلى القاعة مباشرة، يستمع إلى حديث مثير للسادات، حتى جاءت الجملة الأكثر إدهاشًا، عندما أعلن السادات أنه مستعد للذهاب إلى إسرائيل(١٦).

وقبل أن يستوضح عرفات من الرئيس المصري، عما جاء في خطابه، كان الشك قُطع باليقين، فنشرت اللجنة المركزية لحركة "فتح"، بيانًا، استهدفت به دعوة السادات للعدول عن مشروعه، وأوضحت فيه خطورة مثل هكذا خطوة على الشعب الفلسطيني، وثورته المسلحة، ممثلة في منظمة التحرير(١٧). لكن السادات مضى فيما قرر، ووقف يخطب أمام الكنيست الإسرائيلي (٢٠ نوفمبر ١٩٧٧)، مطالبًا بالانسحاب من الأراضي العربية، وقيام الدولة الفلسطينية، لكنه لم يشر إلى "منظمة التحرير الفلسطينية"، التي أجمعت كل الدول العربية، بما فيها مصر، على أنها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني(١٨).

انقسمت اللجنة المركزية في "فتح" ـ العمود الفقري للمنظمة ـ إلى اتجاهين، أحدهما قدَّر أنه من الصعوبة القطيعة مع مصر، لأهمية دورها، وضرورة الاكتفاء بانتقاد مساعي السادات؛ أما الاتجاه الآخر، فكان الأكثر حدة في رفض ما فعله السادات، والأكثر غلبة، فانطلقت موجة من الهجوم على السادات. وأدانت منظمة التحرير، في بيان لمجلسها المركزي الزيارة، واعتبرتها «خيانة عظمى للقضية الفلسطينية والعربية، وإصرارًا على إخراج مصر من جبهة الصراع مع العدو». كما أثنت المنظمة على موقف الأنظمة العربية، التي رفضت الزيارة، وأعلنت التصدي لها(١٩).

في ٢ ديسمبر ١٩٧٧، تشكلت «جبهة الصمود والتصدي» من (ليبيا، سوريا، العراق، الجزائر، منظمة التحرير

الفلسطينية، وجمهورية اليمن الديمقراطية)، وبعد انسحاب العراق، أعلنت الدول الخمس تجميد علاقاتها الدبلوماسية مع مصر، وقبلها كانت المنظمة قد رفضت طلب السادات «اجتماع الخبراء» (مينا هاوس)، في القاهرة، ما قوبل بنقد شديد من القادة المصريين، وبهجوم من الإعلام المصري، على منظمة التحرير، وعلى الفلسطينيين جميعاً، بسبب ما اعتبروه تضييعاً لفرصة الحل، متجاهلين أن رئيس الوفد الإسرائيلي، إلياهو بن أليسار، أصر على إزالة العلم الفلسطيني عن طاولة، خُصصت صوريًا لوفد يمثل منظمة التحرير، الذي كان السادات يعلم أنه لن يأتي، والذي لو ذهب كان الوفد الإسرائيلي سيغادر القاهرة(٢٠).

تزايدت عزلة مصر، وتمسك السادات باستراتيجيته الدبلوماسية، وتواصلت المفاوضات، بين مصر والولايات المتحدة وإسرائيل؛ وبينما أعرب السادات عن استعداده للقيام بتنازلات في الملف الفلسطيني، كان متصلبًا حول مسألة سيناء. وفي ١٧ سبتمبر ١٩٧٨، تم التوقيع على اتفاقيتي كامب ديفيد، اللتين تضع إحداهما إطارًا لمعاهدة سلام بين مصر وإسرائيل، والإطار الآخر «للسلام في الشرق الأوسط».

تضمن الإطار الأخير ما تصور السادات أنه حل للقضية الفلسطينية، التي هي لب الصراع في الشرق الأوسط، وحتى لا يظهر السادات بمظهر الموقع على حل منفرد، لكن ذلك الإطار لم يمثل حلاً للقضية، فلم يتعامل مع الضفة الغربية وقطاع غزة، باعتبارهما أراضي محتلة عام ١٩٦٧، وتبنى بالكامل خطة بيجن للحكم الذاتي، التي اقترحها في ديسمبر ١٩٧٧، والتي تقوم على أساس التفرقة بين السكان والأرض. وترك الإطار موضوع السيادة على الأرض الفلسطينية معلقًا، لتحسمه المفاوضات، مع استبعاد منظمة التحرير من عملية التفاوض. وبذلك يكون نظام السادات نقض، رسميًا، التزامًا عربيًا، ربط نفسه به في قمة الرباط (١٩٧٤)، وهو اعتبار منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني(٢١).

أدانت الدول العربية "كامب ديفيد"، وفي نوفمبر ١٩٧٨، عُقد مؤتمر القمة العربي التاسع، في بغداد، وأعلن رفض اتفاقيتي كامب ديفيد، وكل ما يترتب عليهما، واتخاذ التدابير لنقل مقر الجامعة العربية من القاهرة، وتعليق عضوية مصر(٢٢). ومن جهتها، أدانت منظمة التحرير، بشدة، مشروع السادات للحكم الذاتي، واعتبرته مشروعًا تصفويًا، "يستهدف حق الشعب الفلسطيني، الثابت والراسخ، في الاستقلال الوطني الكامل، وفي العودة إلى وطنه، وبناء دولته المستقلة"(٢٣).

كثّفت منظمة التحرير خطواتها، بتوافق تام، باتجاه إدانة "كامب ديفيد"، سواء عبر التحرك السياسي للجنة التنفيذية للمنظمة، وللوفد الفلسطيني داخل مؤتمر قمة التصدي والصمود، أو من خلال ياسر عرفات، وتواصله مع رؤساء الدول العربية، والإسلامية، والأفريقية، ودول عدم الانحياز، والدول الاشتراكية(٢٤).

وبتوقيع معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية، في ٢٦ مارس ١٩٧٩، حُيِّدت مصر في الصراع العربي ـ الإسرائيلي، بل إن المعاهدة ألزمت مصر بنقض كل تعهداتها العربية السابقة، التي قد تؤدي بها إلى مواجهة مع إسرائيل. وفي مؤتمر وزراء الخارجية والاقتصاد والمال العرب، ببغداد (٢٧ ـ ٣١ مارس)، قدم الوفد الفلسطيني مشروعًا لمنظمة التحرير الفلسطينية، طالبت فيه بنقل مقر الجامعة العربية، فورًا، وطرد مصر من عضوية الجامعة، ومقاطعة النظام المصري، بمؤسساته، على كافة الصعد(٢٥).

وبالفعل، اتخذ مجلس الجامعة عدة قرارات، منها تعليق عضوية مصر في الجامعة العربية، ونقل مقرها إلى تونس، وسحب سفراء الدول العربية منها. وبينما طرد السادات من مصر مدير مكتب منظمة التحرير فيها (جمال عمر الصوراني)، ومعتمد "فتح" (ربحي عوض)، فضلاً عن خمسة كتاب، ورئيس اتحاد طلبة فلسطين (صخر بسيسو)، ناهيك عن عشرات الطلبة، فإن منظمة التحرير حرصت على بقاء بعثتها الدبلوماسية في القاهرة، بل إن ياسر عرفات أبقى أربع قنوات اتصال بالسادات(٢٦).

تقدمت مصر بعد ذلك في خطوات "التطبيع" مع إسرائيل، وفُتحت الاتصالات بأنواعها بينهما، وهو ما هاجمته منظمة التحرير، بحدة، في بيان لها (٢٧). واستمر التوتر بين القيادة المصرية والمنظمة، حتى رحيل الرئيس في أكتوبر ١٩٨١.

المنظمة وعودة العلاقات مع مصر

مع تولي حسني مبارك حكم مصر، خلفًا للسادات، بقي موقف المنظمة، المعارض للحكم الذاتي الفلسطيني لمناطق الضفة وقطاع غزة، الذي اتفق عليه السادات مع بيجن في معاهدة السلام، في حين حرص المتنفذون فيها على بقاء القنوات مفتوحة مع النظام المصري، لكن التطورات المرتبطة باستعار الحرب الأهلية في لبنان، وتهديد وجود المنظمة فيه، كانت سببًا في تقارب بين مصر والمنظمة، بدأ بتحذير مبارك المنظمة في يونيو ١٩٨٢ من اجتياح إسرائيل بيروت، واجتثاث الفلسطينيين منها. وبدت عدة مؤشرات على التمهيد لتقارب قيادة المنظمة مع مصر، منها إشادة عرفات بمواقف الرئيس المصري الإيجابية تجاه منظمة التحرير، خلال حصار بيروت.

فعَّل عرفات هذا التقارب بموافقته على البيان الفرنسي ـ المصري المشترك، في ٢ يوليو ١٩٨٢م، الذي دعا الفلسطينيين والإسرائيليين إلى الاعتراف المتبادل، وإجراء مفاوضات تشارك فيها منظمة التحرير، على قاعدة القرار رقم ٢٤٢. فيما لاقت إعادة العلاقات مع مصر رفضًا فلسطينيًا، رد عليه عرفات في المجلس المركزي لمنظمة التحرير، في نوفمبر عام ١٩٨٢، بأن الهدف من اتصالاته مع النظام المصري، هو إخراج مصر من "كامب ديفيد"، بينما أكدت الغالبية الساحقة من أعضاء

المجلس أن نهج نظام مبارك استمرار لنهج السادات، وبأنه يزداد تمسكاً بكامب ديفيد، ويطالب منظمة التحرير والعرب الاعتراف بإسرائيل، والانضمام إلى "كامب ديفيد"(٢٨).

بعد خروج المنظمة من بيروت، وانتقالها إلى تونس، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ المنظمة، سمتها الرئيسية التحول باتجاه السياسة والتسوية والعمل الدبلوماسي، والتغير في علاقاتها العربية والأجنبية. فبعد الاتفاق على خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان، إلى عدد من الدول العربية، أطلق الرئيس الأميركي، رونالد ريجان، "مبادرة سلام أميركية لشعوب الشرق الأوسط"، في ٢ سبتمبر ١٩٨٢، راسمًا إطاراً عاماً لحل قضية فلسطين والشرق الأوسط، ذلك الإطار هو اتفاقيات "كامب ديفيد"، التي اعتبرها "السبيل الوحيد لحل النزاع العربي الإسرائيلي"، وتضمنت توجهًا يدعو الفلسطينيين إلى التوقف عن النضال المسلح والتوجه إلى العمل السياسي فحسب، ودعت إلى تحقيق الحكم الذاتي للفلسطينيين، بالارتباط مع الأردن، في تكريس لمبدأ الحكم الذاتي للسكان من دون الأرض، ودعمت مصر هذا التوجه، فيما أرسلت ثماني سفن مصرية محملة بالمعدات العسكرية إلى ميناء طرابلس لدعم عرفات. وفور خروج عرفات من طرابلس اللبنانية، توجه إلى مصر، والتقى الرئيس مبارك، في إشارة واضحة على توجه منظمة التحرير، واعترف الأخير بعرفات «زعيمًا معتدلاً يناضل من أجل الحصول على حقوق الشعب الفلسطيني"(٢٩).

قوبل ذلك باستنكار فلسطيني، حتى داخل فتح ذاتها، التي لم تكن لجنتها المركزية على علم بتلك الزيارة المفاجئة، لكن عرفات، الذي رأى حينها أنه لا يمكنه الاتكال على سوريا، استطاع السيطرة على المنظمة، ونقلها إلى المعسكر العربي «المعتدل»، بحصوله على قرار المجلس الوطني الفلسطيني، في نوفمبر ١٩٨٤، بالإبقاء على العلاقات مع مصر الشقيقة، فاتجه إلى إقامة حلف مع الدول العربية «المعتدلة» يضم مصر، والأردن (كانت قد أعادت علاقاتها الدبلوماسية مع مصر في ٢٥ سبتمبر ١٩٨٤) ومنظمة التحرير، والسعودية، وهو ما طوَّق سوريا(٣٠).

استمرت علاقة مصر بالمنظمة على خط التحالف، وشكلت الأولى الداعم السياسي القوي للثانية. ومع عودة مصر إلى جامعة الدول العربية، وتغير الموقف العربي، وموقف المنظمة، وتبدّل المفاهيم والمواقف الخاصة بالصراع مع العدو، من عدم الاعتراف، والتفاوض، والصلح، والنضال المسلح، إلى التفاوض والاعتراف، أخذت مصر، المرتبطة مع إسرائيل بمعاهدة سلام، تضطلع بدور كبير في عملية التسوية التفاوضية بين إسرائيل والمنظمة، فقررت مصر، فور عودتها إلى الجامعة، المشاركة في المؤتمر الدولي للسلام، الذي انعقد في مدريد ١٩٩١، والذي مهّد بدوره لاتفاق أوسلو، الذي كان لمصر فيه دور كبير، حيث تدخلت بين الطرفين لتقريب وجهات النظر، وتخطي الخلافات (حسب ما ذكره الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي)، وكانت طرفًا فاعلاً، وقناة اتصال سرية في المفاوضات،

عبر وزير خارجيتها، عمرو موسى، وأسامة الباز، مدير مكتب الرئيس المصري (٣١)، الذي اعتبر أن الاتفاق تأكيد، للجميع، على صواب موقف سلفه (السادات)، والحل السلمي .

دعمت مصر قيادة المنظمة بإعلان تأييدها للاتفاق، والترويج له، بينما لاقى اعتراضًا فلسطينيًا (الفصائل الفلسطينية العشر)، التي اعتبرته خيارًا عرفاتيًا استسلاميًا، وعربيًا من قِبل سوريا، التي اعتبرت المنظمة، بعقدها هذا الاتفاق، خرجت عن الصف العربي، لكن المنظمة به قد اصطفت، عربيًا، مع الدولة العربية الأكبر، التي سبقت جميع أشقائها في الجنوح إلى الصلح والتفاوض والاعتراف.

الهوامش

(١) حسن نافعة، مصر والصراع العربي ـ الإسرائيلي، من الصراع المحتوم إلى التسوية المستحيلة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ص ٤٨.

(٢) ناصر حجازي، المنظمة ومشاريع التسوية، في: عبد القادر ياسين (تحرير)، أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية، دمشق، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات، ٢٠٠٦، ص ٢٤٦.

(٣) صلاح خلف «أبو إياد»، فلسطيني بلا هوية، تحرير فؤاد أبو حجلة، عمان، دار الجليل، ١٩٩٦، ص١٣٦.

(٤) عبد العزيز أمين موسى عرار، حزب البعث العربي الاشتراكي في فلسطين ودوره في الحركة الوطنية الفلسطينية١٩٤٨ ـ ١٩٨٢، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، قسم التاريخ، نابلس، ٢٠٠١، ص ٢٦٢ ـ٢٦٣.

(٥) بيان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية حول رفضها مشروع المملكة العربية المتحدة

١٦/ ١٩٧٢/٣، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٢، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد ٨، ١٩٧٥، ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

(٦) بيان حول اجتماع الرئيس أنور السادات مع وفد يمثل منظمة التحرير الفلسطينية، القاهرة، ٧ أكتوبر ١٩٧٢، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٢، المرجع نفسه، ص ٤٣١.

(٧) خلف، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٠ ـ ١٥١.

(٨) عرار، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٦.

(٩) وليام.ب.كوانت، عملية السلام الدبلوماسية الأميركية والنزاع العربي الإسرائيلي منذ ١٩٦٧، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩، ص ٢١٨.

(١٠) هنري لورانس، اللعبة الكبرى، المشرق العربي والأطماع الدولية، ترجمة عبد الحكيم الأربد، مصراتة، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٩٨، ص ٣٩٠ ـ٣٩١.

(١١) نافعة، مرجع سبق ذكره، ص٥٥.

(١٢) كوانت، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(١٣) بيان اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية حول اتفاقية سيناء ١٠/ ٩/ ١٩٧٥، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٥، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد ١١، ١٩٧٧، ص ٤١١.

(١٤) لورانس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

(١٥) كوانت، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٢؛ لورانس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٥.

(١٦) خلف، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٨.

(١٧) بيان اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» حول زيارة الرئيس أنور السادات المزمعة لإسرائيل، ١٩٧٧/١١/١٧، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٧، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد ١٣، ١٩٧٨، ص ٤٣٩.

(١٨) نافعة، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦؛ لورانس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢٦.

(١٩) بيان المجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية حول زيارة الرئيس أنور السادات، رئيس جمهورية مصر العربية، لإسرائيل، دمشق، ١/ ١٢/ ١٩٧٧، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٧، مرجع سبق ذكره، ص ٥٢١ ـ٥٢٣.

(٢٠) عدلي صادق، تعقيباً على عمر كيلاني.. أيُّ فرص للحل ضيّعها الفلسطينيون؟ العربي الجديد (لندن)، ٢٠١٤/٨/٣٠:

e٣f٣٣ea٣٣c٥٢-٤٨cf-a٨٥٨-٦e٢d-٩e٥b٥dc٤/http://www.alaraby.co.uk/opinion

(٢١) نافعة، مرجع سبق ذكره، ص ٧٨ ـ٧٩.

(٢٢) لورانس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣٢.

(٢٣) بيان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية حول اتفاق كامب ديفيد، بيروت، ١٨/ ٩/ ١٩٧٨، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٨، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد ١٤، ١٩٨٠، ص ٤٢٢.

(٢٤) بيان اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» حول موقفها من اتفاق كَامِب ديفيد والتطورات الراهنة، بيروت، ٤/ ١٠/ ١٩٧٨، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٨، المرجع نفسه، ص ٥٢٨ ـ ٥٣٠.

(٢٥) ورقة العمل المقدمة من الوفد الفلسطيني إلى مؤتمر وزراء الخارجية والاقتصاد والمال العرب بغداد، ٢٧/ ٣/ ١٩٧٩، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٧٩، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد ١٥، ١٩٨١، ص ١٤٦ـ١٤٧.

(٢٦) مقابلة مع عبد القادر ياسين، في منزله بالقاهرة، ٢٩ سبتمبر ٢٠١٤؛ بطرس بطرس غالي، السياسة الخارجية المصرية: في مرحلة ما بعد السادات، السياسة الدولية (القاهرة)، يوليو ١٩٨٢:

١٦٣٨=eid&٢١٥٢٨٠=http://digital.ahram.org.eg/articles.aspx?Serial

(٢٧) بيان اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية حول تطبيع العلاقات المصرية – الإسرائيلية بيروت، ٢١/ ١/ ١٩٨٠، الوثائق الفلسطينية العربية لعام ١٩٨٠، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد ١٦، ١٩٨١، ص ٣١.

(٢٨) غازي حسين، الوضع الفلسطيني بعد الخروج من بيروت: html.٣٤٨٠/http://www.alwasattoday.com/ar/news

(٢٩) بلال الحسن، تداعيات سلام مصر مع إسرائيل على القضية الفلسطينية، الجزيرة نت، ٢٠٠٩/٣/٢٤: www.aljazeera.net

(٣٠) لورانس، مرجع سبق ذكره، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦.

(٣١) عواطف عبد الرحمن، مصر وفلسطين، رؤية تاريخية ومعاصرة ١٩١٧ ـ ٢٠٠٩، القاهرة، المكتبة الأكاديمية، ٢٠١١، ص ٤١١ ـ ٤١٤.

أوراق الذاكرة

الاتحاد العام لطلبة فلسطين ...ألمانيا فرع أوروبا الأول

أ.حسام أبو النصر*

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥ قسمت ألمانيا إلى قسمين الأولى شرقية تابعة للكتلة الاشتراكية، والثانية غربية تابعة للسيطرة الأميركية، وفي الخمسينات بدأت المعجزة الاقتصادية بفضل الثورة الصناعية، وما كان لها ان تتحقق إلا من خلال استقطاب قوة بشرية بديلة بعد ما خسرته في الحرب العالمية، وهو ما جعلها تستجلب ٢٠ ألفاً من العمال الفلسطينيين بالإضافة إلى الطلاب الذين قدموا ليكملوا دراستهم في الجامعات الألمانية وبحيث استطاع جزء منهم المزاوجة بين التعليم والعمل هناك.

وقد بدأت المرحلة الأولى في تكوين أنوية الجالية الفلسطينية في اوروبا من خلال توافد أعداد من الطلبة من أجل الدراسة في ألمانيا كما باقي الدول مثل بريطانيا، فرنسا، وايطاليا، وإسبانيا، اليونان، وغيرها حيث شكل الطلبة المرحلة الأولى لهذا الوجود الذي بدأ بالتزايد عاماً بعد عام وهو ما يفسر ارتفاع نسبة المتعلمين من ابناء الجالية في هذه الدول، لتكون بدايات الوجود الفلسطيني في ألمانيا في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، حيث حضر مئات الطلبة للدراسة واستقر العديد منهم هناك بعد أن تخرج وتزوج وأقام أسرته، وبعدها حضر إلى ألمانيا العديد من الاشخاص بحثاً عن فرص للعمل، وقد عمل العديد منهم في المصانع، وتكوّن الوجود الفلسطيني في ألمانيا من ٣ فئات هي:الدارسون والخريجون من الجامعات، الثانية رجال الأعمال والمستثمرون والتجار، والثالثة ممن يعيشون على اللجوء والمساعدات التي تقدمها الدولة، ويوجد في ألمانيا أعداد كبيرة من الأطباء والمهندسين.

---

* باحث ومؤرخ فلسطيني

*مرحلة البدايات والتأسيس ١٩٥٩- ١٩٦٧

شكلت جمهورية ألمانية الاتحادية بنظامها التعليمي والاجتماعي المتميز عن سائر الأقطار الأروربية نهاية خمسينات القرن الماضي وبداية الستينات، مركزاً أو ملاذاً لأبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة الفلسطينية الذين توجهوا إلى ألمانيا ابتداء من نهاية خمسينات القرن الماضي، بسبب مجانية التعليم لكافة مراحله، وتوفر فرص العمل أمام طلبتنا مما ساعدهم في تغطية نفقات معيشتهم وتميزت هذه المرحلة بتأسيس كونفدرالية الاتحاد العام لطلبة فلسطين في المانيا الاتحادية والنمسا، وامتد وجود هذه الكونفدرالية ليشمل العديد من الجامعات والمدن الألمانية والنمساوية ذات الثقل الطلابي الفلسطيني.

وهنا برز دور ثلاثة طلبة فلسطينيين وافدين وهم هاني الحسن، وهايل عبد الحميد، وحمدان عاشور، الذين تمكنوا من تأطير طلبة فلسطين في العديد من فروع الاتحاد، وتبنت هذه المجموعة نهج الكفاح المسلح بين أوساط الطلبة، وخاضت صراعاً مريراً هي وقيادة الاتحاد العام لطلبة فلسطين في القاهرة لتثبيته وتبنيه، وخاصة أن أعضاء من القوميين العرب، والبعثيين والناصريين قد حضروا بشكل بارز في قيادة الاتحاد وفروعه واطره في فترة ما قبل حرب حزيران ١٩٦٧م.

تأسيس طلائع العائدين:

في تلك الفترة كان هاني الحسن مسكوناً بالتجربة وحب المخاطرة، فذهب إلى المانيا وتكفل شقيقاه خالد وعلي الإنفاق عليه، في المرحلة الأولى من دراسته في (دارمشتات)، حيث اختار في عام ١٩٥٧ التوجه إلى ألمانيا الغربية لدراسة الهندسة وكان متأثراً بنشأته الدينية إلى جانب عمله لصالح القضية الفلسطينية لذلك قضى جزءاً من وقته في نشر الفكر الإسلامي وقيمه في أوساط الطلبة وكان المدخل الأفضل لكسب الطلبة الجدد هو استقبالهم وتقديم مساعدات لهم ليجدوا السكن الملائم والتأقلم السريع، وفي تلك الأثناء من عام ١٩٦١م، التقى الحسن بشاب كان قدة عرفه في سوريا وهو (هايل عبد الحميد) حيث وجد عملاً في المصنع الذي يعمل فيه عبد الحميد، فإكتشفا أنهما متوحدان في الانتماء وقريبان جدا في الرؤى، فقررا توحيد عملهما حتى يكون له تأثير في أوساط الطلاب والعمال الفلسطينيين، عبر دمج المجموعتين (عرب فلسطين) التي أسسها هايل في سوريا و(شباب الأقصى) التي كان يقودها الحسن، ليتشكل تنظيم جديد في ألمانيا يحمل اسم (طلائع العائدين) كان عدد الطلبة فيه ٣٥٠٠ طالب إلى جانب ٢٠ الف عامل، وبدأ العمل في منطقة أواسط ألمانيا الغربية دون كلل أو ملل، متأثرين بالثورة الجزائرية، حيث اعتمدا فكرة تنظيم النخبة،

مطلق السرية، والمسيطرعلى النقابات العمالية والطلابية، الذي مثل المشتل المثالي لانتقاء أعضاء الخلايا التنظيمية والعسكرية، وكان التجسيد العملي لهذا التنظيم هو العمل على تأسيس فرع للاتحاد العام لطلبة فلسطين في (دارمشتات وفرانكفورت)، وبذلك بدأ العمل على إرساء قواعد منظمة طلائع العائدين التي كانت مجموعة متجانسة غير مدعومة مالياً، وثانيا غنية بالحماس. وتصادف وصول دفعة جديدة من الطلاب ضمت شباباً خلقوا للنضال والمجابهة من غزة والضفة، وأعطى ذلك زخماً لمخطط المنظمة السرية ومنهم عبد الله الافرنجي، ويذكر أن عدد فروع الاتحاد العام لطلبة فلسطين قد بلغ ١٣ فرعاً منهم وحدة ألمانيا عام ١٩٥٩ معترفاً به من دولتها، وأصدرت مجلة العودة النصف شهرية عن مركز فدرالية ألمانيا لاتحاد الطلبة الفلسطينيين.

بعد تأسيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين في المدينة التي كانا فيها هايل وهاني عمم الاثنان الفكرة الكنفدرالية في أوساط طلاب فلسطين لأن المسافات بعيدة بين الطلاب الفلسطينيين في ألمانيا وامتدت علاقاتهما إلى النمسا حيث تعرفا هناك على الناشط السياسي (حمدان عاشور) وشكل الثلاثة ركائز حقيقية للعمل بين الطلاب والعمال الفلسطينيين ويقال أن عاشور له الفضل الأول في تأسيس العمل الطلابي هناك.

وبعد ان اشتد عود التنظيم الفتي (طلائع العائدين) الذي استقطب العديد من الطاقات الشبابية من طلاب وعمال بدأ التواصل بين فتح والطلائع عن طريق عبد الله الافرنجي، الذي انضم له حمدان عاشور موفداً من (أبو جهاد) لإقناع هايل وهاني بالانضمام لحركة فتح، فنجحت الجهود وأصبحا مسؤولي الحركة في اوروبا.

وبطبيعة الحال شهدت ساحة ألمانيا تناقضات بين تيارات فكرية مختلفة إذ كان البعثيون هم المسيطرون على اتحاد الطلاب العرب، لم يعطوا إهتماماً لخصوصية القضية الفلسطينية بذرائع شعارات قومية، لذلك قرر هايل وهاني أن يكون من حلقات الوصل مروان عبد الحميد بينهم وبين البعثين، الذي كان مكلفاً بتشكيل فرع الاتحاد في يوغسلافيا مع زملائه حيث كان منتمياً لحزب البعث هناك في اطار اتحاد الطلاب العرب، ومن الأسماء التي كانت على رأس تأسيس فرع يوغسلافية رجب فارس، ابراهيم اسد، مروان عبد الحميد، محمد عبد الحميد أبو النصر وابراهيم العبد، ولاحقا ابراهيم خريشة، محمد النبهان، حسن عياد من أوائل السبعينات .

وقد أسفر التنسيق الوطيد بين هايل وهاني ومجموعتيهما عن اتفاق على أنه بعد السيطرة على الاتحاد العام لطلبة فلسطين في ألمانيا يتولى هاني رئاسة الاتحاد بينما يتولى هايل مسؤولية التنظيم وقد ساد جو من الثقة والانضباط وعندما تم انتخاب هاني مرة أخرى في انتخابات لاحقة لاتحاد

الطلاب كان قرار هايل بوصفه مسؤولاً للتنظيم أن يكون هاني عضواً في الهيئة الإدارية لا رئيساً، وكانت الفكرة لدى هايل هي ألا يبقى الكادر رئيساً، وبالفعل التزم هاني بالقرار رغم أنه كان محتداًفي البداية.

وبإنتشار الفكرة وتعززها على نطاق واسع وبهمّة هاني وهايل، ومن شاركهما الاندفاع في تنفيذ الفكرة، وبالهمّة المشهودة لفريق متجانس، نجح تنظيم «طلائع العائدين» في بناء البناء، دون أن يعادي أياً من الذين شكلوا فروعاً للأحزاب العربية الكثيرة. ولقي التنظيم الفلسطيني الناشئ تفهماً ومساعدة من الأعضاء الفلسطينيين وغيرهم من الأحزاب العربية، وكان هؤلاء قد بدأوا من جانبهم المطالبة بتمكين الأعضاء الفلسطينيين من عمل شيء يجعلهم متخصصين في العمل لقضية وطنهم الفلسطيني. وجاءت المساندة بشكل خاص من أعضاء فلسطينيين في حزب البعث وحركة القوميين العرب، وتضافر الجميع في الدفع باتجاه ما اشتهر آنذاك بإسم إبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية وتولي الفلسطينيين زمام المبادرة في الكفاح لتحرير وطنهم وعودة اللاجئين إليه، وثابر هاني وهايل ومعهم آخرون ممن سيبرز دورهم مستقبلاً في تأسيس حركة «فتح» في توسيع التأييد للنهج الذي بدأوه.

وفي المحصلة، صار لتنظيم «طلائع العائدين» شأن ملموس ومحترم في الساحة الألمانية، وبلغ صيته ساحات أخرى، ومن الفلسطينيين الذين أسهموا في هذا العمل تختزن الذاكرة اسماء كثيرين، منهم حمدان عاشور، أمين الهندي، ونبيل نصار، وعبدالله الافرنجي الذي كان له دور بارز في تحقيق الصلة بين «طلائع العائدين» في ألمانيا وبين خليل الوزير الذي كان آنذاك في غزة منهمكاً في الجهد الواسع لتأسيس حركة «فتح».

وقد كانت لعبدالله الافرنجي في غزة قبل مجيئه إلى ألمانيا صلة بأبي جهاد، وهو الذي أبلغه ما يلزم عن وجود طلائع العائدين وعمله في المانيا،حيث طلب أبو جهاد من الافرنجي أن ينظم له لقاء يجمعه بهايل وهاني.

في العام ١٩٦٢ اجتمع (أمين الهندي) مع عبدالله الإفرنجي على انفراد وكان لقاءً مهماً، إذ أخبره بوصول رسالة من(أبو جهاد) لإنشاء فرع لحركة فتح في ألمانيا وشرح له مبادىء وأفكار حركة فتح طالباً ضم عناصر وطنية جديدة للتنظيم، وهو ما دفع الهندي للتعبير عن فرحته العارمة بأفكارها ومبادئها التي كان يؤمن بها من أعماقه، وأنه باتت ممكنة التحقيق من خلال تنظيم حركة فتح وقد حدث ما كان يتمناه وبدأ العمل من خلال جمع الطلبة الفلسطينيين المقيمين في ألمانيا وربطهم برابطة الاتحاد العام لطلبة فلسطين، فكان العمل من أجل التوسع في حركة فتح

ونشر مبادئها وأفكارها، واستقطاب أكبر عدد من العناصر الوطنية المخلصة لها وذلك جنباً إلى جنب مع تغلغل الاتحاد في منظمات الطلبة العالمية، لكي يكتسب العمل بعداً دولياً يساعد على شرح القضية الفلسطينية.

أثر أحداث ستينات القرن الماضي:

في السنوات الأولى من ستينات القرن في ذلك الوقت، كان معظم الفلسطينيين الذين وفدوا إلى المانيا، قد تأثروا بالأحداث التي شهدتها بلدان العالم العربي التي جاءوا منها. وقد تأثروا خصوصاً، بحدثين كبيرين: حدث سلبي هو فك وحدة سوريا ومصر في العام ١٩٦١م، وهو الحدث الذي زعزع التعويل الفلسطيني الواسع على الوحدة العربية لتحرير فلسطين، حيث كان الانفصال بعد ثلاث سنوات من الوحدة بين الدولتين مثار خلاف بين الطلبة العرب والشغل الشاغل لهم ومن هنا طرح الأخوان هايل عبد الحميد وهاني الحسن، باعتبارهما من الطلبة الفلسطينيين الذين سبقوا في الدراسة والحضور إلى ألمانيا ومن بعدهم الإفرنجي، أن يتم تحييد الخلافات بين الطلبة العرب وذلك بالاتفاق على دعم فلسطين والفلسطينيين، هكذا استطاعوا تحييد الفلسطينيين سواء كانوا طلاباً أو عمالاً بعيداً عن الخلافات.

أما الحدث الثاني الإيجابي، فتمثل في نجاح الثورة الجزائرية في تحرير الجزائر من الاستيطان الفرنسي الاستيطاني في العام ١٩٦٢، وهو الحدث الذي منح الزخم للدعوة الفلسطينية لاعتماد الفلسطينيين على أنفسهم والاقتداء بجبهة التحرير الجزائرية ودفعها إلى الأمام.

وقد شهدت أواسط الستينات بدايات التحرك الوطني الفلسطيني العلني حيث قام المناضل أحمد الشقيري بإيعاز من الرئيس جمال عبد الناصر بتأسيس منظمة التحرير الفلسطينية في العام ١٩٦٤، ما فتح المجال لتحركات سياسية فلسطينية واسعة النطاق، وقد عكس ذلك نفسه على القطاع الشبابي والطلابي وخصوصاً على صعيد الإتحاد العام لطلبة فلسطين الذي اتخذ القاهرة مقرا له وكانت رياح الثورة الفلسطينية قد وصلت إلى ألمانيا الغربية لتنتشر بين الطلبة الدارسين هناك.

*الستينات بين الاتحاد وفتح:

إن الألمانيين وقتها لم يكونوا يعرفون فلسطين، لذلك كان لابد للفلسطينيين من اختراق المجتمع الألماني، لتوضيح الحقيقة، وفي تلك الفترة وصل أمين الهندي بعد الثانوية العامة، إلى ألمانيا الغربية أواخر عام ١٩٦١م، حيث اكتشف أن الصراع ليس مجرد صراع مقاومة ضد الاحتلال في الداخل،

بل هناك صراع آخر لا يقل شراسة في الخارج يتعلق بتحقيق ضرورة إثبات الهوية والحقوق الفلسطينية، بعد الوصول إلى ألمانيا، درس اللغة الألمانية، حيث انتظم بعدها بالتعليم الجامعي عام ١٩٦٢م، وفي هذا العام التحق به صديقه الإفرنجي الذي قدم من غزة إلى ألمانيا، لدراسة الطب،ولتجاوز العقبة اللغوية كان على عبد الله أن يتعلم الالمانية في معهد غوتة ومن ثم الإنتقال للدراسة في جامعة فرانكفورت، وكان يوجد في المدينة نادٍ للأجانب وهو وسيلة للترويح عن النفس واللقاء بين الطلبة الأجانب جعلتهم يلتقون.

كان الافرنجي قد عايش بدايات حركة فتح ونشأتها منذ عام ١٩٦٠، وانتمى لها (قبل خمس سنوات من إعلانها) حيث أصبح من أوائل المنخرطين في صفوفها، وكان ينقل رسالة فتح إلى الرفاق الأكبر سناً من الذين تقدموا عليه وعياً وخبرة وخصوصاً إلى هايل عبد الحميد وهاني الحسن وهو الذي عرفهم بدوره على أبو جهاد فعملوا معاً لتوسيع دائرة التنظيم الفتحاوي بين صفوف الطلبة الفلسطينيين المتواجدين على الساحة الالمانية كما توسعت دائرة العمل التنظيمي الفتحاوي لتشمل القطاع العمالي الوافد إلى ألمانيا سعياً وراء الرزق.

وقد نشط الافرنجي في تنفيذ الفعاليات السياسية والوطنية، وعمل على تجنيد الطلبة والعمال الفلسطينيين في ألمانيا في صفوف الحركة عام ١٩٦٣م من خلال الاتحاد العام لطلبة فلسطين، واتحاد عام عمال فلسطين، وحتى أصبح مسؤولاً عن الاتحاد العام لطلبة فلسطين فرع ألمانيا بين عامي (١٩٦٨-١٩٧٢).

وفي تلك المرحلة مارس الطلبة الفلسطينيون نشاطهم السياسي عبر فروع الإتحاد العام المنتشرة في الجامعات الألمانية المتنوعة، فكان من الطبيعي أن ينخرط الطلبة ومنهم الافرنجي في صفوف الإتحاد العام لطلبة فلسطين في ألمانيا وأن يصبح من قيادات الإتحاد وكوادره الأساسية، خصوصاً وأنه يحمل بين جوانحه معاناة الهجرة وذكريات حرب السويس واجتياح قطاع غزة.

وبعد عودته من الاسر تابع نشاطه في اطار الإتحاد العام لطلبة فلسطين حيث انتخب رئيساً لسكرتاريا التنسيق لفروع الإتحاد في ألمانيا والنمسا متصدراً لمواجهة السفير الإسرائيلي آنذاك (اشر بن ناثان) والذي قام بحملة دعائية والقاء محاضرات في الجامعات الألمانية دفاعاً عن الاحتلال، فهب الطلاب وعلى رأسهم الافرنجي للدفاع عن وطنهم مما أدى إلى صدامات وضرب واشتباكات وقد أصيب بضربات حادة على رأسه مما أدى لنقله إلى المستشفى.

وبدأت محاولات تأسيس اتحاد الطلبة الفلسطينيين، وبدأ بتحقيق الإنجازات وصولاً لإنشاء أول مكتب للاتحاد في فرانكفورت عام ١٩٦٤، ومن ثم إنشاء مركز الإعلام الفلسطيني، وخلال هذه

الفترة صارت هناك مجموعات من الألمان تتظاهر لصالح الفلسطينيين.

وكان أيضاً هناك قناة أخرى ساهمت في الاندماج خلال المؤتمر الثالث للاتحاد العام لطلبة فلسطين عام ١٩٦٣م، من خلال القائد ممدوح صيدم مسؤول فرع الإسكندرية آنذاك، المهم نجحت الجهود خاصة بعد أن التقى هاني بأبو جهاد في الكويت عبر أخيه خالد الحسن، حيث وعدهم بالتوحد فور عودته إلى ألمانيا والتشاور مع رفاقه هناك وكان ذلك.

في انتخابات فرع ألمانيا للاتحاد العام لطلبة فلسطين فاز عبد الحميد، والحسن لتمثيل الفرع في المؤتمر الثالث للاتحاد الذي انعقد في عام ١٩٦٣ في غزة كان حينها تحت الإدارة العسكرية المصرية، فعمل الاثنان على تنسيق جهودهما فتم انتخاب هاني رئيساً للمؤتمر وكان هايل يناور داخل القاعة لطرح أفكار تنظيمهما الناشئ.

تم تشكيل فرع اتحاد الطلبة في ألمانيا وأفرع أخرى في مدنها وكذلك فرع في النمسا وأفرع أخرى في مدنها، وجرى بعد ذلك دمج فرعي ألمانيا والنمسا في كونفدرالية واحدة وأصبح حمدان عاشور على قمتها، وذلك جنباً إلى جنب مع اتحاد العمال في ألمانيا والنمسا، وقبل عام ١٩٦٤م، كان هايل عبد الحميد هو الذي يمثل الاتحاد العام لطلبة فلسطين في ألمانيا، إلا أن قيادة الحركة طلبت منه أن يترك ساحة ألمانيا ويقيم في القاهرة وذلك لانتخابه عضواً بالهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين.

في العام ١٩٦٣، وقع الصدام المسلح في سوريا بين البعثيين والناصريين، وكان القوميون العرب انذاك، ضمن الناصريين، فأفضى هذا الحدث إلى احتدام الصراع بين الطرفين داخل الاتحاد، وانتهى الأمر بإقصاء البعثيين عن قيادة الاتحاد العام وفشلِ المنفصلون في تأسيس قيادة موازية للاتحاد في دمشق. وتشكلت لجنة قيادة مؤقتة لقيادة الاتحاد من مقر قيادته بالقاهرة، وهي اللجنة التي دعت إلى مؤتمر عام، انعقد في أوائل ١٩٦٤م، في مدينة غزة، حيث إنتخبت قيادة جديدة لا يوجد فيها بعثيون.

في غضون ذلك، كان الفرع الذي تأسس في ألمانيا قد غدا أقوى الفروع وكان نشطاء «فتح» قد اخترقوا الهيمنة البعثية أو القومية العربية على فروع اخرى، وأوصلوا إلى المؤتمر الذي عقد في غزة عدداً من الفتحاويين. وبوجود هؤلاء واهمية هذا الوجود، انتخب مؤتمر غزة هاني الحسن رئيسا له، وانتخب هايل عبد الحميد للامانة العامة للاتحاد، ليصير هايل نائبا للرئيس، ومسؤولاً عن العلاقات الداخلية فيه.

بهذا التطور، انتقل هايل إلى القاهرة، وبقي هاني في ألمانيا لبعض الوقت ليتابع البناء الذي بدأه

الاثنان معاً، واستمر هاني في ألمانيا حتى العام ١٩٦٧، حين وقعت الحرب. وكان ما حققته «فتح» في مؤتمر الاتحاد في العام ١٩٦٣ هو البداية التي اطرد توسيعها إلى أن تمكنت «فتح» في مقبل السنين من الهيمنة على قيادة الاتحاد العام ومعظم قيادات الفروع، وقد أفرز هذا المؤتمر الحصول على شرعية الخط السياسي الذي رفعته مجلة العودة الناطقة بإسم فروع أوروبا ومقرها ألمانيا، فكانت مجلة راقية وهي وسيلة الاعلام الوحيدة التي كانت موجودة في ألمانيا وكانت منتشرة في الأوساط العربية وذات حضور واسع بين المثقفين العرب، وكان هاني يرسلها لهم وكانوا يشترونها بـ ١٠ مارك، ولم يكن ذلك قليلاً في تلك الأيام وكانت هي التي يتثقفون بها، وكانت تعبوية وبها أفكار ومعلومات حقيقية كانت مجلة متفوقة وكان هاني على رأس المجلة، وكما وصفوه بلدوزر في العمل وتجده جاهزاً في أي وقت يطلبونه ويسافر مسافات بعيدة في ألمانيا وكان له نشاط بارز ومميز وكان يلقي المحاضرات.

وبعد أن فاز تيسير قبعة برئاسة الاتحاد، وهايل عبد الحميد بعضوية الهيئة الإدارية للاتحاد طلب أن يتولى موقع نائب الرئيس ومسؤول العلاقات الخارجية ليكون ذلك غطاء له للتواصل مع فروع الاتحاد، وتقرر أن يبقى هايل في القاهرة، كونه أصبح عضواً في الهيئة التنفيذية للاتحاد، لذلك يجب ترك ألمانيا ليتفرغ لموقعه الجديد، فيما يعود هاني لألمانيا.

ولكن قررت السلطات المصرية ترحيل هايل، وهذا القرار وقع كالصاعقة على الاتحاد العام وفروعه، وجرت اتصالات مع الاحتجاجات الطلابية والعربية والأجنبية لتنظيم مظاهرة أمام السفارة المصرية في بون.

وكان الحسن في غاية السعادة عندما وصل إلى ألمانيا الأخ والصديق الناصري حسن همام رئيس اتحاد طلبة جمهورية مصر العربية آنذاك فهو نموذج للفلاح المصري الطيب حيث حب الفلسطينيين منزرع فيه ككل أبناء مصر الطيبين كان حسن همام مكلفاً رسمياً بأن يشرح قصة هايل لهاني الحسن، واتفقا أن يغادر هايل مصر لمدة أسبوعين فغادر إلى بيروت فدمشق ومن هناك إلى ألمانيا حيث استقبلته جموع الطلبة إستقبالاً يليق برجل المبادئ والمواقف حتى عاد بعدها إلى القاهرة .

فقد تحول الجميع من شمال ألمانيا إلى جنوبها خلية نحل وبعد ترأس هاني لفرع (درامشتات)، (فرانكفورت) ثلاث مرات متتالية عرض أبو الهول في الاجتماع القيادي أهمية توزيع العمل وخطورة نشوء مراكز القوى ذات السلطة واتفقا على أهمية ديمقراطية الرأي والحوار وديكتاتورية التنفيذ على ألا يسمح لواحد منهم بأن يقوم وحده بكل شيء، كي لا يتعلم هو الفردية ويتعلم الآخرون التواكل والاتكال والدونية، ثم رسموا خطة لنشر أفكار محددة في أوساط الطلاب والعمل

لتعبئتهم، وكان هدف أبو الهول الرئيسي في ذلك الاجتماع هو أن نخرج بقرار واحد وهو أن لا يسمح لأحد بأن يقوم بكل شيء وحده وهذا يعني عملياً أن يستقيل هاني من رئاسة الاتحاد على أن يشغل موقع نائب الرئيس للإستمرار في متابعة إدارة الاتحاد ولكن بمشاركة واسعة من الكوادر الجديدة.

في تلك الفترة، تحققت الأغلبية في قيادة الاتحاد العام للطلبة لأعضائه المنتمين إلى حزب البعث، فيما توزعت الهيمنة على قيادات الروابط بين البعثيين والقوميين العرب، ولم يكن لـ»فتح» الناشئة، أو لم يعد لها، دورٌ بارز في قيادة الاتحاد،ولكن بجهود هاني وهايل، وغيرهم، في الساحة الألمانية بدأ هؤلاء في تأسيس فرع للاتحاد على هذه الساحة، تحققت الغلبة في قيادته لـ»فتح».

قاد هاني العديد من المحاضرات والندوات وكان له طريقة إلقاء للخطاب والاتصال بالجماهير والقدرة على التعبير وكذلك التواصل مع الاتحادات والفروع الطلابية التي كانت موجودة في ألمانيا.

وفي عام ١٩٦٥ وصل هاني الحسن القاهرة للمشاركة في مؤتمر الاتحاد العام لطلبة فلسطن كان قادماً من ألمانيا مندوباً عنها وعن النمسا، وتم انتخابه وقتها رئيساً للمؤتمر، وفي تلك الفترة أشرف هاني الحسن بشكل مباشر على التواصل مع القيادة المتواجدة في سوريا ليشارك أبناء فتح في ألمانيا في هذه المرحلة الجديدة .

واستمر الحسن في استقطاب مزيد من الأعضاء لحركة فتح من قواعد الطلاب ومعهم العمال منهم القادة حيدر إبراهيم رئيس اتحاد العمال الفلسطينيين في ألمانيا، حيث تعرفا من خلال عضو اتحاد الطلبة نبيل بدران الذي نظم ندوة وتحدث بها الحسن فأقنعهم، وقد التقى حيدر إبراهيم بهاني الحسن بناء على نصيحة من الطلاب الجزائريين في مدينة (شتوتغارت) عام ١٩٦٤م.

ويذكر أن غازي الحسيني الذي أكمل دراسته في ألمانيا انسجم أيضاً مع هاني ووصفه بالمقنع وله ثقافة عالية وان لديه تأثيراً واضحاً وأصبحا أصدقاء، حتى عن بعد، فلم تكن هناك علاقة مباشرة وكانت مهمتهم تجنيد الشباب لحركة فتح، ووجدا من خلال اجتماعات الطلاب أن أفكارهما كانت واحدة، كما أن عدنان أبو عياش من مؤسسي حركة «فتح» في ألمانيا عام ١٩٦٦، وكان ضمن اولى الدوريات مع الأخ غازي الحسيني بعد حرب حزيران، وساهم في تأسيس الكتيبة الطلابية، كما تولى مسؤولية تنظيم الاقاليم في القطاع الغربي، كان أبو عياش١٢ مدرسة نضالية فتحاوية، تقدمت بالعمل الطلابي خطوات جوهرية للأمام، كما تقدمت بالعمل النضالي والتنظيمي على مستوى الداخل خطوات حقيقية وعملية للأمام، وكان من مؤسسي اتحاد الطلاب الفلسطينيين في مدينة دارمشتات١٩٦٤م في ألمانيا الغربية، ومن أول مؤسسي تنظيم فتح في ألمانيا الغربية ١٩٦٥م، وقد

وصل يوسف أحمد حسن (كايد يوسف) إلى المانيا الغربية للدراسة هناك، وأثناء الدراسة التحق بحركة فتح في بداية عام ١٩٦٦م.

وفي نفس العام ١٩٦٤م تعرف الحسن على عدنان سمارة، الذي انتمى أيضاً لاتحاد الطلبة ثم حركة فتح، وكان على تواصل معه في مراحل دراسته وكان أحد ممثلي فرع ألمانيا في المؤتمر العام للاتحاد في القاهرة الذي كان رئيسه هاني.

القائد أبو جهاد أشاد بإسهامات مجموعة طلبة ألمانيا سواء في جمع التبرعات أو على الصعيد التنظيمي، وذكر هاني الحسن، حمدان عاشور، هايل عبد الحميد، حيث أن المناخ السياسي هناك ساعد على أن تقوم المجموعة بعمل واسع على صعيد بناء التنظيم ورفد المركز بالطاقات والكوادر المثقفة، وقد صادف تواجد أبو جهاد عشية حرب حزيران١٩٦٧م، في ألمانيا خلال تصاعد نشاطات الطلبة، وقبيل عودته إلى الجزائر تم الاتفاق معه على تنظيم دورة تدريبية في للطلبة الأعضاء في حركة فتح، وتم جمع ٢٩ جواز سفر للطلبة، حيث كان حماسهم عالياً، وتوجهوا بواسطة القطار من ألمانيا إلى فرنسا ومن هناك إلى مرسيليا وأبحروا إلى الجزائر ومنهم الشهيد فهيم عازم، هاني الحسن، ووليم نصار، عدنان أبو عياش، وشكيب نصار وأمين الهندي وغازي الحسيني وأحمد رشيد وسامي نايفة، وراغب عوايص وأحمد عمرو، وزهير مناصرة وعبد الله الافرنجي والشهيدان محمد سمارو وربحي موسى، ويحيى عاشور عن النمسا، (وقد شارك ربحي محمد حسين في معركة الكرامة، ١٩٦٨م ومعه فهيم نصار المعروف بإسم شكيب ومعهم محمد سمارو، بما يدل أن ساحة ألمانيا كانت وقوداً للثورة في مختلف المراحل)

كما كان أحمد دغلس ذلك الشاب الذي بدأ مشواره الوطني في أعقد الظروف وأشدها قسوة، منتصف الستينات، قد التحق كغيره من أبناء شعبنا في صفوف حركة فتح، فكان المقاتل في صفوف الحركة في معظم الميادين حتى أستقر به المصير في العاصمة النمساوية فيينا، فكان من الخلية الأولى للكنفدرالية الألمانية النمساوية مع عاشور والافرنجي ومن مؤسسي اتحاد الطلبة العرب، وركناً هاماً في تكوينها نصرة لفلسطين ومن ثم يضع زملاؤه اللبنات الأولى لاتحاد طلبة فلسطين في أوروبا والمنافي، ومن ثم أمين سر حركة فتح إقليم النمسا، وكان أول من عمل على تأسيس أول خلية فلسطينية على مستوى القارة الأوروبية، وأول من أسس ورفيق دربه الراحل الدكتور جورج نقولا اتحاد الجاليات الفلسطينية في أوروبا.

فيما انخرط محمد سعادة أحمد عودة المعروف بـ"تيسير خالد" في النشاط الطلابي، وأصبح عضوًا في الاتحاد العام لطلبة فلسطين ١٩٦٣، وعضوًا في اتحاد الطلبة الاشتراكيين في المانيا، وشارك في

المؤتمر التأسيسي للجبهة الديمقراطية عام ١٩٦٩، وأصبح عضوًا في مكتبها السياسي عام ١٩٧١، وعضوًا في المجلس الوطني منذ عام ١٩٧٢م.

*مرحلة الاتحاد العام لطلبة فلسطين وحركة التحرر العالمي ١٩٦٣- ١٩٧٢

وقد تجلى دور الكونفدرالية بشكل بارز عبر مشاركتها في المؤتمر الوطني الثالث للاتحاد العام لطلبة فلسطين والذي عقد في مدينة غزة عام ١٩٦٣ وتم انتخاب الأخ هاني الحسن رئيساً للمؤتمر وتمكن الأخ هايل عبد الحميد من الفوز بعضوية الهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين مما مكنه من مواصلة العمل بين الأوساط الطلابية، فيما ترأس هاني الحسن المؤتمر الثالث والرابع في الاتحاد ممثلاً لكنفدرالية ألمانيا والنمسا.

وبعدها انعقد مؤتمر الكونفدرالية في عام ١٩٦٦ (كونفدرالية الاتحاد العام لطلبة فلسطين لفروع ألمانيا الاتحادية والنمسا) وشارك فيه العديد من الفروع في المانيا الاتحادية والنمسا، وكان من أبرز كوادر العمل الطلابي في هذه الفترة سامي أبو سليم، عبد الله الافرنجي، نبيل قليلات، زهير مناصرة، وفاروق النابلسي وآخرون، وأكد المؤتمر على ضرورة تعبئة الطلبة الفلسطينيين من أجل معركة التحرير والعودة وأهمية تبني الكفاح المسلح في مواجهة الكيان الصهيوني وقد شارك وفد من الهيئة التنفيذية في هذا المؤتمر ممثلاً بتيسير قبعة ومفلح أبو سويرح وأيضاً كان عوض حجازي (درس عام ١٩٧١ الاقتصاد والعلوم السياسية واكمل دكتوراة في العلوم السياسية، ولعب دوراً هاماً في الاتحاد العام لطلبة فلسطين في المانيا حتى ترأسه لاحقاً وقد يكون الوحيد الذي واكب اغلب أجيال الاتحاد في المانيا حتى فترة قريبة)، عبد الرحمن علاوي عضو الهيئة التنفيذية ويحيى عاشور في النمسا مازالوا نشطين، وكان هناك ترابط وطيد بين حركة فتح واتحاد الطلبة في النمسا.

وتميزت هذه المرحلة بازدياد نشاط الاتحاد على صعيد اطره الداخلية وتمتينها بالإضافة إلى اتساع دائرة تواجده وتمثيله لطلبة فلسطين المتواجدين في العديد من المدن الألمانية وجامعاتها.

وكانت كونفدرالية فروع ألمانيا الاتحادية والنمسا عبر هيئتها القيادية سكرتارية التنسيق، والهيئات الإدارية لفروعها وقد بلغ عددها ٣٢ فرعاً في ألمانيا الاتحادية والنمسا بينها ٤ فروع في النمسا أهمها: فيينا، غراتس والمانيا: آخن، فرانكفورت، دارمشتات، ميونخ،شتوتغارت، بون، كولونيا، اسن، ماربيونخ، غوتينغن، هانوفر، هامبورج،بريمن، كارلسوره،فرايبورغ.. الخ.

وشهدت مدينة (فرانكفورت) الألمانية عام ١٩٦٨ عقد مؤتمر للكنفدرالية فروع ألمانيا الاتحادية والنمسا وقد ناقش المؤتمر التقارير المقدمة من سكرتارية التنسيق واقر خطة للتحرك الإعلامي

على الساحتين الألمانية والنمساوية لمواجهة التحرك الصهيوني وأساليب المخادعة، وتم انتخاب فرع (فرانكفورت) ليتولى مهام سكرتارية التنسيق، وعلى اثر ذلك اجتمعت الجمعية العمومية لفرع (فرانكفورت) وانتخبت أعضاء السكرتاريا على النحو التالي: عبد الله الافرنجي، سامي أبو سليم، علاء محمود، أمين الهندي، عبد الرحمن علاوي.

كما تمكنت عبر تواصلها مع قوى اليسار الجديد في ألمانيا واتحاد الطلبة الاشتراكيين الألمان (sos) من اجراء نقلة نوعية على صعيد المشهد السياسي والطلابي الألماني تجاه قضية الشعب الفلسطيني ونضاله العادل حيث وقفت هذه القوى إلى جانب إسرائيل اثر حرب حزيران ١٩٦٧م، ولكن بعدها بفترة وجيزة جداً أصبحت قوى اليسار الجديد بعد اكتشافها لعملية الخداع والتضليل الصهيونية أكثر قوى مساندة ووقوفاً إلى جانب نضال شعبنا الفلسطيني من أجل حق تقرير المصير والعودة. ويمكن القول أن الحركة الطلابية الفلسطينية في ألمانيا شكلت جزءاً من الحركة الطلابية العالمية آنذاك التي من أبرز قادتها (رودي دوتشكه، وداني غونبنديت) .

وفي هذه المرحلة تم عقد ما يقارب من اثني عشر مؤتمراً للكونفدرالية فروع ألمانيا الاتحادية والنمسا، كما شهدت مدينة آخن الألمانية عام ١٩٦٩ عقد مؤتمراً للكنفدرالية شارك فيه العديد من فروع الاتحاد في المانيا والنمسا.

وجاء المؤتمر الثاني عشر للكونفدرالية عام ١٩٧١ والذي عقد في مدينة (هايدلبرج) بمشاركة ما يقارب من ٣٢ فرعاً وتم انتخاب فرع بون ليتولى مهام سكرتارية التنسيق، وعقد فرع بون اجتماعاً للجمعية العمومية وانتخب سكرتارية التنسيق لفروع ألمانيا الاتحادية والنمسا على النحو التالي:

محمود اللبدي رئيساً، إبراهيم عدوان عضواً، أحمد الرأس عضواً، عبد العزيز اللبدي عضواً، وسليمان أبو الخير عضواً.

***تأثير نكسة ١٩٦٧ :**

اندلعت حرب حزيران ١٩٦٧ ووقع ما تبقى من أرض فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة في براثن الإحتلال مما فرض معطيات جديدة على أرض الواقع وأدت النكسة إلى تنشيط العمل الطلابي الفلسطيني في اطار الإتحاد العام لطلبة فلسطين والتنظيم الفتحاوي السري على حد سواء. كما دفع ذلك ببعض الكوادر الطلائعية للتنظيم الحديث إلى تبني فكرة النزول إلى أرض الوطن المحتل وممارسة المقاومة الشعبية ضد الإحتلال وكان الافرنجي من أوائل الكوادر الفتحاويين المقدامين الذين ذهبوا إلى الجزائر لتلقي دورة تدريبية مع بعض الرفاق مثل زهير وعدنان وغازي وآخرين،

بعد تلقي التدريبات الكافية التي أشرف عليها خليل الوزير شخصياً سافر الشباب إلى دمشق ومن ثم إلى الأردن للعبور إلى الضفة الغربية، لم يكتب لتلك التجربة النجاح بسبب قلة الخبرة وقلة التدريب وانعدام المعرفة بالتضاريس وغياب الخطة الواضحة، مثل ذهاب أفراد المجموعة لزيارة أهاليهم مما أدى إلى افتضاح أمرهم وسهولة وقوعهم في أيدي المحتل.

وقد شهد العمل الوطني الفلسطيني بعد حرب ١٩٦٧م، الذي صارت «فتح» هي عاموده الفقري، موجةَ توسعه الكبيرة وامتداده على الساحات كافة في الدول العربية والدول الأجنبية، وتولت «فتح» ومعها فصائل العمل المسلح، الذي اشتهر أيضاً بإسم العمل الفدائي، المسؤولية الأولى في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية عندها، توجب أن ينتقل هاني إلى حيث مركز (م.ت.ف) وصار هو المفوضَ السياسي لقوات الثورة الفلسطينية، فيما واصل هايل المهمة التي تولاها سراً منذ انتقاله إلى القاهرة لتأسيس وتوسيع تنظيم «فتح» في الساحة المصرية.

وبصفته المفوض السياسي لقوات الثورة، ذهب هاني بصحبة هايل في عِداد وفد فتحاوي رئيسه هوعضو مركزية، «فتح»، ممدوح صيدم «ابو صبري»، لاتباع دورة عسكرية خاصة بالقادة في الصين. واتم هاني الدورة، ثم عاد لتولي المسؤوليات السياسية والأمنية العديدة التي مارسها منذ ذلك الوقت حتى وفاته.

فيما كُلف أمين الهندي عام ١٩٦٧م، بقيادة تنظيم الحركة في كل من ألمانيا والنمسا،حيث طلب من بقية الأخوة العودة إلى الدول العربية وفي نفس الوقت تولى رئاسة كونفدرالية ألمانيا والنمسا,كما كان مسؤولاً مالياً بحركة فتح، توجه إلى سوريا عام ١٩٦٨م، حيث كان مكلفاً بمهمة معينة لتسليم مبلغ من المال للقيادة هناك، وانعقد المؤتمر الثاني في الزبداني عام ١٩٦٨م كان الهندي عضواً في المؤتمر، حيث مثل كونفدرالية (ألمانيا والنمسا).

فيما كان هناك دور لغازي الحسيني، بهجت الأقطش، والأسير المحرر وليم نصاروشقيقه في برلين، وغازي حنانيا (الذي حصل على درجة البكالوريوس من كلية طب الأسنان من جامعة فرانكفورت في ألمانيا، وحصل على درجة الماجستير في جراحة الفم ١٩٧١، وكان خلال دراسته في ألمانيا عضواً في الأمانة العامة للاتحاد العام لطلبة فلسطين(، وساهم في دعم حركة فتح أيضاً مادياً ومقاتلين ممن ساهموا في تأسيس العاصفة خاصة بعد ١٩٦٧م.

*عملية ميونخ ١٩٧٢:

عام ١٩٦٩م انتُخب أمين الهندي رئيساً للهيئة التنفيذية للاتحاد العام لطلبة فلسطين حتى عام

١٩٧١م، حيث تفرغ للعمل في الاتحاد في القاهرة بعد تركه للساحة الألمانية، وكانت تربطه علاقة جيدة مع أبو إياد.

بعد تسلم حركة فتح مقاليد الأمور في منظمة التحرير الفلسطينية بدأت مرحلة من الإنفتاح العربي على القضية الفلسطينية أدت إلى انتداب المناضل الطلابي في نهاية عام ١٩٦٩ كأول مندوب اعلامي لفلسطين في مكتب الجامعة العربية في مدينة بون، أحدث هذا الإنتداب إنقلاباً حاسماً في حياة عبد الله الشخصية ومساره المهني الذي تحول من دراسة الطب لكي يكرس حياته للعمل الوطني بعد الصراع الدموي في الأردن وما لحق بالحركة الجماهيرية في تلك المرحلة من تراجع، سادت حقبة الإنتقام مما أدى إلى تأسيس منظمة ايلول الأسود وهي المنظمة الفدائية التي قامت بتنفيذ عملية ميونخ ضد مقر المنتخب الأولمبي الإسرائيلي، أثارت هذه العملية غضب الحكومة الألمانية مما أدى إلى طرد مجموعة من الطلبة الفلسطينيين.

وقد استطاعت هذه السكرتاريا أن تقوم بالعديد من الأنشطة والفعاليات سواء على صعيد البناء الداخلي أو على صعيد العلاقات العربية والخارجية إلا أن تطور الأوضاع على الساحة الفلسطينية لم يسعفها في مواصلة نشاطها حيث وقعت عملية مونيخ في ١٩٧٢/٩/٥ على اثرها تم منع الاتحاد العام لطلبة فلسطين والاتحاد العام لعمال فلسطين، وحظر نشاطهما بقرار من وزارة الداخلية الألمانية، وعلى اثر ذلك تعرض عدد من الطلبة الفلسطينيين للمضايقات من قبل السلطات الألمانية وقامت بإبعاد عشرات الطلبة والعمال والناشطين من ألمانيا الغربية وكان عبد الله أحدهم مما أدى لفقدان الكثير من مقاعدهم الدراسية والكثير من العمال لوظائفهم ورُحلوا خارج ألمانيا وحرمانهم من إتمام دراستهم وعملهم.

وتمكنت م.ت.ف من ايفاد هؤلاء الطلبة المبعدين من ألمانيا الاتحادية إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية الشرقية، لاكمال دراستهم، وبعد ابعاد العديد من طلبة وعمال فلسطين اسدل الستار على هذه المرحلة لتبدأ مرحلة صعبة وهامة في تاريخ الحركة الطلابية الفلسطينية على الساحة الألمانية، وقد تم الاتصال بالهيئة التنفيذية فيما بعد لكي يأخذوا اذناً بتغيير اسم الاتحاد العام لطلبة فلسطين، لأن السلطات الألمانية فرضت أن لا يكون عملهم له علاقة بإلاتحاد وفروعه واستمروا في عملهم.

مرحلة منع الاتحاد العام لطلبة فلسطين والعمال وحظر نشاطهما، وتشكيل لجان المناصرة ١٩٧٢-١٩٧٥

تميزت هذه المرحلة بإزدياد حملة الملاحقة، والتضييق من قبل السلطات الأمنية الالمانية على طلبة وعمال فلسطين، الناشطين في العمل النقابي والوطني على الساحة الألمانية مما خلق حالة تحدٍّ لدى

الطلبة الفلسطينيين في مواجهة هذه الحملة لكن هذا النشاط اخذ في بدايته طابعاً آخر بعيداً عن العمل المباشر والعلني في اطار الاتحاد العام لطلبة فلسطين المحظور نشاطه وهذا الأمر قاد إلى تنظيم المؤتمر الشعبي الفلسطيني ١٩٧٣ لمساندة القضية الفلسطينية شاركت فيه قوى اليسار الجديد بكثافة، مما خلق الأرضية المناسبة، لتشكيل لجان أنصار فلسطين، في العديد من المدن الألمانية التي استطاعت أن تغطي حالة الفراغ التي أعقبت منع الاتحادين المذكورين، وهنا لابد من الإشارة للدور المميز التي قامت به لجان مناصرة فلسطين في بون، جوتنجن، وهامبورج، فرانكفورت وهانوتر في تنظيم هذه الفعالية، واستمرت لجان أنصار فلسطين في العمل في السبعينات من القرن الماضي وبرزت أسماء ألمانية مناصرة للقضية الفلسطينية مثل بيرجت زومر، هاينز فاينغارتس، دتيليف شنايدر، جورج واليزيد سلمى.

وفي عام ١٩٧٤ قام صخر بسيسو بعمل زيارة للفروع الداخلية في ألمانيا وكان معه أمين الهندي، وكان محمود علاء الدين أيضاً، من الذين شاركوا في تأسيس الحركة الطلابية في المانيا، وكان الاتحاد له علاقة مباشرة مع اتحاد عمال فلسطين في ألمانيا الذي رأسه حيدر إبراهيم، فيما كان نبيل قليلات عضو هيئة تنفيذية في فترة بسيسو عن ألمانيا الذي أصبح سفيراً فيما بعد لألمانيا الديمقراطية، فيما وصل سامي فايز خليل مسلَّم، لدراسة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة بون في ألمانيا الاتحادية عام ١٩٧٥، وانخرط في العمل الطلابي.

واستطاعت اللجان أن تشكل حاضنة ورافعة للعمل الفلسطيني في الوسط الألماني مما خلق حالة تعاطف بارزة لدعم القضية الفلسطينية على الساحة الألمانية وتمثل ذلك في المشاركة الواسعة في مسيرة يوم الأرض عام ١٩٧٦م، التي نظمت بالتعاون مع مركز الاعلام الفلسطيني م.ت.ف في بون بمشاركة آلاف الأفراد من ألمان وعرب.

الندوات والفعاليات :

العمل التنظيمي كان له أكثر من مهمة، حيث كان كل من صلاح خلف وفاروق القدومي يقومان بزيارة التنظيم في ألمانيا قادمين كموفدين من قبل القيادة من أجل هدفين الأول، التفتيش على أوضاع التنظيم والثاني، إلقاء ندوات وخطب ومحاضرات على أعضاء التنظيم في ألمانيا، كما كان كذلك خالد الحسن من المواظبين سنوياً على حضور مؤتمر كونفدرالية اتحاد الطلبة (ألمانيا والنمسا)، كذلك كان خليل الوزير يقوم بزيارة إلى ألمانيا بين فترة وأخرى، وشارك الإفرنجي في إلقاء المحاضرات والندوات والتي تناول فيها القضية الفلسطينية وتطوراتها.

وفي هذه المرحلة تم استضافة العديد من قادة الثورة الفلسطينية وفي مقدمتهم خالد الحسن، صلاح خلف، هاني الحسن، علي الحسن، منير شفيق، أبو صالح الزواوي، محمد جرادة أبو أسامة، احمد قريع، عثمان أبو غربية، أبو حسن قاسم، الذين شاركوا وكانوا متحدثين رئيسين في ندوات اعدت بهذا الخصوص.

وكان الاتحاد العام لطلبة فلسطين يقوم بمجموعة من النشاطات والفعاليات في المناسبات الوطنية مثل يوم التضامن مع الشعب الفلسطيني، ودعم الاسرى واحياء ذكرى النكبة، ويوم الأرض وغيرها، ويشارك في الندوات والمظاهرات والاعتصامات التي تقام بمناسبات مختلفة مثل (الاعتقالات، التضامن ودعم الاسرى المضربين عن الطعام هدم البيوت ومصادرة الأراضي الخ).

ونستطيع أن نجمل أهم نشاطات الاتحاد في ألمانيا في عدة نقاط:

١ـ عقد اجتماعات الجمعيات العمومية للفروع أو وحدات الاتحاد أسبوعياً بحضور ما يقارب من٩٠٪ من الأعضاء العاملين المسجلين لدى الفرع أو الوحدة، وكانت الاجتماعات بمثابة ورشة عمل أسبوعية تتخللها دراسة تثقيفية تعبوية، وتقييم النشاط في الفترة الماضية، ووضع ملامح خطة عمل للفترة القادمة، وقد شاركت في هذه الاجتماعات جميع ألوان الطيف السياسي الفلسطيني.

٢- احياء ندوات (زيمنارات نهاية الأسبوع) مركزية، سياسية، فكرية، تعبوية، مثل ندوات برلين، فرانكفورت، هانوفر، جوتنجن، آخن... الخ)

٣- عقد ندوات سياسية وفكرية مناطقية على صعيد مناطق المانيا الأربع

٤- اصدار مجلة فصلية باسم فلسطين صادرة عن الهيئة الإدارية بالعربية.

٥- اصدار روزنامة جيب سنوية باللغة الألمانية وتتضمن تاريخاً موجزاً للقضية الفلسطينية

٦- مشاركة عشرات الأعضاء من كوادر الاتحاد في التعبئة العامة التي دعت لها الهيئة التنفيذية للاتحاد في لبنان ابان الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥- ١٩٧٧ للدفاع عن الثورة الفلسطينية ووجودها المادي على الساحة اللبنانية واستشهاد أحد كوادر الاتحاد في ألمانيا في معركة الجبل بلبنان الشهيد يوسف جوادة (صيدم)

٧- إقامة علاقات وطيدة مع الاتحاد الوطني لطلبة المانيا (ASTA) في جميع فروع الاتحاد أو وحداته، وتم انتخاب ١٥ كادراً من كوادر الاتحاد ممثلين للطلبة الأجانب في الجامعات الألمانية العديدة.

٨- إقامة علاقات تعاون مستمرة مع المنظمات الطلابية والشبابية والأجنبية ايران، تركيا ارتيريا، أميركا اللاتينية، افريقيا وكذلك مع القوى الديمقراطية والتقدمية الألمانية (قوى اليسار الجديد)

ويسار الوسط (Juso)

٩- احياء أسابيع فلسطين في عشرات المدن الألمانية الكبيرة مثل برلين، هامبورج، هانوفر، بريمن، جوتن، فرانكفورت، ميونخ، شتوتجارت، كارلسروه، هامبرج، فرايبورغ، بون، كولون، فوبرتال، دورتموند، واسن..الخ) وقد تميزت هذه الأسابيع بمشاركة واسعة للجمهور الألماني بمعدل ما يزيد عن ٧٠ ٪ من الحضور.

١٠- عقد الندوات ومهرجانات في المناسبات الوطنية المختلفة في العديد من المدن الألمانية (الانطلاقة، الكرامة، يوم الأرض، ذكرى النكبة..ألخ)

١١- إصدار بيانات تعبر عن مواقف الاتحاد باللغتين العربية والألمانية.

١٢- إصدار نشرات باللغة الألمانية.

١٣- تنظيم العديد من المظاهرات والمسيرات بالتعاون مع مركز الاعلام الفلسطيني (م.ت.ف) وخصوصاً في ذكرى يوم الأرض والنكبة

١٤- المشاركة في مسيرة الاتحاد العام لطلبة فلسطين العرب في ألمانيا الاتحادية .

مراجع :

*حسان البلعاوي، هاني الحسن صوت الحضور الانيق والنوء العاصف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٢٣.

* عوض حجازي، وثائق ومذكرات شخصية كتبت بخط اليد.

*عيسى عبد الحفيظ، يوسف احمد حسن، الذاكرة الوفية، جريدة الحياة الجديدة، العدد ٨٠٤٧، ٢٠١٨/٤/١٧، ص ٧.

*عيسى عبد الحفيظ، عدنان أبو عياش، الذاكرة الوفية، جريدة الحياة الجديدة، العدد ٨٣٧٤، ٢٠١٩/٣/١٩،ص٥

مقابلات أجراها المؤرخ حسام أبو النصر :

*سامي مسلم، ٢٠٢٣/٨/٥

*عوض حجازي،٢٠٢٣/٨/٥

*صخر بسيسو، ٢٠٢٣/٨/٥

فتح من البندقية إلى السرداب، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، سلسلة «تاريخ المصريين» (٣٣٥)، ٢٠١٩

مريم ياسر*

إعداد: عبد القادر ياسين **

اختلف المؤرخون حول تاريخ تأسيس حركة «فتح»، بالرغم من الدور التاريخي الكبير الذي لعبته فتح في الحركة الوطنية الفلسطينية. هذا بالإضافة إلى التغيرات التي طرأت على شعارات وأفكار وممارسات الحركة على مر العقود الماضية، ما يستدعي الكتاب والباحثين المهتمين بمجالي التاريخ والسياسية لإفراد المساحة لهذه الحركة بالبحث والتحري عنها بدقة وهو ما قام به عبد القادر ياسين، برفقة سبعة من الباحثين في كتابه «فتح من البندقية إلى السرداب»، الذي جاء في ١٧٤ صفحة من الحجم الكبير، الصادر عن الهيئة العامة للكتاب، بمصر؛ متضمنًا أربعة أبواب ينقسم كل منها لعدة فصول فضلًا على المقدمة والخاتمة .

أهدى الكاتب العمل لأرواح قادة «فتح»: كمال عدوان، ومحمد يوسف النجار، وماجد أبو شرار، وخليل الوزير، وصلاح خلف، الذين اغتالهم العدو.

أعد المحرر الفصل الأول تحت عنوان «تأسيس فتح الملابسات والالتباسات»، حاول خلاله الإجابة على سؤال متى كان التأسيس؟

«في اعتقادي أن كلًا من التواريخ الخمسة صحيح، بدرجة ما، أو هي تُكمِّل بعضها بعضًا، ففي خريف ١٩٥٤، طرأت الفكرة على رؤوس الروَّاد؛ وفي صيف ١٩٥٧، اقتربت ملامح الفكرة من الاكتمال؛ وبعد ما يربو على

*مريم ياسر: باحثة وكاتبة

**كاتب وباحث فلسطيني

العام الواحد، تم وضع حجر أساس المشروع؛ وفي مطلع ١٩٥٩، توفرت الوثائق الأساسية للحركة الوليدة، كما تحركت الماكينة الإعلامية لها؛ لتعقد بعدها قيادة الحركة أول اجتماع لها، خريف ١٩٦٣؛ وبعد أن اكتمل المخاض الصعب، اندفعت الطلقة الأولى للمقاومة الفلسطينية الراهنة» (ص٢١).

أتى الباب الأول «الميلاد» في فصلين، كتبت أولهما د.إكرام عبد الرحيم «ولادة فتح من خاصرة الضعف العربي» وهو عنوان جذاب معبر عن تلك المرحلة من التاريخ العربي، فكيف أسهم صراع الأشقاء العرب، ونجاح الثورة الجزائرية في انتزاع استقلال البلاد من أيدي المحتل الفرنسي، بشكل مباشر في دفع الشعب الفلسطيني إلى أخذ قضيته الوطنية بين يديه.

في الفصل الثاني «مصادر الإلهام الكفاحي» عرض ياسين كيف ألهمت كل من: ثورة ٣٦، والكتيبة ١٤١ فدائيين، وروابط الطلبة الفلسطينيين، والأعمال الفدائية المصرية ضد القوات البريطانية (١٩٥١-١٩٥٤)؛ بالإضافة إلى اقتناع بعض إخوان قطاع غزة بجدوى التنظيم الوطني الإئتلافي؛ والثورة الجزائرية، وأخيرًا التجربة الكويتية.

جاء الباب الثاني بعنوان «الأداء»، مكون من ثلاثة فصول، كتبت الأول والثاني رضوى عبد القادر، تتبعت فيهما أداء فتح بدءًا من الكفاح المسلح، ثم خروجها عن نشاطها العسكري المألوف، واتباع أسلوب العمليات الخاصة، ما وصفته الكاتبة بأنه «أضفى طابعًا مساومًا على الكفاح المسلح» (ص٦٧)، سلمت رضوى الراية لآيات عبد الحكيم، لتكتب «فتح والتسوية» في الفصل الثالث الذي عرضت فيه الاتجاه التدريجي لفتح نحو التسوية.

ألمت التغيرات بحركة «فتح» فتفجرت الخلافات داخل الحركة، فنشأ على إثرها «يسار فتح»، حمدي محرم تتبع ظهور هذا اليسار وحتى أفوله، وفي الفصل الثاني من الباب نفسه كتب مجدي السيد «الانسلاخات عن فتح» قام فيه برصد العديد من الانشقاقات التي جرت عن فتح.

لم تنشأ فتح كنبت شيطاني في صحراء جرداء، وإنما نشأت وسط أنظمة عربية، قدمت لها الدعم والمساندة حينًا وكبلتها في أحيان أخرى. حول علاقة فتح مع الأنظمة الحاكمة في تلك الدول، جاء الباب الرابع وعنوانه «علاقات فتح»، كان للمحرر نصيب الأسد من فصول هذا الباب، فكتب عن علاقات فتح مع كلٍ من سوريا، ومصر، والأردن؛ فيما كتب الفصل الرابع حمدي محرم عن علاقة فتح بلبنان. ولكن لا أدري لماذا اختار الكاتب «دول الطوق» عن غيرها من الدول؟ ولماذا أغفل العلاقات بين «فتح» وتونس بالرغم من دورها الكبير؟

«بدلًا من الخاتمة» جاء فصل «فتح وحماس جذور الأزمة وخلل البدايات» قدم فيه الباحث فتحي عبد العليم تشريحًا جيدًا للأزمة بين فتح وحماس ربما ساعد هذا التشريح في إيجاد حل لهذا الانقسام او لربما افاد في محاولة تفادي مزيد من الانقسام عبر الاتفاق على هدف رئيسي دون الالتفات للخلفيات الفكرية لكل من التنظيمين.

أرخ الكتاب لحركة «فتح» منذ النشأة والتحولات التي عصفت بها وكذلك جذور الصراع بينها وبين حركة

«حماس» باعتبارهما أكبر فصيلين للمقاومة في فلسطين، معتمدًا على مجموعة كبيرة من المراجع المتنوعة، شملت الكتب والمواقع الإلكترونية واللقاءات الخاصة. بالإضافة لمحاولة الوقوف على تاريخ نشأة الحركة ويترك المحرر للقارئ مهمة استخلاص العبر بناء على ما آلت إليه الأمور وكيفية حدوث التحول من الشيء لنقيضه.

ذكر المحرر في ختام مقدمته للكتاب أنه يستهدف التأريخ لحركة «فتح» كجزء من الذاكرة الوطنية الفلسطينية، وحسنًا فعل وقد التزم المحرر وكذلك الباحثون بالموضوعية وسرد الأحداث مدعمة بالمراجع دون ان ينحاز أي منهم للحركة أو يجور عليها، إلا أن مضمون الكتاب لم يف بما وعد في غلافه؛ فكل ما تضمنه الكتاب كان في مجال التوصيف وارتقى في توصيفه ليتجاوز كل ما سبق عن فتح.

المحرر: عبد القادر ياسين، المؤرخ الفلسطيني، المقيم بالقاهرة، والمعروف بموضوعيته وتمسكه الشديد بأساسيات البحث العلمي، بالإضافة أنه عاصر الأحداث وعايش بعضها مما أعطاه القدرة للحكم على المعلومات. صدر لياسين اكثر من ٧٠ كتاب منها ما كتبه منفردًا، ومنها ما قدمه مع باحثين من تلاميذه، مثل الكتاب الذي بين يدينا.

أجاد الباحثون تقديم مادتهم العلمية بأسلوب متسلسل ومنظم، يسهل على القارئ متابعته وفهمه، وقد اعتمد المحرر تسلسلاً منطقياً لأبواب وفصول كتابه، وكأن كل باب يسلمنا للذي يليه في سهولة ويُسر. ما يجعلني أرشح الكتاب للقاريء المتابع للتاريخ، والملتحقين بالعمل السياسي، كما أرشحه للباحثين في الحركات السياسية والتاريخ، وصانعي القرارالسياسي فهذا الكتاب يعد أوسع وأشمل ما قُدِم عن حركة «فتح».

الجيش وقوات التحرير الشعبية

د. دينا العشري

ما من حركة تحرر وطني، إلا وبدأت مسيرتها بإشهار الكفاح المسلح، ضد من يحتل ترابها الوطني؛ ولم تكن «منظمة التحرير الفلسطينية» استثناءً في هذا الصدد، إذ استند وجودها، منذ البداية، على ثلاثة أعمدة، كان «جيش التحرير الفلسطيني» أحدها، بينما تمثل العمودان الآخران في مركز الأبحاث، والصندوق القومي، فضلاً على المستوى السياسي، المتمثل في المجلس الوطني الفلسطيني، واللجنة التنفيذية للمنظمة. وإن فرضت هزيمة ٦٧ على قيادة «المنظمة» صيغة حرب العصابات، فعمدت تلك القيادة إلى تشكيل «قوات التحرير الشعبية»، وهذا ما سوف نفصِّله، فيما يلي.

منذ البداية، عند تأسيس منظمة التحرير، تعالت الدعوات العربية، وخاصة الفلسطينية، إلى ضرورة إنشاء جيش تحرير فلسطيني، بطابع نظامي، قادر على استخدام طاقاته، الفنية، والبشرية، والمادية، لخدمة الكفاح

المسلح، في سبيل كسر الحاجز النفسي، الذي سببته هزيمة ١٩٤٨، ونكبتها.

بعد استفحال أمر الحاجز النفسي، بفعل نكسة حزيران/ يونيو ١٩٦٧؛ صدرت القرارات من القيادة السياسية لمنظمة التحرير، بتشكيل «قوات التحرير الشعبية»،في شباط/فبراير١٩٦٨، ضمن إطار «جيش التحرير الفلسطيني»، لتكون ذراعه الفدائي، وتجسيدًا في جعله جيشًا ثوريًا، يشترك في القتال اليومي ضد العدو الإسرائيلي(١).

رغم اعتراض بعض الوفود العربية، وفي مقدمتها الأردن، منذ البداية، على تشكيل قوات مسلحة فلسطينية، ذات قيادة مستقلة، ورفضه أن يسمح بتنجنيد الفلسطينيين المقيمين في الأردن، أو أن تتمركز قوات فلسطينية على أرضه، فإن وفودًا عربية كثيرة رحبت بقيام هذه القوات الفلسطينية، وأبدت استعدادها للسماح لها بالعمل فوق أراضيها . وقد بذل وفد منظمة التحرير جهودًا كبيرة، للخروج بقرار عربي حول الموضوع العسكري، الذي يشكل عماد الكيان الفلسطيني ، ووافقت القمة العربية ، منعًا لإثارة بعض الوفود، على أن تنشأ كتائب فلسطينية مسلحة، من أبناء فلسطين المقيمين في مصر، وقطاع غزة، وسوريا، والعراق، بدلاً من «جيش التحرير الفلسطيني»، كخطوة أولى، على أن تخضع الكتائب لقيادة فلسطينية واحدة، وتصبح جزءًا من جيش التحرير الواحد، حين تسنح الفرصة بإنشائه. ووافق وفد منظمة التحرير، أيضًا، على أن يقوم التعاون والتنسيق بين القوات الفلسطينية، و«القيادة العربية الموحدة»، في التشكيل، والتدريب، والتسليح، والعمليات، لتقدم بذلك نموذجًا للعمل الفدائي(٢).

أما عن تشكيل «جيش التحرير»، فقد تألف، رسميًا، من ثلاث قوات:

(١)عين جالوت، المرابطة في مصر؛ (٢) القادسية، المرابطة في العراق، وإن انتقلت إلى الأردن، في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، ومن ثم إلى سوريا؛ (٣) وحطين، المرابطة في سورية. وقد شاركت قوات «جيش التحرير»، في جميع معارك الدفاع عن الثورة الفلسطينية، والشعب الفلسطيني، كما في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، إلى جانب الجيشين، السوري والمصري، ودافعت تلك القوات عن الثورة الفلسطينية، وفي جنوب لبنان، في السبعينات، ضد الهجمات، وأعمال القصف، والغارات الإسرائيلية(٣).

في بيروت، كان إلى جانب «الحركة الوطنية اللبنانية»، وقد برع هذا الجيش ، أثناء حصار بيروت، في الدفاع عن المدينة، وأيضًا، أثناء حصار طرابلس بلبنان؛ وبعد العام ١٩٨٢، شارك الجيش في جميع المعارك التي وقعت، دفاعًا عن م.ت.ف.، وعن مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في لبنان*، وقد ارتفعت نسبة تمثيل جيش التحرير في «المجلس الوطني الفلسطيني»، إلى ٤٤عضوًا، بالتوازي مع التراجع الملحوظ في دوره القتالي(٤) !. وقد ترأس الدائرة العسكرية عرفات نفسه، فاللجنة التنفيذية للمنظمة هي المفوَّضة بتعيين القائد العام للقوات العسكرية، ورئيس أركانها، وعلى القائد العام تعيين أعضاء المجلس العسكري الأعلى، برئاسته. وقد تولت

الدائرة العسكرية الإشراف على كلية أركان حرب الثورة الفلسطينية، ومهمتها تدريب الضباط، وإعدادهم للخدمة في صفوف القوات، التي عانت من محدودية فعاليتها؛ لوجودها خارج الأراضي فلسطينية(٥).

قوات التحرير

إذا كان «جيش التحرير الفلسطيني» أحد أطراف النزاع الأساسية في الصراع، جنوب لبنان ١٩٧٥-٢٠٠٠، ومشاركته في حرب أكتوبر ،إلى جانب الجيش المصري، وكذلك في معركة الكرامة، إلى جانب الجيش الأردني، وشارك في أحداث أيلول الأسود في الأردن، بين المقاتلين الفلسطينيين والقوات الأردنية.

*انتهت الهجمة الإسرائيلية (صيف١٩٨٢)، باتفاق على خروج القوات الفلسطينية من بيروت، حيث تناثرت هذه القوات بين سوريا، ومصر، والسودان،و اليمن، شماله وجنوبه، وليبيا، وتونس، والجزائر، والعراق؛ وبعد الخروج، اندمجت القوات الفلسطينية بجيش التحرير، وسُمي الجسم الجديد «جيش التحرير الوطني الفلسطيني»، وإن بقي الجزء المرابط في سوريا من ذلك الجيش، حاملاً الاسم القديم؛ وحين دخلت السلطة إلى الضفة والقطاع، حمل من تبقى من جيش التحرير اسم «جهاز الأمن الوطني ".

كما قام عرفات، بإرسال ٣٠٠٠ مقاتل من الجيش إلى العراق، أثناء الغزو الأميركي للعراق؛ فإن ظهور الأجنحة العسكرية، شكلت «قوات التحرير الشعبية»؛ التي تمثلت في الجناح الفدائي لجيش التحرير الفلسطيني ، وشكل عتاده دبابات تي-٥٤ ، ومدرعات بي تي أر-١٥٢ ، ومدرعات UR-٤١٦، ومدرعات بي تي أر-٤٠، ودبابات تي-٣٤، ودبابات زي أس يو-٢٣-٤ شيلكا، ومدافع ميدان ١٢٥ ملم، ورشاشات مضادة للطائرات ، وقاذفات آر بي جي،و راجمات صواريخ غراد، بعد تعاظم شأن المنظمات الفدائية، ولا سيما حركة "فتح" و"الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»، و»الجبهة الديموقراطية لتحرير فلسطين»، و»جبهة التحرير الفلسطينية» (الجبهة الشعبية – القيادة العامة، في ما بعد)، و»جبهة النضال الشعبي الفلسطيني»، حيث كان لقوات التحرير الشعبية في الأردن مجموعة من القواعد الفدائية: في القطاع الأوسط، بقيادة أحمد صرصور، وفي القطاع الشمالي، بقيادة يحيى مرتجى، وفي الكرامة، بقيادة نمر حجاج، علاوة على مركز تدريب في جرش، بقيادة وليد أبو شعبان، ثم توالى على قيادته كل من فايز جراد، وأحمد صرصور، ومحمد رزق أبو عبده. وقد تولى العقيد عبد العزيز الوجيه القيادة العامة لقوات التحرير الشعبية، في بداية انطلاقتها، وخلفه العقيد بهجت الأمين. وكان من بين ضباطها البارزين،الذين عملوا في قطاع غزة ، زياد الحسيني، وعبد القادر أبو الفحم، وجبر عمار، الذي صار أحد مؤسسي «حركة الجهاد الإسلامي»، مع رفيقه مصباح الصوري (٦).

لقد كان العمل الفدائي عنوانًا رئيسيًا من عناوين الفعاليات، التي دشنتها كوادر الانتفاضةالأولى (١٩٨٧-١٩٩٢)، من مختلف القوى الفلسطينية؛ فإلى جانب الفعل الشعبي الكبير، وإلى جانب الحجارة، وزجاجات

المولوتوف ،كانت الانطلاقة المتسارعة للعمل العسكري المقاوم.

بيد أن تشكيل الأجنحة العسكرية للأحزاب، والفصائل الفلسطينية، الوطنية والإسلامية، تسارع، بعد انطلاقة الانتفاضة الثانية(٢٠٠٠-٢٠٠٤)، وكأمثلة على ذلك: «كتائب شهداء الأقصى،» التي تتبع حركة فتح، و»كتائب عز الدين القسام»، التي تتبع حركة حماس، و»سرايا القدس» التي تتبع حركة الجهاد الإسلامي؛ وكذلك الأجنحة العسكرية التي تتبع الجبهتين: الشعبية،والديمقراطية، فضلاً على أجنحة الفصائل الأخرى.

بالرغم من حرص القيادة على تشكيل «قوات التحرير الشعبية»، فإنها لم تنجح ، بالشكل المرغوب فيه، حيث قابلتها العديد من الصعوبات، لعل أهمها(٧):

١ـ القرارات الكثيرة المتناقضة، التي كانت تصدرها اللجنة التنفيذية للمنظمة، بغية وضع العراقيل والصعوبات أمام القيادة العسكرية، فتارة تصدر قرارًا بجعل العمل النضالي لقوات التحرير، مرتبطًا بالقيادة العامة لجيش التحرير، وآخر يجعله مرتبطًا بالمستوى السياسي للمنظمة؛

٢ـ كثيرًا ما كانت القيادة السياسية للمنظمة تطبِّق الجوانب الروتينية في إجراءاتها، نحو ذلك العمل، مما أدى إلى عرقلته؛

٣ الاعتماد على المورد المالية التي يدفعها الفلسطينيون فحسب، مع العلم أن هناك بعض الدول العربية قادر على مد العمل الفدائي، بكل ما يلزمه من المال.

أما الفصائل الفدائية الفلسطينية، فبدلا من أن تستثمر السانحة الذهبية، المتمثلة في انتشار القوات الإسرائيلية، في المناطق التي احتلتها في حرب ١٩٦٧م، (قطاع غزة، الضفة الغربية، سيناء المصرية، والجولان السورية)، لتضع تلك الفصائل صيغة «حرب التحرير الشعبية»، موضع التطبيق، وقد غدا العدو في متناول اليد؛ وهي الصيغة التي تجعل لكل فرد في الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة حديثًا،آنذاك، دورًا، في مقاتلة الاحتلال؛ وبدلاً من ذلك، حرصت قيادات الفصائل، كل الحرص، على الاكتفاء برفع شعار «حرب التحرير الشعبية»، والتثقيف بها، فيما عمدت تلك القيادات إلى الاكتفاء بخوض «حرب كوماندوز»، حيث عمدت الفصائل إلى إرسال مقاتليها من خلف الحدود، إلى داخلها، مما عرَّض أولئك المقاتلين لأخطار جمَّة، في غير موقع؛ وهم يعبرون الحدود؛ أو في طريقهم من الحدود إلى مواقع الجيش الإسرائيلي؛ فضلاً على مرتين أُخريين، في طريقهم للعودة(٨). والدليل على ذلك، معركة الكرامة، التي اعتُبرت أبرز إنجاز عسكري فلسطيني في تاريخ الحركة الفدائية الفلسطينية، نتيجة لاضطرار العدو، المنتشي بانتصار حزيران/ يونيو، إلى الانسحاب من منطقة الكرامة، دون تنفيذ أهدافه كاملة، خاصة الهدفين، العسكري ،والنفسي؛ ورغم كثرة الخسائر البشرية في صفوف القوات الفلسطينية، التي بلغت٣٣ شهيدًا، من «قوات التحرير الشعبية». فإنها اعتُبرت منتصرة، بالمقاومة التي صمدت في وجه العدو، وبالآفاق التي فتحتها «الكرامة» أمام العمل الفدائي الفلسطيني، مما

جعل العلاقة العربية الرسمية مع حركة التحرير والمقاومة الفدائية مطلبًا تكتيكيًا ملحًا، للعديد من الزعماء والمسؤولين العرب(٩).

من ناحية أخرى، احتلت حركة «فتح» مكانة بارزة، شعبيًا ورسميًا، وأُعلن ياسر عرفات ناطقًا رسميًا باسم الحركة، في ١٥ نيسان/أبريل ١٩٦٨، كما دخلت العلاقة المصرية مع «فتح» مرحلة إيجابية، من الاتصال ، والتعارف، إلى التعاون، وهذا ما مكّن عرفات من أن يصبح رئيسًا للمنظمة، ١٩٦٩، عقب إعادة تشكيل المجلس الوطنى الفلسطيني، مما جعل الحركة والقيادات الفلسطينية، ناهيك عن حركات المقاومة ، يبالغان في التفاؤل، مما أفقدهم توازنهم، في أكثر من معركة، أتت بعد ذلك(١٠).

كل ما سبق أضعف العمل الفدائي لجيش التحرير، بل أصابه بالشلل، أمام قدرة العدو، التي لا تكل ولا تمل، والذي كانت من أهم أهداف ذاك العمل (١١):

١ـ إعادة ثقة الشعب العربي بنفسه، بعد نكسة ١٩٦٧؛

٢ـ التأثير على اقتصاد العدو، وإفشال المخطط الصهيوني ،في جلب مهاجرين يهود جدد، إلى الأراضي الفلسطينية؛

٣ـ إعادة الثقة إلى نفوس الشعب الفلسطيني، في الأراضي المحتلة ، وخارجها، وإعطائه دوراً طبيعياً في معركة التحرير؛

٤ـ توعية الرأي العام العالمي بأن هناك شعبًا، هو الشعب الفلسطيني، شُرِّد من وطنه، ليحل محله دخلاء؛

٥ـ ضرب مخططات الاستيلاء على الأراضي الفلسطينية، دون وجه حق.

ما جعل العديد من التحديات تواجه الكفاح المسلح ، بشكل عام، فقد كان متوقعًا أن تؤدي الممارسات العسكرية المتفرقة للفدائيين الفلسطينيين، في الأراضي الفلسطينية المحتلة، إلى تحويلها لحركة جماهيرية، ولكن النتائج جاءت مغايرة للتخطيط، فقد توقفت غالبية التنظيمات الفلسطينية عنه، وبقيت حركة «فتح» تقوم ببعض العمليات العسكرية المتفرقة، والمتباعدة زمنيًا، وكان أكبر اختبار لمدى حضور الكفاح المسلح في الأراضي المحتلة، هو الفترة العصيبة التي مرت بها حركة المقاومة الفلسطينية، في لبنان (١٩٧٢ - ١٩٨٢)؛ كما أنه لايمكن التقليل من غيرة وحماسة المناضلين الفلسطينيين، لممارسة الكفاح المسلح.وفي الوقت الذي لم يتوقف هذا الشكل الكفاحي، فإنه لم يتطور، الأمر الذي لا يعود إلى رغبة ذاتية، عند أولئك المناضلين، ذلك أن هنالك أسبابًا، لم يكن بإمكانهم تجاوزها(١٢).

كما لا ننسى أن استراتيجية «حرب التحرير الشعبية» ، بالرغم من هذه التحديات، فإن أساليب القتال المتبعة من قبل المقاومة، والحالة المعنوية لدى الجماهير الفلسطينية، هي التي جعلت الجيش الإسرائيلي يفشل في العدوان على لبنان، صيف العام ١٩٨٢م، في تحقيق أهدافه، فبدلاً من أن يُنجز مهمته، خلال أسبوع واحد،

كما كان مخططًا له، نرى ذلك الجيش يضطر لخوض حرب مستمرة، لنحو ثلاثة أشهر متصلة، بالرغم من عدم التكافؤ في المعركة، ما بين الطرفين، كما ذكرنا سالفًا. كما أثبتت حرب العام ١٩٨٢م، أن الجيش الإسرائيلي يمكن أن يُقهر، أمام صمود المقاتلين والمناضلين، وكان لهذا الدرس أثره على الجماهير العربية، فلسطينية وغير فلسطينية ، وأثره السلبي، من ناحية أخرى، على التجمُّع الصهيوني. وقد أعادت هذه الحرب الاعتبار، بشكل ما، إلى الكفاح المسلح، وللصورة القتالية لمنظمة التحرير. فحرب العام ١٩٨٢ شكّلت، بحق، منعطفًا نوعيًا في الصراع العربي - الإسرائيلي(١٣).

عند تفحُّص الوضع في الضفة الغربية وقطاع غزة، نجد أمامنا منطقتين سكانيتين منعزلتين عن بعضهما البعض، ويمثل سكانهما نحو ٣٥٪ من عدد سكان الوطن المحتل، والمقيم في نفس الوحدة الجغرافية(فلسطين)، وهو لا يحتاج لنقل قواته إلى آلاف الأميال، والأعباء المالية، التي يعود مردودها السلبي، بتزايد المعارضة الإسرائيلية الداخلية للحرب؛ ولا يشعر موظفوه، وعساكره، بالغربة، وعدم الانتماء للبلد الذي يحاربون شعبه، وإنما يؤمنون بأن هذا البلد هو بلدهم، وتربطهم به روابط دينية، و»قومية» ؛ وأن الشعب الفلسطيني المقيم فيه، هو مجرد مجموعة من السكان، غير المرغوب في بقائها. وبصرف النظر عن عدم موافقتنا على تفكيرهم هذا، وقتالهم (الإسرائيليين)، فإن الجيش، وأجهزة القمع الإسرائيلية لا تعتبر نفسها تقوم بمهمة محاربة شعب آخر، ولا احتلال أرض أخرى، بل تعتبر نفسها تقوم بمهمة «تحررية»، وتحافظ على «ترابها الوطني»، وبيوتها، ووجودها، باعتبار أن ليس لها مكان آخر، تذهب إليه(١٤).

على الصعيد العملي، يمكن لأي إنسان ملاحظة أن الشعب الفلسطيني، في الضفة والقطاع، واجه قوة عسكرية، تفوقه عددًا وعدة، ومعبأة أيديولوجيًا، باعتبارها قوة «محرِرة»، لدرجة أن أي موقع في الضفة الغربية لا يستغرق نقل الجنود الإسرائيليين إليه، إلا بضع دقائق، إذا ما كانت الحاجة لذلك شديدة الإلحاح؛ وقد أضيفت إلى هذه الخاصية، بناء عدد ضخم من المعسكرات، أشبه بمستعمرات، في مختلف المناطق، بحيث تكفي نظرة واحدة إلى توزيعها، لملاحظة أن الضفة الغربية مقسَّمة إلى مربعات، ترابط على زواياها مستعمرات كولونيالية مسلحة؛ وقد وصفها شارون بأنها جزء من « نظام الدفاع الاستراتيجي» عن إسرائيل . وإلى جانب هذا، فإن الضفة، والقطاع مطوَّقان، كليًا، من الجهات الأربع. والمميزات، التي تمتعت بها الحركات المسلحة، المضروب بها الأمثلة، غير متوفرة؛ فليس هناك فيتنام الشمالية ، ولا دول الخط الأول في أفريقيا، بالنسبة لأنغولا، وزيمبابوي، كموزمبيق، وزامبيا، ولا أنغولا بالنسبة لناميبيا. هذه العوامل جميعها لم تساعد الحركات الفلسطينية المسلحة على بناء حركة مسلحة في المناطق المحتلة، واضطرتها، عمليًا، إلى التوقف عن الممارسات التي بدأتها، بعد هزيمة حزيران/يونيو ١٩٦٧م، ولم يكن ذلك لنقص في الرغبة، أو في البسالة، التي أظهرها الفدائيون، وإنما كان تحت وطأة العوامل التي أشرنا إليها(١٥).

فإذا كانت التجربة العملية، ونتائجها، هي برهان أكيد، فإن الصورة الحالية تعزز وجهة النظر القائلة بأن

الوضع الاستثنائي الذي كان القائمًا في المناطق الفلسطينية المحتلة، منذ الاحتلال الإسرائيلي (١٩٦٧) عمومًا، وبعد خروج المقاومة من الأردن (صيف١٩٧١) خصوصًا،لم يكن يسمح بممارسة «قوات التحرير الشعبية» للكفاح المسلح. ونضيف إلى ذلك، أن آلاف المناضلين من أبناء الشعب الفلسطيني، ومن منظمات المقاومة الفلسطينية المسلحة، قدموا تضحيات هائلة ،في سبيل تصعيد المقاومة؛ غير أن ما يستوجب أخذه بعين الاعتبار، وفقًا لدراسة أجرتها المحامية اليسارية الإسرائيلية المعروفة، ليئا تسيمل، أن أكثر قليلاً من ٩٠٪ من المسجونين، بتهم أمنية، أُلقي القبض عليهم، قبل أن يقوموا بأي عمل عسكري؛ وهذا يكشف، أيضًا، وبسبب العوامل التي ذكرناها في السابق، عن المصاعب التنظيمية الكبيرة، التي سبَّبها واقع وجود شعبنا، كأقلية، في هذه الرقعة، التي تتواجد عليها قوة مسلحة، تعتبر نفسها صاحبة الأرض، وتعد أكثر بكثير من عدد الفلسطينيين، أصحاب الأرض الأصليين(١٦) .

من هنا، نلاحظ أنه بالرغم من هذا الشوط الكبير، الذي قطعه «جيش التحرير» ، وما بذلته «قوات التحرير الشعبية» ، فإن عقد الأخيرة انفرط ، في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧١ ، عندما سُرِّح رئيس الأركان، اللواء عبد الرزاق اليحيى، والنقيب حسين الخطيب، قائد قوات التحرير في غزة، وحين أصدر ياسر عرفات، في ١٩٧٢/٩/٢٨ ، قرارًا قضى بتحويل مخصصات جميع أعضاء ق. ت. ش. إلى سجلات حركة فتح. وهكذا بدأت رحلة قوات التحرير الشعبية نحو الاضمحلال التدريجي، واندثرت هذه التجربة، تمامًا، فيما بعد، من دون أن تترك أثرًا مميزًا في التجربة العسكرية الفلسطينية. ولعل من الظلم تحميل هذه التجربة أكثر مما تحتمل، مع أنها قدمت شهداء كثيرين، في مجرى الكفاح الفلسطيني المسلح.

غير أن خضوعها لتجاذبات شتى، فلسطينية وعربية، وخصوصًا الفلسطينية، جعلها تصاب بالشلل، أحيانًا، وبالتهميش، في معظم الأحيان. فقائد قوات التحرير الشعبية تابع لأركان جيش التحرير الفلسطيني، المنقسم بدوره، بحسب المحاور العربية الأساسية (مصر، وسورية، والعراق). والقائد النظري لجيش التحرير هو ياسر عرفات، وهو، في الوقت نفسه، قائد منظمة التحرير الفلسطينية، وحركة فتح معًا. لهذا كان كثيرون ينظرون إلى «قوات التحرير الشعبية»، كمنظمة فائضة، والأجدى أن ينضم عديدها إلى «فتح». أما جيش التحرير، فبسبب الولاءات المتعددة لقواته، بحكم جغرافية انتشاره، فقد اعتبره كثيرون عبئًا على «منظمة التحرير الفلسطينية»، وهو شأن موروث» كمؤسسة» لا بد منها بحكم الأمر الواقع(١٧).

وبين هذه الاعتبارات كلها، ضَمُر دور «جيش التحرير الفلسطيني»؛ حتى كاد يتلاشى، تمامًا، ولا سيما بعد الخروج من لبنان (١٩٨٢)، مثلما تلاشت «قوات التحرير الشعبية» حتى قبل الانتقال إلى لبنان، أواخر١٩٧١. والفارق أن هيكلية جيش التحرير لا تزال تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ، لأن بقاياه ما برحت موجودة في سورية، والأردن.

الهوامش

(١)جنان أحمد، قوات التحرير الشعبية، في : عبد القادر ياسين(تحرير)، أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية،دمشق، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات،٢٠٠٦، ص١٢٥.

(٢) أنور محمود، الأصداء العربية لظهور المنظمة، في:عبد القادر ياسين[تحرير]، أربعون عامًا من حياة منظمة التحرير الفلسطينية،دمشق، المركز الفلسطيني للتوثيق والمعلومات،٢٠٠٦، ص ١٦٥ ـ١٦٦.

(٣) يزيد صايغ، الكفاح المسلح والبحث عن الدولة الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٤٩ ١٩٩٣م، ترجمة : باسم سرحان ،بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٢م، ص ٣٧. ٤٠.

(٤)سامي مسلَّم، البنية التحتية والهيكل المؤسساتي لمنظمة التحرير الفلسطينية، شؤون فلسطينية(نيقوسيا) العدد ١٦٦ ـ١٦٧، كانون الثاني/ شباط (يناير فبراير١٩٨٧)،ص٣١؛

ـ راشد حميد، مقررات المجلس الوطني الفلسطيني ١٩٦٤ ـ١٩٧٤، بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث ، ١٩٧٥،ص٥٣ ، ١٢١، ١٢٦؛

ـ محمد السيد سليم، السياسة الخارجية لمنظمة التحرير، ص٤٣٢.في: بهجت قرني؛ وعلي الدين هلال، السياسات الخارجية للدول العربية، ترجمة: جابر سعيد عوض، القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، ١٩٩٤؛

ـ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، المجلد الرابع، دمشق، ١٩٨٤،ص٣٢٥.

(٥) مسلَّم،المرجع نفسه،ص٣

(٦) انظر : مراجعة كتاب : علي بدوان، العنب والرصاص، دمشق، ٢٠٠٧، بقلم: نبيل السهلي، الجزيرة نت

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/books/200713/5//%D8%A7%D984%%D8%B9%D986%%D8%A8-%D988%%D8%A7%D984%%D8%B1%D8%B5%D8%A7%D8%B5

(٧) علي فياض، خمسون عامًا، على النكبة تجربة فلسطينية مشرِّفة في المقاومة والكفاح المسلح، صامد الاقتصادي(بيروت)، دار الكرمل للنشر والتوزيع، العدد ١١٤، تشرين الأول/أكتوبر، تشرين الثاني/نوفمبر، كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨، ص ٣٤ ،٥٨،٤٠.

(٨) المرجع نفسه، ص٤١.

(٩) عبد الله محمود عياش، جيش التحرير الفلسطيني وقوات التحرير الشعبية ودورها في مقاومة الاحتلال، بيروت، مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٤م،ص٢٣١،٢٣٠.

(١٠)المرجع نفسه، الصفحات نفسها.

(١١)المرجع نفسه، ص٢٤٢.

(١٢)د. جمال العرجا، الكفاح المسلح شكل من أشكال النضال مارسه الشيوعيون الفلسطينيون، ٢٠ آيار /مايو ٢٠٠٩.

http://palpeople.ahlamontada.com/t705-topic

(١٣) عبد القادر ياسين، سميح شبيب، ماجد كيالي، ندوة: الكفاح المسلح الفلسطيني التجربة والمحددات، شؤون فلسطينية (نيقوسيا)، العدد ٢٤٤ـ٢٤٥، تموز/ يوليو، آب/أغسطس١٩٩٣م. انظر : العميد أبو أحمد فؤاد، عضو المكتب السياسي والمسؤول العسكري للجبهة الشعبية ، عضو المجلس العسكري الأعلى لـ م.ت.ف.، ص٩٩ـ١٠٠.

(١٤) العرجا، مرجع سبق ذكره.

(١٥)المرجع نفسه.

(١٦) عياش، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧٥:٤٧٧.

انظر، أيضًا:

ـ فياض، مرجع سبق ذكره ، ص ص٣٤ ـ٥٨؛

ـ محمد كريشان، ثلاثون عاما من الكفاح الفلسطيني، الجزيرة نت، ٢٠٠٥/١/١٠؛

http://www.aljazeera.net/programs/guest-and-an-issue/200510/1//%D8%AB%D984%%D8%A7%D8%AB%D988%%D9%

ـ مقابلة مع عبد القادر ياسين، في منزله، بالقاهرة، ٢٠١٤/٩/٢٢م.

(١٧) ماجد كيالي،نظرة نقدية في التجربة العسكرية الفلسطينية، شؤون فلسطينية(رام الله) العدد ٢٤٦ ، خريف ٢٠١١م،ص١١٠: ١٢٢.

الفكر الوطني الثوري في الممارسة
مختارات من ندوات وخطب ومداخلات الشهيد أبو إياد

محمد البريم*

جاء كتاب الفكر الوطني الثوري في الممارسة للكاتب يحيى يخلف في ٣٠٦ صفحة الصادر عن مكتب الشؤون الفكرية والدراسات في حركة فتح ويتناول فيه، مختارات من ندوات وخطب ومداخلات الشهيد ابو اياد، والتي أرخ فيها للثورة والتجربة الكفاحية الفلسطينية ووضع ركائزومداميك النضال الوطني الفلسطيني وقدم معالجات لهذه المرحلة واعاد تصحيح كتابة تاريخ الثورة من المغالطات والالتباسات والتزوير وكان احد صناع القرار واحد المساهمين في صناعة الحدث.

ووصف يخلف هذا الكتاب أنه بمثابة شهادات شجاعة وضع فيها الشهيد ابو اياد النقاط على الحروف وحاول فيها بالرغم من حالات الحصار أن يرى بصيص الأمل، وبقعة الضوء.

وايضا قال عنها إنها شهادات تصنع فضاءها الخاص في زمن الانتفاضة، وتمنح صدقها الخاص فترتفع إلى مستوى المرجع وترتقي إلى درجة الوثيقة، مضيفا ان شهادة الشهيد القائد الرمز أبو اياد هي شهادة الواقع؛ مؤكداً ان قراءاتها تشكل مرآة صادقة لهذا الزمن العربي، الذي شهد حالات انكسار ونهوض، وحالات مد وجزر وحالات انتصار وهزائم، حالات وحدة صف وحالات احتراب.

وتكون الكتاب من عدة فصول جاء الفصل الاول بعنوان: «البنادق كل البنادق نحو العدو الصهيوني» كلمة للأخ أبو اياد أمام عشرين ألف مواطن في ذكرى ١٥ ايار في عمان ١٩٧١

ويتحدث ابو اياد في هذا الفصل: "لقد مضى على انسحاب الفدائيين من عمان أكثر من شهر، وهم الآن واقفون على الحدود ينتظرون أخوتهم في القوات المسلحة أن يكونوا على النهر، حتى تكون

* كاتب فلسطيني

البنادق كل البنادق نحو العدو الصهيوني وعندما انسحب اخوانكم من عمان لم يكن انسحابهم إلا من أجل أن يجنب هذا البلد، ومن أن يجنب اخوتنا في القوات المسلحة واخوتنا الفدائيين معركة لايستفيد منها أحد، ولايستفيد منها الا العدو الصهيوني ويشهد الله أننا نحن من هذا الشعب الذي لايخاف ولايهاب وكما قلت أننا لسنا ممن يخاف أو يهاب، ولسنا جبناء وعندما قررنا أن نكون ثواراً كنا نعرف أن الثوار يتعرضون للموت وأن الموت بالنسبة لنا هو شي عادي لأنه يصنع حياة جديدة».

"أيها الاخوة؛ أرجو أن نستمع قليلاً فنحن عندما قررنا أن نثور ما قررنا أن نحمل البندقية، وما قررنا أن نحمل السلاح من أجل أن يوجه هذا السلاح إلى صدر أي أخ عربي أو أي جندي أردني، إنما حملنا هذا السلاح، من أجل أن نقاتل العدو الصهيوني ومن أجل أن نغلق هذه المخيمات ومن أجل أن تعودوا إلى أرضكم المحتلة". صفحة (١٩)

ويقول ابو اياد في نفس الفصل : "إن العبيد لاتقاتل لا يقاتل إلّا الأحرار، ولن نقبل اطلاقاً أن نكون عبيداً لأي سلطة ولأي حكومة لأننا نحن انطلقنا من أجل هدف سامي".

يعرف الجميع اننا قد اعلنا مراراً اننا لانتدخل بالشؤون الداخلية فلا يهمنا أن يكون الحاكم فلاناً أو الحاكم علاناً... و حتى لا نعطي لأي دولة عربية أي مبرر للانقضاض علينا، وضربنا وتصفيتنا. صفحة (٢٢)

وجاء الفصل الثاني بعنوان: " حول الاوضاع الفلسطينية والعربية " لقاء للاخ ابو اياد مع اتحاد طلبة فلسطين في القاهرة ١٥-٧-١٩٧٣ ويتحدث فيه ابو اياد عن المجهود الضخم الذي تقوم به الاستخبارات الأميركية مستعينة بالاستخبارات الإسرائيلية من أجل ضرب الثورة الفلسطينية وتصفية الوجود الفلسطيني من خلال محاولة الاستخبارات الأميركية، اغتيال القادة الفلسطينيين، وسبب ذلك انه بعد حوادث جرش وعجلون وبعد حوادث عمان اعتبروا أن الثورة الفلسطينية قد انتهت.

وقالوا: إن هذه الثورة حكم عليها بالفناء وقدروا لها شهرين أو ثلاثة حتى تنتهي، وقاموا بحرب نفسية خلال الأشهر الثلاثة التي أعقبت جرش وعجلون من اجل تفتيت وحدة قوى الثورة الفلسطينية.

والضرب في داخل الثورة الفلسطينية على أساس أن تحدث انشقاقات، على أن يتبعها محاولات مستمرة من أجل بعثرة الجهد الفلسطيني كله، ولكن هذه المحاولة فشلت ولم يكتب لها النجاح". صفحة(٣٣-٣٤).

ويتطرق ايضا إلى ضرب قوات الثورة الفلسطينية قائلاً: « فكان اللجوء اذن إلى ضرب هذه القيادات عملياً ابتداءً من العاشر من نيسان عندما نجحوا في عملية اغتيال إخوتنا القادة الثلاثة، ابو يوسف النجار وكمال ناصر، كمال عدوان، واقول عملية اغتيال تجاوزاً لانها لم تكن عملية اغتيال ولكن عملية اجرامية وضح فيها الحقد الأميركي، واصر على الحقد الأميركي؛ لان الحقد لم يكن إسرائيلياً ، إنما كانت الخطة أميركية بوجه أو بغطاء إسرائيلي، حيث لايمكن أن يصدق العقل أن اكثر من ستين فرداً يدخلون إلى قلب عاصمة عربية، المفروض ان لها أجهزة امن وأجهزة مخابرات تلاحق بالدقيقة كل محاولات أو على الأقل محاولتنا نحن على التحرك ونعرف انهم يرصدون كل تحركاتنا خطوة خطوة هذه الاجهزة الجبارة لايمكن أن يخفى عليها دخول ستين إسرائيلياً مرة واحدة على بيوت ثلاثة من القادة احتراماً لسيادة لبنان واحتراما لارض لبنان وصفو لبنان، لبنان السياحي، لايعقل اطلاقا أن مثل هذا العدد الكبير الضخم أن يأتي إلى لبنان وينفذ جريمته النكراء وسلطات الأمن في لبنان لاتعرف شيئاً عن الموضوع، إلا اذا كان هناك فرع في السلطة أو عناصر في السلطة هي التي اسهمت مع المخابرات الاميركية والمخابرات الإسرائيلية في عملية الغدر برفاقنا الثلاثة ابو يوسف، وكمال ناصر وكمال عدوان، وكنت اتمنى، وفعلا اتمنى على كل العالم العربي وكل الاصدقاء في العالم أن ينظروا إلى جثث الشهداء وهي ملقاة على الارض، كنت اتمنى ذلك حتى يروا مدى الوحشية وخاصة اولئك الذين يرفعون اصواتهم الآن عالياً متحدثين عن الارهاب الفلسطيني.

واذا عرفتم أن بيوت الاخوة لم تكن تبعد عن مركز الجيش اللبناني أو الشرطة اللبنانية أو الدرك اللبناني بعشرين متراً أو ثلاثين متراً، عرفتم مدى المؤامرة الكبيرة التي حدثت في بيروت في العاشر من نيسان".

صفحة (٣٥-٣٦).

وجاء الفصل الثالث بعنوان: السلطة الوطنية لماذا؟ ندوة للاخ ابو اياد في الجامعة الأميركية بيروت ٢٤-٣-١٩٧٤

ويقول ابو اياد: "في عام ١٩٦٥ عندما انطلقت فتح لم يكن العدد كبيراً في فتح، كان العدد بسيطاً جداً، وانما كانت الفكرة في نظرنا كبيرة جداً، لأننا كنا نعتقد أن الرصاصات التي سنطلقها في الاراضي المحتلة، لايمكن أن تعيد لنا فلسطين، انما لها مردود على نفسية الانسان الفلسطيني، لابد وأن يشعرهذا الانسان أنه موجود أولا". صفحة (٦٧)

ويجيب ابو اياد عن العنوان العريض في الفصل الثالث بالقول « ويمكن واحد يسأل، الجماعة عندما يطرحون هذا الطرح فهل يعني هذا انهم تعبوا، أنا أحب ان اطمئنكم، الذين تعبوا لايطرحون هذا

الطرح، ولايقولون أي شبرمن فلسطين يجلو عنه الاحتلال يجب ان نقيم عليها سلطتنا الفلسطينة. لماذا؟ صفحة (٧١)

ويقول: "وتكون سلطة وطنية، يعني سلطة وطنية بلا اعتراف ولا صلح، سلطة وطنية نبنيها نحن من أجل أن نكمل مسيرة التحرير على أرضنا.

هذا الذي اطلبه من السلطة الوطنية لذلك أنا لا أفهم هذه السلطة أنها تأتي للزحف على البطون، ولا بالركوع ولا بالسجود

هذه السلطة تأتي ما دامت بنادقنا مشرعة، أن كل انسان يعتقد أننا نريد أن ننقلب من ثوار إلى حكام فهو مخطئ". صفحة (٧٢)

وجاء الفصل الرابع بعنوان: التكتيك لايكون على حساب المبادئ والأهداف... كلمة للاخ ابو اياد في مهرجان شهداء منظمة العمل في صيدا ١٠-١١-١٩٨١

ويقول فيه: " في ذكرى هؤلاء الشهداء الأبطال لايسعني إلا أن اقول لرفاقنا وعلى رأسهم الاخ محسن ابراهيم في منظمة العمل بأنه ليس غريباً عليكم أن تقدموا الشهيد تلو الشهيد وقد راياكم في كل المواقع تقاتلون معنا دفاعاً عن هذه الثورة الفلسطينية دفاعاً عن لبنان الواحد، لبنان العربي لبنان التقدمي، وجدناكم في كل هذه المواقع ومن يتواجد في هذه المواقع الكبيرة لابد أن يقدم الشهداء الكبار، ومن هنا على مسيرة شهدائنا كلهم وشهيدنا معروف سعد وشهيدنا كمال جنبلاط وابنائنا الذين قدموا لهذه الثورة دمهم الغالي من اجل حماية شعب فلسطين وثورة فلسطين ومن أجل عروبة لبنان ووحدة لبنان"... صفحة(٨١)

والفصل الخامس جاء بعنوان: « دخول الجيش الإسرائيلي إلى بيروت والوضع العربي الراهن حديث لابو اياد في مكتب حركة فتح بالكويت ١٩٨٢

ويقول فيه ايضا: «خروجنا من بيروت لأسباب انسانية من أجل الاطفال والشعب اللبناني الأبي الذي يتحمل تقصير الدول العربية ولا أقول الأمة العربية

اخذت الحكومة اللبنانية تعهداً ولدينا صورةعنه، تعهداً أميركياً وفرنسياً وايطالياً وثائق رسمية لدى الحكومة اللبنانية ولدينا نسخ عنها، هذه الوثائق تقول: أن لاتدخل القوات الإسرائيلية بيروت الغربية ولا أي منطقة من لبنان بعد انسحاب القوات الفلسطينية من بيروت الغربية، واكثر من ذلك فانهم أي الإسرائيليون سوف ينسحبون من بيروت الشرقية وكل المناطق المحيطة قال فيليب حبيب للوزان انهم سيخرجون إلى الزهراني واذا كانت بعض الأمور الأمنية فسينسحبون إلى صيدا،

هذه أول وثيقة أميركية ولن احمل الفرنسيين والايطاليين الكثير لأن هذه اللعبة كانت أميركية إسرائيلية. صفحة (٨٩-٩٠)

وجاء الفصل السادس بعنوان: «الحروب العربية الإسرائيلية ومعركة لبنان» ندوة للاخ أبو اياد في يوغسلافيا ٥-١٢-١٩٨٢

ويتحدث فيه عن معركة لبنان بوجه عام وبيروت بوجه خاص وخسارة هذا الموقع الهام كما يتناول حرب الاستنزاف وحرب ٦٧ . صفحة (١١٦).

ويختم ابو اياد حديثه في هذا الفصل قائلاً: «فلذلك اقول نحن كشعب فلسطيني كان لابد من أن نعود إلى الخارطة السياسية، قيمة كل نضال شعبنا في عام ١٩٦٥ أنه أعاد هذا الشعب الفلسطيني إلى الخارطة السياسية ولما اعادنا إلى الخريطة السياسة عطل الحلول السياسية، نقول عقدها، لأنه ليس بالصدفة من عام ١٩٧٤ قلنا نريد دولة فلسطينية مستقلة على أي قطاع من ترابنا الفلسطيني، ولما كان السادات بيقول باذكر كنت انا والاخ ابو عمار قال لنا يا اخ ليش توسخوا ايديكم بالحل خلي الملك حسين يعمل حل ويمضي.

شو بدكم بالحل خلي الملك حسين يعمل إمضاء وانتم خليكم نظاف انا رديت عليه، انا اليوم كنت بحكي لاخواننا الطلاب ايش الواحد طموحه ان يكون وزيراً؟ والله أنا شايف حالي أكبر من كل الوزراء العرب حتى وزراء عدم الانحياز، المهم أقول ليس للانسان هدف إلا أن يعيد شعبه مرة ثانية إلى الخريطة السياسية وباعتقد هذه الخريطة السياسية هي التي ازعجت كل حلول التسوية». صفحة (١٣٧)

والفصل السابع حمل عنوان: «معركة التمثيل الفلسطيني» كلمة الاخ ابو اياد بمناسبة يوم التضامن مع الشعب الفلسطيني. المانيا ١٩٨٣

يقول فيها: اخواتي، اخوتي

"عندما طلب مني الاخ عبد الله الافرنجي أن احضرهذا اللقاء حسبتها في البداية فرصة، فلم أكن أصدق انني استطيع فعلاً الدخول إلى هنا لألتقي مع شعبنا واخواتي واخواننا الفلسطينيين والعرب في المانيا... حيث أنني منذ عام ١٩٦٦ دخلت المانيا متسللاً أنا وأخي أبو اللطف من أجل البحث عن نواة تنظيم لحركة فتح في هذا البلد، واذكر أننا قضينا بضعة أيام كان فيها الأخ عبد الله وبعض اخواني هاني الحسن وهايل الحسن وهايل عبد الحميد وحمدان وإخرين، وبالفعل كانت زيارة خاطفة... وهانحن بعد أكثر من ١٧ عاماً نلتقي مرة ثانية في المانيا». صفحة (١٤١)

والفصل الثامن حمل عنوان: معركة القرار الوطني الفلسطيني... حول الجهود من أجل الوحدة الوطنية والمجلس الوطني في عمان. لقاء الاخ ابو اياد مع رجال الصحافة. الكويت ١٦-٤-١٩٨٤

ويتناول فيه الجهود المبذولة لعقد المجلس الوطني في الجزائر أو عدن أو أي عاصمة عربية تقبل بدون تحديد

ويقول فيه: « احب أن اقول لكم شيئاً لاتراجع عن هذا القرار المجلس سيعقد في ٢٢ نوفمبر باذن الله، وهذا ليس تحد لأحد ونحن لانتحدى احداً، نحن كنا تحت وطأة التحدي طيلة ٢٦ شهراً الماضية ومن اجل هذا الشعب الفلسطيني ومن أجل وحدته تحملنا الاذى، وتحملنا الالفاظ القاسية، والكلمات القاسية وتحملنا كل شئ من أجل وحدة فلسطين، وبعدين من قال ان هذا المجلس ليس مجلساً للوحدة الوطنيةالفلسطينية لماذا؟ علشان احمد جبريل غائب عنه، احمد جبريل يجب أن يحاسب في كل الساحات الفلسطينية، الاخ عبد الله الدنان والستة الذين وقعوا البيان هؤلاء اذاً وقعوا بياناً، فهم يدافعون عن قتلة فلسطين، هؤلاء الذين ضربوا نهر البارد والبداوي، هؤلاء لاتتعطل الوحدة الوطنية بغيابهم، اما التحالف الديمقراطي نحن نحترم هذا التحالف، ومن قال ان التحالف الديمقراطي لن يحضر رغم محاولات الهيمنة التي ليس لها اول ولا اخر.

سليمان النجاب نائب الامين العام منع من مغادرة دمشق حتى لايلتحق بوفد التحالف الديمقراطي، ابو العلاء عضو المكتب السياسي لجبهة التحرير الفلسطينية منع أن يخرج من دمشق ايضاً لتحالفه الديمقراطي طوال هذه الفترة والمعاناة الطويلة"... صفحة (١٦٢-١٦٣)

الفصل التاسع جاء بعنوان: «غير مسموح لهذه الثورة أن تنهزم» حديث الاخ ابو اياد في ذكرى يوم الارض. المجمع الثقافي- ابو ظبي١٩٨٧.

والذي تناول فيه يوم الارض وتذكيره المستمر بشهدائنا وجرحانا واسرانا ومعتقلينا واطفال الحجارة وتحياته لجماهير شعبنا بالامارات العربية قائلاً: «من هنا في يوم الارض نحيى بإسمكم جماهير شعبنا هنا في الامارات العربية، نحيي هذه الجماهير التي كانت ومازالت واقفة مع هذه الثورة بقلوبها وعقولها وبكل ما تملك، نحيي جماهير الامارات باعتبارنا لسنا ضيوفاً عليها، وإنما باعتبارنا جزءاً من هذه الامة العربية الكبيرة التي تضمنا وتضمهم، وايضاً بإسمكم نحيي راعي هذه الامارات واميرها الشيخ زايد الذي نكن له كل احترام ومحبة وهو الذي عاملنا معاملة الانصار للمهاجرين هو واخوانه وشعب الامارات ونرجو ان تستمر هذه المعاملة، معاملة الانصار للمهاجرين حتى يأذن الله بكفاحنا، ونضالنا ان نعود إلى فلسطين، لاننا لا نريد ان نستوطن بلداً غير فلسطين ولا نريد ان نملك بلداً غير فلسطين، واقول اكثر من هذا لانريد ان نعيش مؤقتاً في بلد

الا فلسطين».صفحة (١٧٢)

والفصل العاشر حمل عنوان: « وثيقة الاستقلال والسياج السياسي الذي يحمي الانتفاضة" محاضرة للاخ ابو اياد في الجالية الفلسطينية جدة (١١-١١-١٩٨٩)

ويتطرق فيه إلى الانتفاضة المباركة في الارض المحتلة والتي رسمت مرحلة جديدة تتعلق بالتوجهات السياسية والخطوة الاردنية وعامل الوفاق الدولي وحديثه عن دولة فلسطينية في وثيقة الاستقلال بمثابة وثيقة تاريخية خالية من أية اشارة لحدود الدولة الفلسطينية.

وطرحه ايضا لمؤتمر دولي يشارك فيه الاتحاد السوفياتي والصين وفرنسا لطرح مطالبنا ونحن مطمئنون.

الفصل الحادي عشر والذي عنون: «الوحدة الوطنية والتحالفات العربية» كلمة للاخ ابو اياد في المجلس الوطني. الدورة ١٥في دمشق ١٩٧٩. يقول فيه: " والى الان وقبل قليل اجدني محتاراً هل اخرج من جيبي الورقة التي تستثير تصفيقكم ام الورقة التي تفتح باب النقاش وتساعدنا على ان نتحمل مسؤولياتنا في المرحلة القادمة؟". صفحة (٢٠٥)

والفصل الثاني عشر جاء بعنوان: « الاتفاق الادرني الفلسطيني والثوابت الوطنية»

ويتناول فيها الحملة المسعورة على القيادة من الصحف العربية

ويقول فيه: " ولذلك نحن اخذنا قراراً ويجب ان ينفذ هذا القرار: الهجوم على كل صحيفة عربية تهاجمنا، هم يهاجموننا بانه لا ديمقراطية عندنا ونحن عندنا ديقمراطية، لماذا فلسطين الثورة، لماذا كل المجلات التي لها علاقة بالثورة لاتهاجم وترد على هؤلاء الصحافيين وهذه الصحف.. ونقول لهم: ان كنتم شاطرين: اكتبوا عن المآسي اللي يمر فيها الشعب الفلسطيني». صفحة (٢٢٥).

الفصل الثالث عشر حمل عنوان: « من اجل برنامج يحمي الانتفاضة ويمكنها من تحقيق اهدافها» كلمة الاخ ابو اياد في الدورة ١٩ للمجلس الوطني بالجزائر (١٤-١١-١٩٨٨)

ويقول في هذا الفصل : « الدكتور الصايغ قال علينا ان نصبر سنتين وستتغير موازين القوى، وانا بقول للدكتور الصايغ والله لو تتغير موازين القوى من هنا حتى اربع سنوات، سنقعد مجمدين ولا نتكلم ولا كلمة، نتفرج على الانتفاضة بالتلفزيون ونقول والله. الله يبارك فيها شو عظيمة هالانتفاضة وبعد مننتظر تغيير موازين القوى". (صفحة ٢٤٠)

ويكمل ابو اياد: « تغيير موازين القوى يجب ان نساهم فيها، ولكن كيف نساهم فيها، لابد أن نضع برنامجاً، أول برنامج في الحقيقة الحفاظ على هذه الانتفاضة واستمرارها وتجميع اكبر عدد من

الدول ومن الراي العام حول هذه الانتفاضة، حتى لانتركها لهؤلاء الوحوش.

الفصل الرابع عشر والذي حمل عنوان: « وثيقة الاستقلال والبيان السياسي» مداخلة الاخ ابو اياد في دورة الاستقلال بالجزائر (١٥-١١-١٩٨٨)

ويقول ابو اياد وارتبط فيها ايضاً موضوع الوفاق الدولي وحل المشاكل الاقليمية وبدأ النقاش الاولي في بغداد حول هذه القضايا وعلى الاثر تألفت لجنة سياسية وقانونية لتبحث صيغة الاستقلال او وثيقة الاستقلال وايضاً دعي الجميع للاجتماع بتونس على اساس مناقشة ما يصدر عن اللجنة القانونية والسياسية التي كانت برئاسة اخي ابو اللطف، ومن هنا بدأت الاجتماعات وجدول اعمالنا ثلاث نقاط وثيقة الاستقلال، والحكومة المؤقتة، البيان السياسي .صفحة (٢٤٥)

الشيء الأخير الذي اريد أن اختم فيه وأرجو أن اكون وضحت ما دار في الاجتماعات ان هناك نقطة اساسية أرجو ان لا تغيب عن بالنا، نحن جميعاً كافراد ومنظمات وشخصيات وطنية، التزمنا بهذا الميثاق الوطني الفلسطيني وقبله التزمنا بتحرير فلسطين... السؤال المطروح علينا كقيادة نفكر بعقلنا كيف نحرر فلسطين؟. صفحة (٢٥٢)

الفصل الخامس عشر والذي جاء تحت عنوان: « الموقف الفلسطيني من ازمة الخليج» لقاء اجرته مع الاخ ابو اياد مجلة دراسات فلسطينية

والذي يجيب فيه ابو اياد عن اكثر الاسئلة حساسية والتي تتعلق بالموقف الفلسطيني من احداث الخليج

قائلاً: "سوف أبدأ بالتأكيد على عدة مبادئ والتي لايمكن لمنظمة التحرير الفلسطينية تجاهلها، قبل كل شي نحن نعارض أي احتلال للاراضي بالقوة مهما كانت الاسباب والدوافع؛ ولهذا وفي الساعات الآولى للازمة عارضنا إحتلال الكويت وضمها، وموقفنا كان واضحاً، حتى لو أن بعض اجهزة الأعلام حاولت تحريف هذا الموقف، وصحيح أيضاً رغم ذلك أننا لم نستنكر أو ندن، حتى لانشارك في اعطاء شرعية لتدخل القوى الاجنبية وذلك من خلال اعطائهم ورقة بيضاء.

نحن نريد ان ندفع الامور باتجاه حل سلمي، ديبلوماسي، بعيداً عن منطق طبول الحرب، ولايمكن لأي طرف أن يلعب دور الوسيط إذا ما أدان الطرف الذي يأمل بمفاوضته. إذن غياب الادانة مرتبطة بنية الوساطة وبرغبة الوصول لحل سلمي.

وكذلك فإن الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير لايمكن أن يعارضوا حق أي شعب مهما كان في تقرير مصيره، فهذا مطلبنا الرئيسي فيما يتعلق بنا، فكيف يمكن لنا أن ندعم أي إعتداء على دولة

اخرى ونقبل أن يحرم شعبها من حقه في تقرير مصيره، هذه هي المبادئ التي ترشدنا في عملنا.

أما من يدعي ويقول بأننا من أنصار العراق وأي طرف آخر فنجيبه بأننا من أنصار المنطق الذي يؤكد بأن الحرب ستكون مكلفة ومدمرة ليس فقط للعراق والكويت ولكن للمنطقة العربية جمعاء". صفحة(٢٥٥-٢٥٦).

والفصل السادس عشر جاء بعنوان: « حول الاستراتيجية الفلسطينية في زمن الانتفاضة» حوار مع الاخ ابو اياد حول الاستراتيجية في زمن الانتفاضة.

وبشأن العلاقة مع حركة حماس والتي لم تتمثل في القيادة الموحدة يتحدث ابو اياد لمجلة الفكر الديمقراطي بالقول: « حماس» لها وضع آخر ناجم عن تطورات علاقتها بالكفاح الوطني الفلسطيني، كانت حماس تبشر بالإسلام وتحاول أن تنظم الناس على أساس الإسلام، وإلى شهرين بعد قيام الإنتفاضة ظل تركيز حماس منصباً على العمل الأيديولوجي الإسلامي، دون التركيز على القضية الوطنية الفلسطينية، وعندما هبت الإنتفاضة وجدوا أنفسهم في حماس بمواجهة الجماهير، حيث كانت الإنتفاضة تسحب البساط من تحتهم، فوازوا موجة الإنتفاضة وأنضموا إليها، في وضع كهذا، كان لابد من أن يعملوا على تمييزأنفسهم، وقد

قالوا، في البداية، أنهم مستعدون للتنسيق مع «فتح» لكنهم وجدوا أنفسهم في خلاف حتى مع « فتح» حول النواحي السياسية، وحول بعض التصرفات التي صدرت عنهم ازاء تنظيمات اخرى، أرادوا أن يتميزوا عن م.ت.ف ككل، وتميزوا عن القيادة الموحدة، وأصدروا مناشير لوحدهم، كان للقيادة الموحدة خطتها، مثلاً بشأن الإضرابات، فراحوا في «حماس» يدعون لاضرابات اخرى، وحين لايستجيب الناس، كانت معالجة حماس غير صحيحة فالناس لاتستجيب بالضرب، بل بالرغبة الذاتية، ولابد أنهم في حماس قد أحسوا بهذا وانا اقول علينا أن نحتفظ بالإتصال بيننا وبين حماس أو أية قوة اخرى حتى لو كانت صغيرة، فأي ثغرة خلاف تفيد الاحتلال بأكثر مما نتوقع، لعلهم لايعرفون في حماس لماذا تتولى إسرائيل بنفسها احيانا توزيع بعض بياناتهم والترويج لها، أن إسرائيل تفعل هذا لكي تعمق الخلافات وتؤججها، وعلينا أن لانقع في الفخ، وأعتقد أنهم بدأوا في قيادة حماس في الفترة الأخيرة يعرفون ذلك، فبدأت الخلافات تخفت». صفحة (٢٧٥-٢٧٦).

أما حين سؤاله عن المحاور التي ينبغي ان تنشط المنظمة فيها؟ فاجاب ابو اياد: هناك محاور عدة الحوار مع المجتمع الاسرائيلي دون حساسيات

المحور الأول هو الانتفاضة وهو الأساس الذي يجب أن نفكر فيه، بحيث تستمر الانتفاضة وتتطور، فهي الذخيرة لكل تحرك سياسي نقوم به. والمحور الثاني هو إسرائيل، انا مع العمل على هذا المحور

بكل جدية ودون خوف و دون حساسية،

ابو اياد: نعم دون حساسية، انا لا اوافق على الرأي الذي يظن ان المجتمع الإسرائيلي شئ واحد وذو فكر واحد وان ناسه مطبوعون بلون واحد، انهم بشر يمكن ان يحاوروا، انني اقول هذا عن تجربة، وبصراحة اكثر، قبل عام واحد لم اكن اقبل ، لاسباب كثيرة لا احب ان اذكرها لانها شخصية، ان اتحاور شخصياً مع الإسرائيليين، لكن موضوعياً، ومن خلال ما استخلصته من لقاءات تمت بصورة عرضية أرى انه ليس من الخطأ الولوج إلى هذا المجتمع والتعمق في فهمه، برأيي انه لابد من أن ندخل هذا المجتمع وان نبين له مخاوفنا ونسمع منه عن مخاوفه.

المحور الثالث هو محور الدول الاوروبية، ولابد أن نتعمق فيه فله دور اساسي، وتدخل الولايات المتحدة في هذا المحورايضاً، لا اريد أن أعدّ الولايات المتحدة محوراً لوحدها. وهناك ايضا الدول الاشتراكية على ان كل شئ نريده منها مضمون لنا، واقول بصراحة وفي ضوء متابعة الدول الاشتراكية في العامين الاخيرين، لولا قرارات المجلس الوطني الاخيرة لوجدنا في هذه الدول تحولات لن نكون مسرورين منها كثيراً، والمحور الاخير محور مهم وهو التجمعات اليهودية في بلدان العالم، ان لهذه التجمعات خصائص خاصة وهي تختلف عن إسرائيل». صفحة (٢٩٢-٢٩٤)

وحين سؤال ابو اياد عن الانشطة المطلوبة على المحاور المتعددة، اين يقع الكفاح المسلح؟ يجيب قائلا: «في الوقت الذي اطالب فيه بتحرك سياسي، ومرونة سياسية، أنا مؤمن بان الكفاح المسلح يجب أن يظل، كمبدأ، أساسياً، لن نقبل اي مساومة على هذا المبدأ، وأنا متمسك به، والكفاح المسلح وسيلة هامة من وسائل النضال الثوري، يمكن أن تكون لنا تحفظات على بعض العمليات غير أن مجال نقاشها هو المؤسسات، أما الكفاح المسلح ذاته فلا مجال للتخلي عنه. صفحة (٢٩٧).

ويقدم ابو اياد لمنظمة التحرير رسائل من الممكن ان تتفادى فيها م.ت.ف مخاوف المستقبل قائلا: «اظن أن من المفيد التركيز على اللقاءات العربية في اطار الجامعة العربية ومن المناسب تطوير نظام الجامعة وتطوير أسلوب عملها ، كذلك، حتى نستطيع أن نستوعب المحاور الثلاثة، وقد سمعت من بعض القادة العرب من يتحدثون في هذا الاتجاه ، وهذا كلام طيب». صفحة (٢٩٨)

يعد هذا الكتاب مرجعا هاماً للقيادة الفلسطينية في التعامل مع المتغيرات العربية والدولية كما انه يمثل وثيقة هامة أرَّخت للتجربة الكفاحية الفلسطينية لما لها وما عليها ويشكل مرجعاً لاهم حركات التحرر في العالم .

أوراق ثقافية

صورة السجن في السيرة الذاتية الفلسطينية
دراسة في بلاغة الخطاب

أحمد عزيز

ملخص

تحفل السيرة الذاتية الفلسطينية بصورة السجن بوصفه أحد مشهديات المأساة الفلسطينية ذات الأبعاد النفسية والفلسفية التي حفرت عميقاً في تاريخ الشعب الفلسطيني ونضاله المتواصل وكفاحه المستمر، وتركت أثراً فادحاً في ذاكرته الفردية والجماعية التي تحاول إعادة تشكيل الذاكرة في سياق هذه التجربة على المستوى السردي والحكائي، بالإنتقال من الفضاء المكاني إلى الفضاء اللغوي الخطابي، ولا شكَّ أنَّ السيرة الذاتية قد منحت للذات مساحة سَردية لمسرحة هذه التجربة الإنسانية بإسقاط زمن الخطاب على زمن الحكاية المسترجعة، ومحاولة إعادة تركيب الأحداث والصور السِّجْنِية عبر التَّشكيل السَّردي والتمثيل النَّصي وتفكيك مستويات القمع والقهر والظُّلم.

تستكشف هذا الدراسة نماذج عديدة من حياة السجن ووقائعه كتجربة رمزية تضطلع بمسؤولية تاريخية في تعرية ما يحدث في التاريخ، وتقديم شهادات إدانة للقبح والبشاعة التي تمارس ضد الإنسانية، وما تمثله سجون الاحتلال الإسرائيلي من محاولات لاستلاب وإزاحة للعقل وكيً الوعي الوطني الفلسطيني.

تأتي هذه الدراسة لتحليل صور من الفضاء السِّجني، والحياة الإعتقالية التي تم تَظهيرها في السيرة الذاتية الفلسطينية، وما مثله الواقع الثقافي ومظاهر الحياة اليومية في السجن عبر خطاب السجن بوصفه فضاءً تجريبياً يتم فيه إعادة قراءة السجن مفهوماً وممارسة في إطار أدب السجون المرتبط بالدفاع عن حرية الإنسان، وتأكيد قيمه الإنسانية.

وتروم هذه الدراسة البحث في سلطة النَّص السِّجني ومحكيات السجن التي تنافست مع محكيات السيرة

الذاتية وأجناسها الأدبية، وتحليل المستويات الجمالية والخصائص الخطابية التي تمّ توظيفها في تقنيات واستراتيجيات السَّرد وتمثلاته النَّصية.

وتهدف الدراسة الكشف عن محركات الصمود ومصادر القوة والفعل والإبداع في الواقع الاعتقالي للأسرى الفلسطينيين.

الكلمات المفتاحية: السجن، الحرية، العُزلة، الفضاء المُغلق، السيرة الذاتية، وبلاغة الخطاب.

في السجن تُعاد صياغة الإنسان، في عالم آخر، وحياة تقوم على المختلف والغريب في الزمان والمكان، ف«الإنسان بفعله ومشاعره هو الذي يبني ويشكل المكان، ما عدا السجن، الذي يُعيد بناء الإنسان ويصوغه من جديد حسب قوانينه وأنظمته»١٣، وهي تجربة خارج المعتاد، وخرقاً للمألوف النَّاظم لسلوك الإنسان والمحدد لعلاقاته ورغباته، وَتَقييداً لمشيئته وحركته، وتعطيلاً لاختياراته، في واقع فارق وإجباري يلزمه على المفروض، وهو المرفوض في ذات الوقت، والسجن مُعاكس لمبادئ وقيم الحرية التي تتجلى فيها كينونة الإنسان وماهيته، وغيابها غياب للحضور الإنساني القِيمي.

والسجن في الحالة الفلسطينية مرتبط بالصراع القائم في فلسطين، ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي، وهو «تجربة فلسطينية جماعية، قبل أن تكون مِحنة فردية»١٤ لها تداعياتها على الشعب الفلسطيني الذي يقبع تحت الاحتلال الذي عمد إلى إنشاء عشرات المعتقلات والسجون ومراكز التوقيف والتحقيق، وزج المقاومين الفلسطينيين فيها لردعهم وقمعهم ووقف نشاطاتهم، وتفكيك قدراتهم الكفاحية والثورية، وعزلهم عن بيئاتهم وتواصلهم مع عالمهم الخارجي، لكنها شكَّلت رافداً مهماً للمقاومة الفلسطينية، وخرَّجت الكثير من المقاومين الذين كان لهم دورٌ رئيسٌ في قيادة الجماهير.

تجربة السجن ملهمة للأدباء، وكثيراً ما ارتبط الإبداع الأدبي بتجارب السجن والاعتقال، في الشعر والقصة والرواية والمذكرات، وللسجن حصة كبيرة في خطاب السيرة الذاتية والغيرية العربية والعالمية، ويشغل مساحة سردية عريضة في خطاب السيرة الذاتية الفلسطينية، لأنه على صلة مباشرة بهذه التجربة الجاذبة والمؤثرة في الوعي والفكر الإنساني.

ولدراسة صورة السجن أهمية كبيرة في مجتمع صغير له نظامه، ومعاييره المختلفة، وانطباعاته السلوكية والنفسية، وتداعياته وتحولاته في حياة الأفراد والشعوب، ولِما لهذه الصورة من حفريات في المخيلة والذاكرة الجمعية الفلسطينية، باعتبارها سجلاً طويلاً لمعاناة الشعب الفلسطيني، وتأريخاً لنضاله ضد الاحتلال، ولفهم عالم السجن كان لا بُدَّ من التفسير الإبستمولوجي وفق النظرية المعرفية المبنية على العلم والتجربة والإدراك الشعوري التفاعلي للرموز والدلالات السسيولوجية.

الفضاء المُغلق: السجن وصراع الحرية

يُعيد (محمود درويش) تعريف السجن والحرية، وينطلق من أنَّ السجن يعيق الحركة والفعل اللذان يمثلهما مفهوم الحرية، ويُكثف التقابل بينهما في صورة متناقضة ومحايثة، ويُقيم بينهما علاقة عكسية، تزداد كلما زادت هذه الإعاقة، لكنه يرى أنَّ السجن مدرسة فقه الحرية، التي يقترب بها من قيمة الوطن وقيمه الوطنية، التي تتجلى عبر السجن كساحة مُنازلة ومقاومة تعمق الانتماء «في السجن تُعانقك الحرية. وفي السجن تمتلئ بالوطن أيضاً. الصراع هو الإجابة. إذا صارعت انتميت. والوطن هو الصراع»١٥، والتَّصادم المباشر مع السجان هو الذي يؤكد أهلية واستحقاق شرف هذا الانتماء، «والجدارة لا تُعلَنُ إلا بالصراع»١٦

ولعلَّ تجربة السجن وسلب الحرية من أقسى التجارب التي قد يمرُّ بها الإنسان، ولكنها تُرسخ معنى الحرية والمقاومة، ورفض الهزيمة والاستسلام «في السجن لا تقول. انتهى كل شيء. في السجن تقول ابتدأ كل شيء والبداية هي الحرية»١٧ وهي تجربة رومانتيكية تُمجد الوطن؛ فهو «أجمل ما يكون عبر الأسلاك»١٨ وفي السجن يتساوى (محمود درويش) مع الحرية ويتماثل معها «شكراً للسجان الذي يجعلني والحرية معادلة واحدة. شكراً للقيد الذي يُذَكّر زِنديَّ بأنهما محرومان من معانقة الشجر»١٩ وهي تجربة لها أبعادها الفلسفية العميقة في حياة الإنسان «لقد عايشنا تجربة المعتقل إشكالياً بوصفه الوطن، أو ضد الوطن، هو الخروج من الوطن ولكنه الدخول في عمقه، هو التوقف عن الفعل لكنه مكان الفعل أيضاً، هو العزل ولكنه أيضاً محطة تستجلب العالم إليه»٢٠

السجن العُزلة

العالم الرَّحب وعالم العُزلة، عالمين محايثين، وما بينهما تصوغ عائشة عودة مفهوماً للسجن، من انقطاع عن العالم الخارجي، إلى غياب تام وبُعد عن المجتمع وتجرد من الفاعلية والمساهمة في الحياة العامة، وانعكاسات ذلك على النفس من ألم ومعاناة، وتأثير ذهني يضع السجين في محنة كبيرة «السجن حالة تجدُ نفسك فيها مجَرَّداً من أية حيلة للتواصل والفعل. السجن يعني أنك معزول، ليس عن أهلك فحسب، ولكن عن الفعل، عن المشاركة. آه ما أقساه"٢١، وأيضاً يظهر الدال ونقيضه في تجربة السجن.

تجعلك عائشة عودة تعيش اللحظات المريرة التي عاشتها في السجن، وقد طالت عديد من النساء المناضلات من الفلسطينيات، ونساء عربيات ومناصرات لكفاح الشعب الفلسطيني، اللواتي التقينَّ في السجون ومحطات الأسر، وشكلنَّ ظاهرة الحركة النسوية الاعتقالية المشاركة في المقاومة الفلسطينية التي بدأت بعد العام ١٩٦٧، فقد أسهمت الأيديولوجيات الحزبية في تأطير المرأة وتشجيعها للمشاركة في نشاطات المقاومة السياسية والعسكرية.

ويبقى السجن عالم شديد القسوة، يمارس سطوته ووحشيته تجاه المناضلين ويغيبهم عن ساحة الفعل الحقيقية، ويعزلهم عن العالم الخارجي «أدركتُ إلى أي حد هو قميء هذا السجن الذي يلتهم أعمار الأُلوف من أبناء شعبي»٢٢

السجن والجسد

هل السجن يعطي قيمة مختلفة للجسد؟ وكيف يتمسرح في الصراع؟

أسئلة تجعله أهم ما يملك السجين، وهو يواجه التعذيب والإكراه وهدم الذات، لذلك يعمل السجان على إخضاع جسد السجين، ويعمل السجين على تأكيد حريته من خلال السيطرة على جسده، وتَحمل ما يتعرض له من أساليب العُنف والتَّحقيق في رِهان على الجسد، وتخطي التجربة بكتمان الأسرار وتورية المعلومات المتنازع عليها، وعدم البوح بها، فالانهيار الجسدي مدعاة للاعتراف والسقوط، والصمود يُحلق بصاحبه؛ ففي اللحظة التي يُقيَّد فيها الجسد تنطلق الروح عالياً «كنت أتسابقُ مع سجاني على جسدي، الذي يعتقد أنه ضعفي، فيما كنتُ أفرِدُ بِساط الشّعر الطائر، أعلو وأكبرُ وأمتد»٢٣

فضاء السجن يهزمه فضاء اللغة الثائرة، والمواجهة فلسفة في الحياة، تقوم في السجن على مخالفة النقيض، والتَّمرد عليه، وهدم روايته، «هناك في السجن، حيث يقايضني المحتل بحرية جسدي، كانت القصيدة أرض إرادتي، وفضاء قلبي الذي لا يستطيع أي محتلٍ على وجه الكوكب كله أن يحرمني إياها. والحرية أقوى!»٢٤

السجن القتل

عشرات السجون الإسرائيلية لقمع نضال الشعب الفلسطيني، وتحطيم مقاومته، لكنها تحولت إلى ميادين كفاح، ومحطات تأهيل وتأطير وتثوير، رغم (إرهاب الدولة) وممارسات التنكيل والتعذيب والإعدام والقتل داخل السجون ومراكز التحقيق، التي شهدت قصصاً مروعة لانتزاع اعترافات المعتقلين والنَّيل من ارادتهم وصمودهم، ومركز المسكوبية المقام على أراضي القدس المحتلة من النماذج الشاهدة على فظاعة ووحشية الاحتلال، «كانت لسجن المسكوبية سمعة مُخيفة، ففي زنازينه استشهد عدد من المناضلين الوطنيين تحت التعذيب (قاسم أبو عكر مثلاً) أُغادر في تلك الليلة معصوب العينين في سيارة عسكرية، يملأها الجنود. تجيش نفسي بمشاعر شتَّى، أتهيأ لمواجهة ساخنة وأنا أُغالب خوفي مما سأتعرض له من أذى»٢٥، وغسان اللحام، وخالد أبو دية من الأسماء والأبطال الذين قضوا تحت التعذيب في المسكوبية الذي أطلق عليه الأسرى (المَسلخ) بسبب وسائل التعذيب الممارسة، والتي فاقت كل التصورات والأوصاف، وكثير من الصور والمشهديات الفظيعة داخل السجون محفورة في الذاكرة ولا يمكن أن تُغادرها، من القتل الميداني المتعمَّد من مسافة الصفر لأسرى احتجُّوا على ظروف اعتقالهم السيئة والقاسية، وطالبوا بأبسط حقوقهم، ورفضوا تنفيذ الأوامر المُذلة والمُهينة، «قفزت الصورة سريعة في الذاكرة، طافحة في الرَّمل الصحراوي ودرجات الحرارة، وصور أسعد الشوا وبسام السمودي حين قتلهما كبير السجانين الذي علمهم القتل في آب ١٩٨٨"٢٦، والقتل البطيء بالإهمال الطبي، والظروف المعيشية والصحية بالغة القسوة، وممارسات (وحدات القمع) التي تُهاجم الأسرى، وتعيث في واقعهم، وتُفاقم من معاناتهم.

السجن والصحراء

كيف تجلَّت الصحراء في السجن؟ وما هي حمولاتها الدَّلالية؟

يتصالح (المتوكل طه) مع المكان، ويتفنن في رسم صورة الصحراء، واستنطاقها، بإبراز بعض مكوناتها الجمالية، وأبعادها الطبيعية والأنثروبولوجية، وجاذبيتها وروائعها الطقوسية؛ فصحراء سجن النَّقب تمنحه كثيراً من الرهبة والخشوع، في فضاء من المفترض أن يتصادم معه، لكنه يتجلى في صورة حميمة، يبث فيها اندهاشاته وخيالاته وحواریاته، وإحساساته العميقة بروعة الصحراء وجمالها الأخاذ «لا علاقة بين السجن والصحراء، ولكن الاحتلال الإسرائيلي - ككل محتل مهووس – اختار أن يجعل سجن « كتسيعوت" في قلب صحراء النقب! وهكذا سمح لنا المحتل، دون أن يدري أن نرى شمس الله في انبجاسها المذهل صباحاً، وفي موكبها الجليل مساءً، وسمح لنا بغبائه أن نرى السماء السرمدية ونجومها الباسمات»٢٧

المدى المُنبسط الفسيح، المُتَّصل بالسماء يأنسه الأسرى، ويحقق لهم التفاعل مع عناصر الطبيعة وقيمها، والاندماج مع المكان وتطويعه لاكتشاف قيم الجمال التي تُحيل على قيم الحرية والمقاومة؛ فيتحول السجن إلى فضاء مُلهمٍ للإبداع.

السجن والجمال

هل السجن مسرح لتأمل الحياة، والتَّفكر في جمالها؟

المعايشة اليومية للقهر والقسوة في السجن لا تُلغي المشاعر الإنسانية الرقيقة، ولا توقف الأحلام الصغيرة والكبيرة في رحلة البحث عن قيم الحياة، ورغبة الإنسان في استكشاف عالمه الخارجي خلف القضبان، والانشداد لمفاهيم وصور الجمال، وتقريبها بمخيلة الرجل، والاعتناء بصورة المرأة، وما يقرب إليها من حديث أو تصور «لا يهرب السجين من حقائق الجمال وحاجته المُلِحَّة للأُنثى في الحديث الخافت مع الأصدقاء، بل تتسع ذاكرته وخياله في رسمها ونحتها كتماثيل روما يتصببنَّ شهوة الخيول الجامحة وشبق العصافير في شمسٍ بعد مطر»٢٨

المرأة العنصر المفقود في السجن، تحضر في الذاكرة المسترجعة، والصور المتخيلة، التي تحاول تقدير الجمال المشتهى، وبعثه من جديد.

ألوان وعُدْوان

ثمة صور استثنائية في عالم السجن، تسرُّ الناظرين، مَجلبةً للفرح والراحة النفسية، وإدخال السرور على القلوب التي تعيش الوجع اليومي، ولكنها تستفز وتزعج السجانين، وتُحرك فيهم مشاعر الغضب والسَّخط، وتُهيج

غيظهم وعدوانيتهم ووحشيتهم «عندما رأى قائد المعتقل الصهيوني نبتة البطيخ وهي تمتدُّ من قلب الجزرة، لم يرَ الحياة التي تكسر وحشة المعتقل، ولم ير اللونين الأخضر والبرتقالي على خلفية كآبة السياج ورماده، كل ما رآه أنّ هذه فرحة المعتقلين بتأسيس تاريخ لهم هُنا. وبوحشية بالغة، نزع القائد الصهيوني الجزرة ورماها في الممر الرملي بين الخيام»٢٩

والقليل في السجن يبدو كثيراً وجميلاً وممتعاً، والمشاعر تجاه مظاهر الحياة وموجوداتها الصغيرة والبسيطة تعني الجمال الذي يقابل قبح المكان ورداءته؛ فيحاول الأسرى التَّحكم في المكان الذي يتحكم بهم عبر تغير ألوانه القاتلة بألوان الحياة؛ فالأخضر يطرد الأسود، ويُشيعُ التفاؤل والانشراح «صارت تبعثُ في نفوسنا الأمل والإحساس بالفرح والحياة لكن هذا الشعور لم يَدُم طويلاً فقد اعترضَ ضابط السجن «إتسك" على وجود حوض نعنع في السجن {...} أصرَّ على قيام المعتقلين بخلع حوض النَّعنع لكنهم رفضوا وقالوا إنها مجرد نبتة خضراء، لا تُؤذي أحداً، ولن نخلعها. عوقبوا بمنع السجائر عنهم يومين، وأمر المسؤول جنوده بإتلاف حوض النعنع"٣٠

ويعمد السَّجان إلى التَّشديد على الأسرى، والتَّعدي على مُنجزاتهم، وإساءة معاملتهم والتَّخريب والعبث في واقعهم، وتكدير عيشهم والتَّنغيص عليهم «أمَّا الساحة الجديدة، فقد ضُيقت وجُرّدت من كلّ لون من ألوان الحياة، كما ضيقت مجال رؤيتنا بشكل كبير. أعلنت رسمية أنها ستزرع أزهاراً في الساحة، نفذت رسمية وعدها، وفي فصل الربيع أصبح لدينا بعض الأزهار، وتميزت إحدى النباتات المُتَسَلقة التي راحت تتسلق الجدار وتغطي أجزاء منه بِخُضرة يانعة؛ فأصبحت دُرَّة الساحة، نقف أمامها ونتأملها ونتشرب خُضرتها ويناعتها. في أحد الصباحات وجدناها قد جُزَّتْ، فأثار هذا العدوان غضبنا وحُزننا لدرجة البُكاء، أما رسمية فقد فُجِعَتْ وتطلَّب مِنَّا مواساتها"٣١

احتلت شجرة النخيل دائمة الخُضرة التي ترتفع وسط باحة سجن عسقلان الاحتلالي مكانة عالية في أذهان الأسرى؛ فقد كانت مؤنستهم الجميلة في وحشة السجن الكئيب، وقِبلة أنظارهم، وزادها طائر الحَمام بعشه وفرخيه اهتماماً بالغاً؛ فغدت الصورة الأجمل والرفيق الأقرب في حياتهم و»بين النخلة والحمامة انحصر عالم المعتقلين المرئي الخارجي، وتَجَسَّدَ مشهد طبيعي، كسر روتين حياة الاعتقال البطيئة الرتيبة، مشهد خفف من ثِقل الحياة في هذا المعتقل»٣٢، وتفاعل حضورها غير المُعتاد في الواقع الاعتقالي «إنَّها نخلة استثنائية، وقد زادَ إعجابي بجمالها ومكانتها في أوساط المعتقلين، ليس من خلال تجربني الشخصية المباشرة معها، وإنما كسر الزمن العُزلة جزئياً حول هذا المكان»٣٣

والنخلة - العالم الصغير- ملأت حياة الأسرى و»تحولت إلى غابة في شجرة، أو شجرة تُكثفُ غابة، فكان مصيرها الإعدام»٣٤، ومكانتها الكبيرة المؤنسنة جعلت من اجتثاثها فاجعة وجريمة إنسانية كُبرى، وسؤال وجودي عميق «لماذا ذبحوا شجرة كانت أُماً واختاً وحبيبة، مظلة وبقعة ضوء في واقع شديد السَّواد»٣٥

معركة الثقافة: من الأُميَّة إلى الدكتوراه

لعب الجهاز الثقافي والهيئات الثقافية في تجربة الأَسر الفلسطينية دوراً رئيساً في تعبئة الأسرى وبنائهم فكرياً، وتزويدهم بالمعارف والعلوم الإنسانية، وتنمية قدراتهم التعليمية، ورفع مستوياتهم ومهاراتهم الإدراكية، ونشر الوعي في صفوفهم، وإشغال أوقاتهم بالجلسات والمحاضرات والندوات والاحتفالات والبرامج الثقافية؛ فتخرَّج المثقفون والمُتعلمون الذين تغلَّبوا على سجانهم الذي هدف إلى تفريغهم من محتواهم النضالي والإنساني؛ فقد أرادها مقابر للأحياء ومعازل قاتلة للحياة، لكن بقوة الإرادة الثورية والتحدي برزت نماذج عُليا، وصلت أعلى الدرجات العلمية، وهذا نموذج «تعلَّم القراءة والكتابة في الاعتقال، حيث زُجَّ به شاباً صغيراً حرمته الظروف من الدراسة المنتظمة في المدرسة ليلتحق بوالده يفلح في الأرض ويرعى الأغنام. تلقفه في الاعتقال نُخبة من الكوادر سابقوا الزمن في تعليمه، إلى أن استكمل المناهج الدراسية الابتدائية والإعدادية والثانوية، ثم ليتحرر باحثاً وكاتباً ويلتحق بالجامعة حتى نال درجة الدكتوراه»٣٦

ولقد أدرك الأسرى قيمة ودور وأثر الانشغال بالحِراك الثقافي في واقعهم الذي يريده السَّجان واقعاً محطِماً لذواتهم وأحلامهم ومعنوياتهم، ف«بدأت الرحلة في المعتقل أكثر جدية وأيدلوجية في البحث عن الوطن والحرية والثقافة والفكر والأدب والشعر والقراءة»٣٧

الكِتاب المُحارب

تُعتبر الحياة الثقافية في الواقع الاعتقالي من أهم مظاهر الإبداع والقوة التي يتمتع بها الأسرى، وللكتاب دور مهم وفاعل في تطوير حياتهم، وتحصين ذواتهم، وتأهليهم للمواجهة، والوعي بحقوقهم الإنسانية؛ فهم يُدركون أنَّ الميدان الأول للاشتباك هي العقول والأدمغة، فتحوَّل الأسرى إلى قُراء، وتنافسوا في مطالعة شعر محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زيَّاد، ولوركا وبابلو نيرودا، وروايات غسان كنفاني وإميل حبيبي، ويوليوس فوتشيك ومكسيم غوركي ودوستويفسكي، وتعلُّم اللغات، والاطلاع على التجارب الثورية العالمية، وقد تحقق لهم ذلك بجهود جماعية، وخطوات نضالية طاحنة «قررنا خوض معركة الحصول على الكتب لأنها الأهم، وهي وسيلتنا للحفاظ على تنامي وعينا، وعقولنا»٣٨

وتجلَّت الثقافة في السجن مقوماً من مقومات الصمود والمقاومة، ومضاعفة القدرة على التحدي؛ فكان للمكتبة الأثر الكبير في حياتهم «أكثر ما أثار شهيتي في كل سجن، هو مكتبة السجن التي كان يُغْذِيْها الصليب الأحمر الدولي، وما كان يصلنا من الأهل»٣٩

٣,٢ رسائل من السجن

نجِدُ الرسائل جزءاً من خطاب السيرة الذاتية الفلسطينية التي تُدَون لحياة الأسر، فتمَّ زرعها في سيرة (مكان مؤقت) كجزء أصيل من تجربة السجن، يوثق واحدة من طرائق التواصل مع أهل السجين، ولما لهذه الرسائل

من دور في تقريب المسافات التي يباعدها واقع الأسر، ونقل الأخبار والأحوال التي تنقطع بسبب الحجز الطويل والمستمر، وهي وسيلة تتيح للأسير اكتشاف قدراته الكتابية ومهاراته الفنية والأدبية التي تتنامى مع كل رسالة، مع تضمنها للمشاعر الرقيقة المتدفقة التي تقع في أذهان وأفئدة المتلقين من الأهل والأصدقاء موقعاً عزيزاً وعظيماً «كانت رسائل السجين لأهله مزيجاً من الشوق والنصائح لإخوته، ومعنويات للآباء والأُمهات والأولاد منضبطة في الألفاظ، لأنَّ العدو يُراقبها ويقرأ سطورها»٤٠

وتُمثل الرسائل التي تصل الأسرى من ذويهم نافذة روحية يفرون إليها بِلَوعة المشتاقين وَتَوق المحبين، و»لقد كسرت الرسائل بالفعل طوق العزلة واخترقت الحصار وشكلت شريان حياة للمعتقلين»٤١

السجن والشعر: القصيدة المقاتلة

«هناك في السجن، يشفُّ الإنسان ويرقُّ»٤٢، وينفتح عالم السجن على أجواء رحبة من الابداعات الأدبية من خاطرة ورواية وقصة، وأشعار تُبدد العتمة وظلام الزنازين، وتُحيل الفضاء السجني إلى فضاءٍ لغوي « يمور بالأغنيات والجسارة»٤٣، ويُمثل صوراً حية وواقعية للمعاناة التي مرَّ بها الأسرى وعايشوها، ويُقدمُ انفعالاتهم الثورية، وابتهاجهم وانشراح صدورهم بانتصاراتهم وانجازاتهم «أفرح بأنني أعلى من سجَّاني ومن سجنه، وأنَّ قصيدتي مثل صحراء النقب، أكبر مِن أن تُمتلك، وأكبر مِن أن تُدرك أو يُسبر غورها العميق»٤٤؛ فمن بين جدران الزنازين وعتمة السجون وخِيام الأسر تنبجسُ القصائد وتتدفق القوافي تتحدى الحَبس وتُنازل السَّجان، وتزرع الأمل في النفوس، وتجدد العزائم؛ فهي مصدر قوة، وطاقة دافعة على المواجهة، وهي تجارب جديرة بالتسجيل والتوثيق، «ولأستذكر، في الاعتقال كيف كان الشّعر سلاحاً نشهره في وجه الطُغمة القاتلة، وشاحذاً لِهِمَم الشباب المُتَحَفِز، وتأريخاً لكل لحظةٍ، كانت تشهد انسفاح الدّم الحُرّ أو انطلاق صرخة، كأنها سيف الضوء في قلب العتمة»٤٥

وفي السجن تندفع القصائد كما تندفع القذائف «لم أشعُر بنفسي إلا وقد وقفتُ وسط الخيمة واندفعتُ بقصيدة مرتجلة أردُّ بها البنادق والعصي والغاز والوحشية»٤٦، وفي السجن يتعمق الشعور بمعاني الحياة، ويتجدد الإيمان بقيمها، وتنبعث قوى النَّفس وطاقتها ف»الاحتلال لا يُجفف الإبداع، ولا يدفع الناس إلى الموت، بل على العكس من ذلك، الاحتلال يدفع إلى التعلق بالحياة، ويدفع إلى اثبات الذات، ويدفع إلى التحدي»٤٧

٢,٣ مديح الصمود

تتفاعل الخطابات في (السيرة الطائرة)؛ فيلتحم معها الشعر المُفاخر بصمود الأسرى الفلسطينيين، والمعتز بتضحياتهم وبطولاتهم وعِنادهم، والمُنبهر بصمودهم الذي أغاظ عدوهم، وأصبحوا محل تفاخر وتساؤل:

"ونسأَلُ: هل قيَّدوكَ طويلاً؟!

تقولُ: انظروا للغصون تُجب.

وتسألُ: هل صلبوكم طويلاً؟

تُجيبُ خُروقُ المسامير في راحتيكَ

وفي قدميكَ وفي نظراتك

وهذي الشروخ التي في شفاهك»٤٨

وتغنَّى الشعراء بالمواجهة الملتهبة للمناضلين في أقبية التحقيق، التي لم تزدهم إلا إصراراً على التمسك بمبادئهم، والثبات على مواقفهم وشجاعتهم، وكما كان للبندقية دورها في المعركة، كانت القصائد تُجسد إرادة شعب راسخ الجذور على أرضه، وتُسطر بسلاح الكلمة ملاحم بطولية لأسرى الحرية.

من القمع إلى السلطة: التَّحدي

قلبت (عائشة عودة) المعادلة مع المكان والزمان، وقررت عدم الاستسلام للواقع والانتصار على السجان، والدافع الثقة بالنفس، وقبول التحدي، والسير نحو أهداف عُليا تكسر صورة الثابت والنمطي في السجن، والإحساس بالقدرة على بناء عالم الأسرى الخاص، بجهودهم الجماعية، متسلحين بثقافة الوعي بالمواجهة، والتلاحم، ووحدتهم وثبات مواقفهم؛ فهي الأسباب المباشرة في انتاج هذه الدافعيات وتفجير الطاقات الهائلة المختزنة لدى السجين الذي يتعلم بالتجربة أنه «مع التحديات يتحول لون الحياة الكالح وإيقاعها الساكن إلى حيوية وتَفَجُر، وفي المواجهات تتجدد حيويتنا وتتوحد إرادتنا وتخلق تحديات لعقولنا. نكسر روتين السجن المُمِل!»٤٩؛ فحياة الأسر في سجون الاحتلال الإسرائيلي تنطوي على صور عديدة من صراع الإرادات بين الأسير والسَّجان، وتشهد مواجهات وتحديات معيشة يومياً، والتي هي امتداد لساحات الصراع على أرض فلسطين. ولكن «في السجن {...} يحضر الفعل الكفاحي فعلاً في ترميم التحدي وبناء الأمل»٥٠ وتتحول الذات المُقيَّدة بمظاهر القهر والتَّضييق إلى ذات متمردة ترتسم عبر لعبة السرد الخطابية التي تتماهى مع الواقع، والتي تحمل المُتلقي على الإعجاب بالذات السجينة التي حوَّلت السجن إلى فعل للبطولة واختبار للقُدرات الإنسانية.

٢,٤ دولة في السجن

تَجَمُّع الأسيرات الفلسطينيات وتمركزهنَّ في واقع اعتقالي واحد، شجعهن على ممارسة السلطة، وبناء نظام وهيئات ولجان إدارية وثقافية تُنظم حياتهنَّ وعلاقاتهنَّ، وتدير شؤونهنَّ اليومية، على مبدأ القيادة بالأهداف

التي تقوم على التوافق والمشاركة الجماعية في صياغة الأهداف، والبحث والتخطيط لحياة أفضل في مستوياتها ورؤاها، مما يحقق أركان الدولة الصغيرة وسلطتها الثورية بعد تجارب مريرة في الواقع الاعتقالي، التي تنفرد به إدارة السجون بأنظمتها وقوانينها التي يخضع لها الأسرى «في الأجواء الحماسية، بدأت الاقتراحات تتوالد. قُلنا: سنؤسس دولتنا! وبالفعل، بدأ يتشَكَّل لدينا أول نظام متكامل لمجتمعنا داخل السجن»٥١

٣,٤ الاشتراكية

ولتوفير احتياجات الأسرى، أبدعوا في تشكيل لجنة مالية، تُشرف على الجهاز الاقتصادي أو ما يسمى «الصناديق الاعتقالية التي شكلت تجربة المعتقلين الاشتراكيَّة الأُولى. اشتراكية لا طوباوية فيها ولا بيرقراطية، ولا امتيازات للحزب على حساب المواطن، مثلما كان الحال عليه في دول تبنَّت الاشتراكية، فالمناضل حديث العهد بالاعتقال كان له نصيب في القهوة والشاي والسجائر والتَّمر كما هو نصيب القائد الحزبي أو مسؤول الصندوق نفسه»٥٢، وهي تجربة ثورية رائدة في الواقع الاعتقالي تقوم على المُلكية الجماعية وعدالة التوزيع والمساواة، وتقفُ على مسافة واحدة من الجميع على مختلف مسمياتهم وأدوارهم.

يرتبط حضور السجن في السيرة الذاتية الفلسطينية بصور المقاومة الفلسطينية، وأدب التحرر الذي يتطلع إلى الحرية من قيود الاحتلال، ونادراً ما تخلو سيرة ذاتية فلسطينية من سيمياء السجن التي تتشكل عبر السرد الذي يستدعي وقائع مهمة في تجربة من أعمق التجارب الإنسانية، وأكثرها فداحةً ومواجهةً لأسئلة الوجود الصعبة، ومفارقاتها النفسية، واختباراتها ودلالاتها المعرفية؛ فالسجن «تجربة معرفية في فهم البشر، وفي الدخول في عوالمهم»٥٣، لأنها تجربة تُحقق الوعي، وتوسع الإدراك، والكتابة عن السجن كتابة عن الحرية، يتحول تصوير السجن فيها إلى قيمة بلاغية تكشف ديناميات الفعل المقاوم وطرائق المواجهة، و» في تجربة أدب السجون تختلف النصوص التي تتلظى بالجَمر عن سردٍ يُبحر في هدأة الليل أو النهار، ذلك أنَّ الحواس التي تكتوي في النار تحت حصارٍ مُحْكَم، يعيش صاحبها قسوة المشهد بكل تفاصيله اليومية، تبحث عن أدوات إنسانية لمواجهة العَزل والتَّخفيف من وطأة الحصار، وتحاول أن تلتقط كل الأشكال المُتاحة للصمود والتماسك، وقد يكون إحدى الأدوات صياغة نص يُوثق تفاصيل المعاناة إذا توفرت الإمكانيات مترافقة مع ظروف متاحة وتوقيت مناسب»٥٤ وصياغة التجربة السجنية في سيرة ذاتية من شأنها تعميق الجانب الدرامي والتفاعلي مع هذه التجربة التي تحضر بقوة في الوعي الإنساني، ولعلَّ الاسترسال في وصف أماكن السجن، ورسم التفاصيل الصغيرة في الفناء والغرفة والزنزانة هو رصد للتفاعل الذاتي والموضوعي مع المكان الذي يحاول التآلف معه، والاعتياد عليه، وضبط حياته على نظامه المختلف، لكن بإيقاع ذاتي في مجتمع الاعتقال الذي يتطلب إرادة قوية وحكيمة، ولا شكَّ أنَّ استرجاع هذه التجربة عبر السَّرد هي محاولة لتخليد صور من الحياة المُلتصقة بمعاني الحرية واختبار قدرات الذات واستطاعاتها.

نتائج الدراسة:

أدب السجون والذي هو جزء أصيل من أدب المقاومة- فرض نفسه كظاهرة أدبية في المشهد الثقافي الفلسطيني، ونجد خطابه متعالقا مع الخطاب التاريخي والسياسي والاجتماعي، ويَشغل مساحة واسعة في السرد السيري بدلالاته وصوره المتنوعة، ويحظى بقدر كبير من الحضور والتَّميز، وهو أدبٌ يضطلع بمسؤولية تاريخية وإنسانية في تعرية ما يحدث في التاريخ وتقديم شهادات إدانة للبشاعة، والتَّشهير بممارسات الاحتلال، أي إنه أدب فاضح للوحشية والقهر.

الكتابة عن السجن فعل تحويل وعبور من مؤسسة السجن إلى السجن كتجربة رمزية وتبعيد رمزي يعمل على إنتاج الوقائع المُتذكرة وإسقاط زمن الخطاب على زمن الحكاية المسترجعة، والتَّموقع بين سلطة الذاكرة وسلطة السرد.

التجربة الاعتقالية لها أبعادها النفسية والفلسفية العميقة في حياة الإنسان، وتضعه في مواجهة مباشرة مع الذات والآخر في اختبار الوعي والإرادة في معايشة الواقع أو تطويعه وإخضاعه، وتبدو صورة السجن في السيرة الذاتية الفلسطينية حاضرة بقوة في الذاكرة، ولها إيقاعاتها الثقيلة الممسرحة عبر المحكي الذاتي الفلسطيني.

صورة السجن الواقعية لا تتردد في إدراج عناصر خيالية في التصوير، ومحاولة التحرر من قيود المنطق والشَّكل والإخبار، وإطلاق سراح الخيال والعوالم المُتخيلة، والنزوع للتصوير الجمالي للخطاب، وإعادة تركيب الأحداث والوقائع بالتَّشكيل السردي والتَّخييل الإبداعي، وفي ذلك كسر لرتابة التَّوثيق والتسجيل، مما يعني أنه أدب تحرري على مستوى الواقع ومستوى النص.

تتركز صورة السجن حول الحياة الثقافية ومحكيات الصراع مع السَّجان والاحتكاك القاسي بالحياة القاسية، وأشكال المواجهة والصمود.

صورة السجن تحاول تفكيك إزاحة العقل ومحاولات اغتيال الوعي السياسي الفلسطيني، عبر رصد تحولات الواقع الاعتقالي.

وعلى هذا النحو لا تزال صورة السجن في السيرة الذاتية الفلسطينية ميداناً خصباً لعديد من الأبحاث والدراسات، وخطاب السجن يكشف انشغالاً جاداً لتقويض خطاب العدو الذي يسعى بكل شراسة إلى محو الذات وتشويهها وحجب صوتها.

المصادر والمراجع:

١. إبراهيم نصر الله، السيرة الطائرة - أقل من عدو...أكثر من صديق، الدار العربية للعلوم، بيروت،ط٤، ٢٠١٥.

٢. بسام الكعبي، جمر المحطات، دار مجد – حيفا، ط١، ٢٠١٩.

٣. حسن عبد الله، البستان يكتب بالندى، مركز البستان، فلسطين رام الله، ط٢، ٢٠١٦

٤. حسن عبد الله، كلمات على جدار الليل- أثر الرسالة في حياة المعتقل الفلسطيني، مركز المشرق للدراسات، فلسطين - رام الله، ط١، ٢٠٠٤.

٥. رؤى تربوية، العدد ٣٩،٣٨ مقال مالك الريماوي: بطولة البحث عن زمن للمصير في رواية ثمناً للشمس، .٢٠١٢

٦. شاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط١، ١٩٩٤.

٧. عائشة عودة، ثمناً للشمس، مؤسسة ناديا، فلسطين- رام الله، ط٢، ٢٠١٦

٨. عدنان ضميري، مكان مؤقت - سيرة الجنرال المخيم والاعتقال، دار طباق، فلسطين- رام الله، ط١، ٢٠١٨.

٩. فيليب لوجون، السيرة الذاتية – الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة: عمر حلمي، المركز الثقافي العربي، بيروت – الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٤.

١٠. فيصل درَّاج، ذاكرة المغلوبين _ الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني، وزارة الثقافة الفلسطينية، ط٢، ٢٠١٧.

١١. المتوكل طه، أيام خارج الزمن، سيرة كاتب - نصف قرن من الدم والحبر، دار فضاءات، الأردن - عَمان ط١، ٢٠١٧

١٢. محمود درويش، يوميات الحزن العادي، دار العودة، بيروت،ط٥، ١٩٨٨.

١٣. محمود شقير ظل آخر للمدينة، دار القدس للنشر والتوزيع – القدس، ط١، ١٩٩٨

المثقفون حُداة الثورة الفلسطينية

عبد القادر ياسين

لم يكتفِ المثقفون بما كتبوا في الشأن الوطني؛ بل انخرطوا، بهمَّة ونشاط، في الكفاح الوطني؛ فشاركوا بقية طبقات شعبهم، وفئاته الاجتماعية، الفزع على مستقبل الوطن، بعد أن لاح في الأُفق «المشروع الصهيوني «، كما جُرحت الكرامة الوطنية للمثقفين، من مجرد الاحتلال البريطاني لبلادهم؛ أضف إلى ذلك ما لحق بالمثقفين من اضطهاد خاص، حين ضيَّق الانتداب نطاق التعليم،وهبط بمستوى، وحجم الوظائف الحكومية التي أسندها للمثقفين العرب الفلسطينيين.ويكفي أن الميزانية التي خُصصت، سنويًا، لتعليم العرب الفلسطينيين لم تصل إلى٦٪ من إجمالي الميزانية السنوية لحكومة الانتداب في فلسطين، بينما تراوحت حصة الأمن العام ما بين ٢٩و٣٧٪ من الميزانية نفسها! وقد حُرم ثلثا الأطفال العرب الفلسطينيون من مجرد الالتحاق بالمدرسة، بينما لم تُتح إلا لنحوعُشرالملتحقين بالمدارس فرصة إكمال تعليمهم الابتدائي.أما الوظائف الحكومية،فقد توزَّعت،العام ١٩٣١، على النحوالتالي : العرب ٣٨٦ وظيفة عليا، مقابل ٦٨ وظيفة للمستوطنين اليهود، أما الوظائف الصغرى، فنال العرب ٢٢٤٤منها، والمستوطنين اليهود ٦٩٩وظيفة (١). ما اعتُبر إجحافًا بحق العرب الفلسطينيين، الذين بلغ عددهم،آنذاك، نحو٨٥٩ألفًا، مقابل ١٧٥ ألف مستوطن يهودي.

لقد أخذ معدل مشاركة المثقفين في الحركة الوطنية الفلسطينية في الازدياد المطرد، بالتساوق مع اتساع نطاق المتعلمين الفلسطينيين، واشتداد عود البرجوازية العربية الفلسطينية.وما أن هلَّت ثلاثينات القرن العشرين، حتى أسهم المثقفون بالقسط الأوفر في تأسيس الأحزاب العربية الفلسطينية الستة(١)، على مدى النصف الأول من ذاك العقد؛ وتصدُرها قيادة «الحزب الشيوعي الفلسطيني»، وفي مقدمتهم المفكر والأديب المرموق،نجاتي صدقي.

لقد كانت تلك الأحزاب الستة أقرب إلى تمثيل العائلات الكبرى (خاصة عائلتيْ الحسيني، والنشاشيبي)،

١ هي أحزاب:مؤتمر الشباب العربي، الكتلة الوطنية، الإصلاح، الاستقلال العربي، الدفاع الوطني، والعربي.

أكثر منها ممثلة للطبقات الاجتماعية العربية الفلسطينية؛ وإن كان «مؤتمر الشباب «، و» حزب الاستقلال « قد حظيا بنسبة كبيرة من المثقفين بين قيادتيْهما. بينما احتل المثقفون مواقع مؤثِّرة في المراتب الوسطى من بقية الأحزاب.

حين إئتلفت الأحزاب الستة، في «اللجنة العربية العليا»، في ١٩٣٦/٤/٢٥، اتضح بأن الأعضاء المسيحيين الثلاثة فيها كانوا أكثر تعليمًا، وتمدنًا(نسبة إلى المدينة)، من زملائهم المسلمين التسعة.كما كانوا أكثر فتوَّة؛ ما يعني أن الفجوة بين الأجيال، وبين النخبة والجماهير، كانت أضيْق وسط المسيحيين، منها وسط المسلمين (٢).

حسب مرجع أكاديمي سوفياتي،شارك في الإضراب السياسي نحومئة ألف عامل، وفلاح، وصانع، وتاجر، وإن قادهم المثقفون،الذين سادوا في قيادة الثورة، وشملوا الطلبة، وذوي المهن الحُرَّة(٣) . أما الطلبة، فشكَّلوا الجيش السياسي للثورة؛ فمنهم المظاهرات، والندوات، والمؤتمرات، وحراسة الإضراب. واستمر الطلبة، والمدرسون في إضرابهم، منذ اليوم الأول للإضراب، وحتى يومه الأخير.

بينما شكَّل المهنيون الكتلة الرئيسية في القيادة السياسية للثورة، وعمل عدد منهم مستشارين لدى قادة المقاتلين، وأثبتوا الفائدة من وجودهم،بنوع خاص عند تشكيل المحاكم الثورية، على حد تعبير التقارير السرية البريطانية (٤).

قرر اجتماع واسع للأطباء العرب الفلسطينيين معالجة «جميع الفقراء المنكوبين»، مجانًا. بينما قرر مؤتمر المحامين، المنعقد في يافا، الامتناع عن حضور المحاكمات، والكفّ عن تقديم المرافعات، خلا ما يتعلق منها بقضايا الثورة. وقرر الصحافيون، في مؤتمرهم (١٩٣٦/٥/٢٧)،الإضراب، مبدئيًا، والتوقف عن إصدار صحفهم، ثلاثة أيام متصلة.كما عبَّر رجال الدين، الإسلامي والمسيحي، عن تضامنهم مع شعبهم في ثورته،عبر مذكرات إلى المندوب السامي البريطاني، في القدس (٥).

إذا كانت قيادات الأحزاب العربية الفلسطينية الستة تولت القيادة الواجهة لثورة ١٩٣٦،فإن أبناء الفئات الوسطى،ونسبة غير صغيرة من المثقفين، حملوا عبء القيادة السياسية الميدانية، من خلال «اللجان القومية»، التي تشكَّلت في المدن والقرى؛ وقلة من المثقفين – أبرزهم بهجت أبوغربية، وعبد القادر الحسيني –التحقت بالمقاتلين في الجبال، وجُلهم من الفلاحين. لذلك، لم يكن من باب الصدفة، أوخارج دائرة التوقُّع، أن يتولى فلاح بائع غلال، القيادة العسكرية للثورة، وهوعبد الرحيم الحاج محمد. بينما تولى عامل من الناصرة،حصل على مجرد الرابعة الابتدائية، القيادة العسكرية لمنطقة جنوب القدس، وسرعان ما تثقف هذا العامل في «الحزب الشيوعي»، وغدا – منذ أواسط الأربعينات – عضوًا في مكتب رئاسة التنظيم الماركسي العربي الفلسطيني،» عصبة التحرر الوطني»، التي تأسست خريف ١٩٤٣؛ وهذا العامل هوفؤاد نصار، الذي انتخبه «مؤتمر العصبة «أمينًا عامًا لها، في نيسان/أبريل ١٩٤٧. وحين وقعت النكبة (١٩٤٨)، ثم ضُم الجزء الشرقي من فلسطين إلى

شرقي الأردن،اتحد أعضاء «العصبة» ممن بقوا في ذاك الجزء، مع الحلقات الماركسية في شرقي الأردن، في أيار/ مايو١٩٥١،وحمل الجسم الجديد اسم «الحزب الشيوعي الأردني»،وأصبح نصار أمينًا عامًا للحزب الوليد، إلى أن توفي ،خريف ١٩٧٦.

معروف أنه، بعد اتهام «الكومنترن» لقيادة «الحزب الشيوعي الفلسطيني « بالانحراف اليميني (١٩٢٩)، تم استدعاء تلك القيادة إلى الاتحاد السوفياتي ، فانزاحت عقبة كأداء من أمام تعريب الحزب، وفعلاً، عقد الحزب مؤتمره السابع (١٩٣٠)،وانتخب لجنة مركزية سباعية، ٤ منهم عرب، بينما تشكل من تلك اللجنة مكتب سياسي ثلاثي، خُصِّص للعرب منه مقعدان، شغل أولهما المثقف المعروف، نجاتي صدقي، أما المقعد الآخر فشغله عامل من أصل جزائري، هومحمود الأطرش.وفي العام ١٩٣٢، تولى عامل بناء عربي فلسطيني، هورضوان الحلو،منصب الأمين العام للحزب.

تدفقت دماء عربية جديدة في عروق «الحزب الشيوعي الفلسطيني «، وكان لكل من المدرسيْن اليساريْن اللبنانييْن في «الكلية العربية « بالقدس: رجا حوراني، ورئيف خوري، الدور المُجدي في ذاك الصدد؛إذ احتضنا بضعة طلاب واعدين، كانوا تأثروا بالقائد النقابي اليساري الفلسطيني، بولس فرح، وسرعان ما قادوا التنظيم الماركسي العربي الفلسطيني (عصبة التحرر الوطني). وهؤلاء هم: توفيق طوبي، وإميل توما،وإميل حبيبي،إلى جانب الشاعر العربي الفلسطيني الشهير، عبد الكريم الكرمي (أبوسلمى)، وإن لم يكُن الأخير ضمن تلك القيادة.

حين بدأت موجة اغتيالات سياسية في فلسطين، واغتيل في سياقها،الأمين العام لجمعية العمال العربية، سامي طه (١٩٤٧/٩/١١)،وتلقى أبوسلمى تهديدًا بالقتل، وقف فؤاد نصار، في حشد جماهيري، متوعداً بقطع الأيدي بالبلطات، التي تمتد بالأذى للشاعر المناضل، أبوسلمى.

بعد أن استعصى إحياء «اللجنة العربية العليا «، العام ١٩٤٥، بسبب إصرار رئيس «الحزب العربي»، جمال الحسيني، على تمثيل حزبه بسبعة أعضاء، مقابل عضويْن لكل حزب، وإثنيْ عشر «مستقلاً»، من مناصري الحُسينيين؛ فإن أحزاب الدفاع، والاستقلال، والكتلة الوطنية، ومؤتمر الشباب، ردَّت بإئتلافها مع اليسار، المتمثل في «عصبة التحرر الوطني «،و» مؤتمر العمال العرب»، و» رابطة المثقفين العرب «، في مؤسسة جبهوية جديدة، هي « الجبهة العربية العليا». ما أفزع جامعة الدول العربية، ودفعها إلى التحرك السريع، وإقناع الحسيني بالعدول عن توجهه للاستئثار بالأغلبية داخل اللجنة؛ ونجح موفد الجامعة، وزير خارجية سوريا، جميل مردم بك، في تشكيل « الهيئة العربية العليا «، في حزيران / يونية ١٩٤٦، برئاسة الغائب الكبير، مفتي القدس الأكبر، الحاج أمين الحسيني، وعضوية كل من : جمال الحسيني، وإميل الغوري، وأحمد حلمي عبد الباقي، وحسين فخري الخالدي. وبعد بضعة أسابيع، انضم إلى «الجبهة» كل من : معين الماضي، ومحمد عزة دروزة، ورفيق التميمي، وإسحاق درويش، والشيخ حسن أبوالسعود.(٦) فتشكَّلت «الهيئة العربية العليا».

يلاحظ دارس رائد للنخبة السياسية العربية الفلسطينية، على مدى ثلاثينات وأربعينات القرن العشرين، بأن قلة من أعضاء «الهيئة « حصلت على أكثر من درجة علمية واحدة، في الميدان نفسه. بينما كانت دراسة القانون الأوسع نطاقاً؛ فمن بين ١٦ من أعضاء «الهيئة «، ممن حصلوا على تعليم عال، كان تخصَّص ٩ منهم في القانون؛ وقفز الرقم إلى ١١، إذا أضفنا عضويْن آخريْن يحملان درجات علمية في القانون، وميادين أخرى غير القانون (٤٣٪ من المجموع)، ما عكس المنزلة المحترمة للمؤسسات القضائية، والهيئات القانونية، وللعاملين فيهما، وجعل تلك المؤسسات والهيئات قِبلة أبناء الأُسر الموسِرة؛ أغلب الظن لرعاية الأعمال المالية، والتجارية، والعقارية، لأُسرهم، ولتمثيلها في ميدان السياسة، وإلا فالفرص متاحة، نسبيًا، في وظائف حكومة الانتداب. ولطالما تصدى القانونيون للدفاع عن القضية الوطنية، وفنَّدوا «وعد بلفور»، والمزاعم الصهيونية في فلسطين، والمحاباة البريطانية للصهيونية. لذا، أدى أولئك دورًا ملحوظًا في تحريض الشعب على الاستعمار البريطاني، والحركة الصهيونية. ولقد شكَّل غير المتخصصين ثلاثة أرباع حَمَلة الدرجات العلمية، من أعضاء «اللجنة»، ما جعل التنمية الاقتصادية –الاجتماعية لاتحتل رأس سلَّم أولوياتهم. عمومًا، كان التعليم عاملاً حاسمًا في الحراك الاجتماعي، بينما كان التعليم العالي، في المعهد العثماني، في متناول الأُسر الموسرة،دون غيرها، ما أسهم في تعميق الهوَّة الطبقية في المجتمع العربي الفلسطيني، وإن اتسع نطاق التعليم قليلاً، تحت الانتداب البريطاني، فطال أُسرًا أقل ثراءً، ونفوذًا. ومن بين ٣٢، هم مجموع أعضاء «اللجنة «و» الهيئة «، على مدى ثلاثة عشر عامًا (١٩٣٦-١٩٤٩)، فإن عشرة حَمَلوا بكالوريوس،وليسانس، بينما حَمَل إثنان شهادة ماجستير،و٤ دكتوراة، وإن لم يستكمل ٣ دراستهم الجامعية، ناهيك عن ١٣ لم يصلوا إلى التعليم العالي، أصلاً. وقد توزَّعوا على النحوالتالي:أعضاء «اللجنة «ال١٢، حصل ٥ منهم على شهادة جامعية،و٤ بكالوريوس، و٢ ماجستير، ودكتوراه واحدة. مع ذلك، لم يكونوا، من الوجهة التعليمية، قياسًا تمثيليًا لمجتمعهم، الذي نهشته الأُمية. بينما تدنَّت نسبة الجامعيين في «الهيئة «، ربما لأن اختيار أعضائها تم من قِبل مجلس جامعة الدول العربية، الذي أعطى الأولوية للمعيار السياسي(٧).

من بين أعضاء « الهيئة» الـ ٣٢، شارك ١٣ (٤٠،٦٪) في تحرير الصحف، والمجلات، وتأليف الكتب. ٥ منهم كتبوا بالإنجليزية، وإثنان بالفرنسية. وقد تلقى سبعة أعضاء تعليمهم الجامعي في الغرب.ونصف مجموع أعضاء «الهيئة» كتب في القومية العربية، والشؤون السياسية، متمسكًا بعروبة فلسطين، وبدولة فلسطينية عربية مستقلة، رافضًا المشروع الصهيوني. وقد انتمى ٢٨ للطبقة العليا، مقابل ٤،فقط، للفئات الوسطى. وقد تحدَّر الأوائل من كبار الملاك، من أُسر أرستقراطية، مدينية، عريقة. أما أبناء الفئات الوسطى، فمن عائلات مدينية، في الأغلب الأعم، وبدرجة أقل من الريف، والبادية. واحتفظ عدد من أعضاء «الهيئة» بالألقاب التركية القديمة؛ فحَمَل ٦ «البكوية»، و٤ « الأفندية»، و٢ «الباشوية»(٨).

من جهة أُخرى، شكَّل المثقفون أداة ضاغطة على قيادة الحركة الوطنية، الأمر الذي تجلى، غير مرة؛ ففي الوقت الذي أعلنت «اللجنة التنفيذية العربية « عدم الإضراب، بمناسبة ذكرى «وعد بلفور»، العام ١٩٣٠،

نجد أن «اللجنة الوطنية للطلاب «، بادرت، من جانبها، إلى تنظيم هذا الإضراب.وفي العام ١٩٣٣، أجبر المثقفون تلك القيادة على تصعيد نضالها ضد المستعمر البريطاني. وهل يمكن اعتبار الشيخ عز الدين القسَّام إلا مثقفًا وطنيًا ؟! ساءه تقاعس القيادة التقليدية للحركة الوطنية، فالتقط زمام المبادرة، وخرج إلى أحراش يعبد،أواسط تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٣٥، ليؤسِّس « بؤرة ثورية « هناك، بادئًا الكفاح المسلح ضد الاستعمار البريطاني، والصهيوني، على حد سواء؛ لقد اختار القسام الريف، حيث الفلاحين الأكثر تضررًا، وحيث قبضة أجهزة الأمن الانتدابية أكثر رخاوة، وحيث وعورة الأرض، الأكثر ملاءمة لحرب العصابات.صحيح أن حركة القسام لم تأخذ فرصتها الزمنية، فاغتيلت في المهد (١٩٣٥/١١/١٩)؛ وإن عاد قسَّاميون،فأشعلوا فتيل ثورة ٣٦-١٩٣٩ الوطنية الفلسطينية المسلحة، وهي الثورة التي احتل المثقفون فيها قطب الرحى، من خلال موقعهم المؤثِّرفي «اللجان القومية «، في شتى المدن. بينما حملت نسبة صغيرة من المثقفين على عاتقها مهمة الاغتيالات في المدن.(٩)

حين تمايز العرب الفلسطينيون، داخل «الحزب الشيوعي الفلسطيني»، بسبب احتدام الخلاف بين أعضاء الحزب، العرب واليهود، حول تقويم ثورة ١٩٣٦ الوطنية الفلسطينية؛ وظف الأعضاء العرب حل «الكومنترن»(٢)*، في ١٥/ ٥/ ١٩٤٣، في تأسيس تنظيمهم المستقِل « عصبة التحرر الوطني الفلسطينية»، التي أعطى تأسيسها دفعة قوية للحركة الشيوعية ، والحركة الوطنية الفلسطينيتيْن؛ فالعُصبة، وحدها، من بين كل الأحزاب العربية الفلسطينية، التي تستحق صفة الحزب؛ بسبب انفرادها ببنية تنظيمية، وعمل يومي، وبرنامج سياسي مكتمل، فضلًاعن مبادرتها لتأسيس تجمُّع للمثقفين باسم «رابطة المثقفين العرب»، التي أصدرت مجلتها نصف الشهرية، وحملت اسم «الغد». وقد صدر عددها الأول، في مطلع تموز/ يوليو١٩٤٥، واستمرت في الصدور، حتى عددها الثالث والأربعين. وكان صاحب امتياز المجلة، هوعيسى شاكر؛ أما رئاسة تحريرها، فأُسندت إلى عبد الغني الخطيب. وقد تصدر عددها الأول وعدًا بأن تكون الغد «مجلة رسالة القومية الواعية، والثقافة الحرة... تُعطي الدلالات الواضحة، وصدق الانتماء القومي للأمة العربية... وليست شوفينية، وثقافتها حرة ديمقراطية»(١٠).

لقد أدَّت «الرابطة»، ومجلتها، دورًا مجديًا، في المجالين، السياسي والثقافي، على حدٍ سواء.

حين تشكَّلت «عصبة التحرر الوطني «،في أيلول / سبتمبر ١٩٤٣، كتنظيم ماركسي عربي فلسطيني، فإن المثقفين هم الذين تصدَّروا هذه العصبة، أمثال إميل توما، واميل حبيبي، وتوفيق طوبى. لذا، كان إقدام العصبة على استحداث «رابطة المثقفين العرب «، ومجلتها نصف الشهرية (الغد) أمرًا منطقيًا.

شغل موسى الدجاني (متريكوليشن)موقع أول أمين عام للعصبة، وسرعان ما خلفه سليم الزغموتي، العامل في

---

٢ الكومنترن، هو "الأممية الثالثة"، وهي بمثابة اتحاد عالمي لمُختلف الأحزاب الشيوعية. وفي ٢ آذار/ مارس ١٩١٩، أفتُتح في موسكو مؤتمر شيوعي عالمي، مثَّل ٣٥ منظمة، من ٢١ قطرًا، وتمخض هذا المؤتمر عن تأسيس الكومنترن.

الشيوعية العلمية: معجم، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٥، ص٦٢ : ٦٤.

السكة الحديد (السابع الابتدائي)،لكنه لم يمكث طويلًا في موقعه هذا، وحل محله مكتب رئاسة ثلاثي، ضم كلًا من : فؤاد نصار (رابع ابتدائي)، وإميل توما (لم يكمل دراسته الثانوية)، ومخلص عمرو(متريكوليشن). وإلى جانبهم تصدَّر العصبة كل من: إميل حبيبي، وتوفيق طوبي، ورشدي شاهين (كلهم من حَمَلة متروكوليشن)، وبولس فرح،النقابي العمالي (سابع ابتدائي). وقد كتب كل من نصار،وتوما،وعمرو، وإميل حبيبي، وطوبي، مقالات في الصحف، دون أن يُصدر أي منهم كتبًا، الأمر الذي فعله فرح، بعد أن غادر «العُصبة»، غُداة النكبة.

بيد أن قطاعًا من المثقفين لم يخفِ انبهاره بالولايات المتحدة، فشكَّل «المكتب العربي»؛ متوهمًا إمكانية «تخليص الرأي العام الأميركي والبريطاني من براثن الأخطبوط الصهيوني !» بينما عمد بعض الليبراليين، والوطنيين الديمقراطيين، إلى تأسيس» حزب الشعب «، سنة ١٩٤٦، برئاسة المصرفي المرموق، فريد السعد؛ وأسسوا لذلك جريدة «الشعب «اليومية، لكن محاولة تأسيس الحزب باءت بالفشل، أساسًا بسبب احتدام الخلافات بين جناحيْ المؤسسين، الديمقراطي، والمعجب بالغرب، وإن استمرت الجريدة في الصدور.

مع صدور قرار تقسيم فلسطين، عن الجمعية العامة للأمم المتحدة (١٩٤٧/١١/٢٩)، حملت نسبة غير قليلة من المثقفين السلاح، القليل، القديم، المتواضع، بذخيرته الشحيحة. لكن النكبة وقعت. ولهذا قصة تُروى.

الهوامش

(١) عبد الله القطشان، التعليم العربي الحكومي إبان الحكم التركي والانتداب البريطاني، عمان، دار الكرمل، ١٩٨٧، ص ٥٦ -٦٧؛ _ الشورى(القاهرة)،١٩٣١/٦/٣.

(٢) د. تيسير الناشف، النخبة السياسية في المجتمع العربي في فلسطين، شؤون فلسطينية (بيروت)، العدد ٤٨، آب / أغسطس ١٩٧٥،ص ١٣١-١٦٧.

(٣) د. ر.فوبليكوف وآخرون،تاريخ الأقطار العربية المعاصر، موسكو، دار التقدم، ١٩٧٥، ص ١٢٦.

(٤) عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث،ط١،بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، تشرين الثاني /نوفمبر ١٩٧٠، ص ٣٤١.

(٥) عيسى السفري، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ج٢، يافا، ١٩٣٧، ص ٢٨-٣٢.

(٦)د.إميل توما، ستون عامًا على الحركة القومية العربية الفلسطينية، ط٢، بيروت،منظمة التحرير الفلسطينية،ودار ابن رشد،١٩٧٨ ،ص١٨٧-١٩١.

(٧) الناشف، مرجع سبق ذكره.

(٨) المرجع نفسه.

(٩) للمزيد، يمكن الرجوع إلى :

-عبد القادر ياسين، كفاح الشعب الفلسطيني قبل العام ١٩٤٨،بيروت، منظمة التحرير الفلسطينية، مركزالأبحاث، ١٩٧٥، ص ١١٥، ١٤٨-١٥٩.

(١٠)للمزيد، يمكن الرجوع إلى:

- الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٩٠ (انظر: عبد القادر ياسين، الصحافة العربية في فلسطين، ص٤٤١ – ٤٤٢).

رواية جمال الحسيني (على سكة الحجاز) فلسطين.. المدنية والمدينة، وقَدَر الجغرافيا

فراس عبيد*

جاءت رواية جمال الحسيني، على سكة الحجاز، في ١٨٢ صفحة من القطع الصغير، الصادرة عن وزارة الثقافة الفلسطينية، رام الله، ٢٠٢٢، طبعة ثانية، ويهدينا الزمان أحيانا نصوصا روائية فريدة واستثنائية، لتكون شاهدة على فترة زمنية مفصلية في تاريخ شعب، فما بالك لو كان ذلك الزمن هو العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، وكان المكان هو المدن الفلسطينية العريقة القدس ويافا وحيفا ونابلس وجنين.. إنها رواية (على سكة الحجاز) للسياسي الطليعي والمثقف الفلسطيني جمال الحسيني الذي نشرها أول مرة في العام ١٩٣٢ في طبعة أولى عن مطبعة دار الأيتام الإسلامية في مدينة القدس، ثم نشرت في طبعات متعددة آخرها طبعة وزارة الثقافة الفلسطيينية عام ٢٠٢٢.

وتكتسب هذه الرواية أهمية إضافية لكونها من أوائل الروايات التي ظهرت في فلسطين والوطن العربي، ومثلت الرواية من حيث هي جنس أدبي مستقل، له خصائصة الفنية والشكلية.

وإن مقاربة نقدية لرواية من هذا النوع الفريد لا تخلو من افتتان وحفاوة حقيقيين بكل مكوناتها، دون أن يحجب ذلك عن نواظرنا النفاذ النقدي لبنيتها الفنية، مع مراعاة قيمتها في سياقها الزمني، فلا نطلب من صاحبها أكثربكثير مما قدم.

رواية الأقدار الصعبة

تتقاطع عدة علاقات في هذه الرواية، مُشكّلة العالم الروائي والصراع والحبكة والقيم، وأبرز هذه العلاقات أو الأدوارهي:

- علاقة الإقطاعي صاحب قرية (سَته) إميل بالفلاحين الثلاثمئة المقيمين والعاملين في ملكه.

- علاقة الحبيبة (غريبة) بالحبيب (إبراهيم) ابن الإقطاعي إميل.

- علاقة حكومة الاستعمار البريطاني بأبناء شعب فلسطين.

- علاقة الصديقين أحمد وإبراهيم.

- علاقة الفلسطيني بالمكان – الوطن.

- علاقة المثقف الفلسطيني بشعبه.

إن مما يحسب لهذا الروائي والسياسي الطليعي هو مقدرته اللافته على تناول مواضيع متعددة (بيع الأرض لليهود، والحب، والصداقة، واليتم، ودور المثقف، وانتقام الأقدار، ..) في قالب روائي متجانس، وضمن رؤية فكرية واضحة، وسردية غير مباشرة، في آن واحد، محورها الأكبرهو المحافظة على الأرض.

فهو يبدأ روايته بتصوير جمال المكان الفلسطيني، في مدينة حيفا وبحرها وسهولها وجبالها وقرى حيفا ومنها (قرية سَته) المتخيلة، ويربطه بطفولته وبوجوده وبمستقبله.

ولا يفوته أن يصف مراقبته المثيرة لقطار الحجاز العثماني المغادر من حيفا إلى جنين إلى المدينة المنورة، ثم ينتقل متحسرا في جمل وإشارات دلالية متنوعة إلى التغييرات الجغرافية والسكانية والسياسية التي طالت المكان - الوطن بفعل الهجرة اليهودية والدعم البريطاني اللامحدود للمشروع الاستيطاني في فلسطين.

« وها أنذا أقعد اليوم تلك القعدة لأمتع النفس بما عودتها عليه في تلك الأيام، وأرقب القطار الحجازي ينطلق من حيفا، فإذا بدا لي ارتدّ طرفي بدمع سخين، وانكمشت مكاني بقلب حزين، ذلك أن هذا القطار ينطلق من حيفا ولكن لا إلى مدينة الرسول! ويضم الألوف في أحشائه ولكن ممن لم تدفعهم إلى ركوبه عاطفة سامية أو مقصد جليل! ذلك أن هذا القطار حجازي بالاسم! ذلك أنه أنشيء من قبل المسلمين ولمصالحهم فأصبح لليهود ولمصالحهم!».(على سكة الحجاز، ص١١).

وليس من الصعب الإمساك بالخيط الروائي الأساسي في رواية الحسيني وهو الأرض باعتبارها أساس الوجود الفلسطيني، وهو خيط يمسك به الروائي من خلال بيع بعض الفلسطينيين أراضيهم لصالح المشروع الاستيطاني في فلسطين، من أجل الإثراء أو سداد ديون.، حيث تدين الرواية على لسان شخصياتها كل فلسطيني يقوم بهذا البيع بغض النظر عن مسوغاته، بالإضافة إلى الإدانة الكبرى من طرف الراوي نفسه على امتداد الرواية، حيث يمكن الاستنتاج أن مقصد الروائي من كتابة روايته (على سكة الحجاز) عبرحبكة مشوقة ومثيرة ومفتعلة أقرب للسينمائية، هو ردع كل من يفكر ببيع أرضه لصالح المشروع الاستيطاني في فلسطين.

وهو بهذا يمتلك وعيا استباقيا لخطورة هذا الفعل، كما أنه يجسد دور المثقف الملتزم من خلال قيامه بالتنوير الروائي.

وبملمح ذكاء روائي يقدم (جمال الحسيني) نموذجا فلسطينيا إيجابيا معاكسا بل مناقضا ومضادا لنموذج من يبيع أرضه، وهو (الحاج حافظ) الذي حرم المشروع الاستيطاني من وضع أي موطىء قدم له في مدينة نابلس « هذه هي المدينة الكبرى الوحيدة التي خلت من الغاصبين. فهي لا تزال بيضاء وأهلها آمنون! وكان ذلك بفضل تضامنهم في الوقوف في وجه الغاصبين الذين حاولوا الاجتياز إليها فردوا خاسرين. فلقد حاول اليهود أن يرسلوا إلى هذه المدينة منهم من يقطنها ويزاول أعماله فيها كي يفتح الباب لغيره، ثم يندسوا بين أهلها قليلا قليلا. حتى يستفحل أمرهم ويصبح ردهم من المستحيل. فقام رجل من أثريائهم أنعم عليه الله بسعة في اليد وإيمان في القلب ونخوة في الرأس. فجعل ديدنه مقاومة تلك المحاولة. فكلما استأجر اليهود مكانا لسكنهم أفسد سعيهم واستأجر هو ذلك البيت وأبقاه خاليا على نفقته. حتى ضاق اليهود ذرعا به ورجعوا خاسرين. (على سكة الحجاز،ص ١١٦) .

حب وحياة وجمال

(على سكة الحجاز) رواية حب بامتياز، فهي تحوي بين ضلوعها أكثر من قصة حب، إلا أن القصة الأساسية فيها هي قصة حب (غريبة وإبراهيم)، حيث لا تكشف هذه العوالم من الحب إلا عن مجتمع فلسطيني إنساني طبيعي مستقر آمن، يعيش أبعاده الإنسانية في مطالع القرن العشرين بكل ما أوتي من فطرة وشوق وأمل. وقد أبدع المؤلف في وصف منطقة الحب عبر أفعال شخصياته وأقوالها، وكذلك عبر وصفه التحليلي العميق لبواعث الحب وحالاته ونتائجه، إلى الحد الذي تضع فيه الرواية قارئها أمام مواجهة ذاتية إزاء حقيقتين هما الحب والحياة. بل إن القارىء سيسائل نفسه: ترى هل أحببت حبا كهذا يوما ما؟ وهل سأحب حبا كهذا يوما ما؟ وهل من الممكن العثور على حب كهذا يوما ما؟ وهل الحب هو حقيقة تكويننا حياتنا ووجودنا؟

« أما هي! فكأنها ملاك ينطق بالحكمة وتوحي بألفاظها العذبة ونغمة صوتها الجميل ونظراتها الساحرة أجمل ما خلق الله من المعاني!.. وتكلمت الأعين بما هو أبلغ مما يقدر اللسان على التعبير به. وتصارحت القلوب وتعاقدت على الحب الطاهر. وكل ذلك في لحظة مختلسة!.. وسارت الآلة الصماء تطوي البيد طيا. وسلم احمد نفسه للمقادير. وسلمت الوالدة نفسها للنوم. وسلم الآخران نفسيهما للحب. وبعد لأي دخلوا القدس أربعة في سيارة وكل تائه في بيدائه. فغريبة في نعيمها وإبراهيم في آماله وأحمد في يأسه وقنوطه والوالدة في البنايات الضخمة. (على سكة الحجاز. صفحات ٥٣، ١١٦، ١١٧).

وتوظف براعة الكاتب قصة الحب الرئيسة لخدمة محور الدلالة الكلية في الرواية وهو الحفاظ على الأرض، من خلال حبكة درامية مثيرة وربما مفتعلة. لكنها في نهاية المطاف حبكة مشوقة وممكنة الحدوث، ووظيفتها الأهم هي خدمة الرؤية الروائية الكلية وإقامة البنيان الروائي الجميل والمشوق. وأشير إلى أن هذه الرواية هي مادة صالحة جدا لفلم سينمائي أو لمسلسل درامي طويل على نمط المسلسلات التركية التي تعج بالمفارقات والمفاجآت وتدخلات القدر، وتقطع الأنفاس تشويقا واندهاشا!

الحق أنها إذا دخلت مجال المرئي المسموع، فإنها ستكون علامة جميلة ومهمة من علامات الدراما الفلسطينية الوطنية والتاريخية والرومانسية.

الرواية وعلم النفس

من مقولات النقد المعاصر المهمة « بإمكان الروائي أن يعلمك عن النفس الإنسانية أكثر من عالم النفس»!

إن الاقتران بين الرواية والتحليل النفسي قديم قدم الرواية كجنس أدبي، ولعل هذا الغوص النفسي في أعماق الشخصيات، والاستبطان لأعماق البشر، والحوارات النفسية الداخلية التي يمارسها البشر مع أنفسهم في العالمين الروائي والواقعي، وشوق الروائي للتفسير وللقص من موقع القاص العارف،.. هو ما منح الروايات على مر العصور تلك الميزة الفريدة التي تجعل قراء الرواية في أرجاء الأرض كلها يتلهفون على مطالعتها بين الحين والآخر.

ولا تشذ رواية (جمال الحسيني) هذه عن تلك القاعدة، بل إنها تؤكد بقوة على تلك الميزة، كما يسجل له هذا الاقتدار في التعاطي مع التحليل النفسي في تلك المرحلة المبكرة من عمر الروايتين الفلسطينية والعربية، من خلال وصفه للصراعات العميقة داخل شخوص روايته، ولعل في سيرة الحسيني لمن يطالعها ما يزيل الدهشة عن تحقق هذا المستوى العميق من التحليل في روايته هذه، فهو قائد سياسي عربي في عهد الاستعمار البريطاني لفلسطين ومثقف وأكاديمي ومترجم.

لنتمعن هذه الفقرة الفريدة في الرواية « وكان الحويطي يستلقي على كرسيه كل يوم خارج البيت ويصوَب إلى كل ذلك نظر الناقد البصير. ويعجبه أن يرى أحمد مندفعا في مرضاة غريبة ذلك الاندفاع. وقد علم أنها ليست قريبته، وأنها عنه بعد السماء عن الأرض. وهو لا تبدو عليه سيمة من أحب فاستكان فعبد. أو من وضع خطة ونصب شركا لاقتناص قلب حائر فهو يرتقب الفرص، ويداور الظروف، وينتظر صروف الايام. لا هذا ولا ذاك بل كان وإياها كالخادم الامين يتبع سيدته ويحرص عليها ويستميت في مرضاتها دون أن يجسر على النظر إليها. ولكن هل هذه عواطف البشر؟! أهذا ما علمته الأيام؟! إن معرفة عواطف الناس أصعب من معرفة لغة العصافير؟ فليصمت وليراقب.».

(على سكة الحجاز، ص ١٧١) والحق أني بينما كنت أمارس دور القارىء للرواية، قد ظفرت بمتعة فكرية عميقة من حصيلة التحليلي النفسي – عبر الروائي.

وتقارب الرواية أيضا مجالا معرفيا جميلا وفريدا وقريبا من علم النفس، هو مجال علوم الطاقة المؤثرة في الإنسان، وأبرز تجسيد لهذا المجال هو حديثه عن تأثير فصل الربيع على الكائنات جميعا، وتأثير البحر في إطفاء الغضب والصدمة لدى الإنسان.

فهو يقول في مقدمة فصل عنوانه (الربيع)» في الربيع تنتشر الأحياء على وجه البسيطة! وفي الفضاء الواسع،

مدفوعة بعاطفة واحدة - الحب - فالطيور على أغصانها تتشاكى، والوحوش في أوغالها تتصارع، والدواب والهوام يتبع بعضها بعضا، والعاطفة تحدوها، والحب يضطرم في جوانحها. فالربيع هو الشباب. فهواؤه وماؤه وصفاؤه وعبيره وخضيره ونضرته تجدد الشباب وتملأ النفس بميعته والقلب بعاطفته.»(على سكة الحجاز، ص ١٧٧).

وعن طاقة البحر العلاجية يصف حال إبراهيم المصدوم من نهاية حلمه بالزواج من حبيبته «فنظر إلى البحر وأحس بشعور قوي يدفعه إليه تخفيفا لتلك الحرارة المرهقة في جسمه ونفسه. وكان يحسن السباحة ويرتاح إليها. فليعالج نفسه بها لعله يطرد تلك الأفكار ويزيل تلك الحرارة ثم يرجع إلى الشاطىء فيلقي نفسه في أحضانه ويقرر ماذا يجب عمله بعد اليوم وقد انقلبت له الحياة ظهرا لبطن وداخلت حياته شخصية أخرى. نعم! الماء نعمة الله في الأرض فليغص في لججها وليطلب فيها راحة لجسمه وقلبه. (على سكة الحجاز، ص ١٦٩).

إشارات حضارية وطبقية ومدينية في الرواية

إذا كان من فتنة لهذه الرواية فهي فتنة حضور فلسطين التاريخية ببهائها وبمفرداتها الحضارية والمدينية، فهي رواية تقول لك إن بلدا طليعيا متمدنا جميلا اسمه فلسطين موجود منذ فجر التاريخ، مرورا بمطالع القرن العشرين، وحتى يومنا هذا.

فكل ما في الرواية مطبوع بما هو فلسطيني (المكان، الزمان، الأشخاص، الهم، الخصوصية، الثقافة، التاريخ) يضاف إلى ذلك كله الرواية نفسها بحمولتها الأيديولوجية التي تخدم بالدرجة الأولى قضية فلسطين.

فيخفق قلب القارىء عندما تتنقل أحداث الرواية بين المدن الفلسطينية العريقة وفي مقدمتها القدس، ويافا وحيفا ونابلس وجنين وغيرها، كما يتوقف تفكيره طويلا أمام المؤسسات المدنية الفلسطينية العريقة التي وجدت في فلسطين في القرنين التاسع عشر والعشرين مثل مدرسة دار الأيتام الإسلامية في القدس، والجمعية الإسلامية المسيحية، وسكة الحديد التي تربط مدن فلسطين بعضها ببعض كما تربطها بالحجاز وبمصر وغيرها، وميناء يافا، وغير ذلك كثير مما يشير إلى هوية فلسطين المدنية والحضارية المتطورة في تلك الفترة التاريخية.

ولا ننسى الإشارات الطبقية المتنوعة التي وردت في ثنايا الرواية، دالة على تركيبات اجتماعية وطبقية كانت قائمة في المجتمع الفلسطيني، مثل طبقة العائلات الإقطاعية والثرية التي كان يعمل في كنفها الفلاحون والمعدمون، وطبقة العمال وصغار الموظفين والفقراء.

« قرع باب بيت حقير بالقرب من الميناء. وأعاد القرع وأيقظ الجيران.»(على سكة الحجاز، ص١٥١).

الرواية فنياً

منحتني الرواية متعة كبيرة وعميقة في دوري القارىء والناقد معا، إذ امتلك الراوي أدواته كافة، ما عدا بعض جوانب الحبكة الروائية التي بدت مفتعلة، ونهاية (إميل بيك) المبتسرة والغامضة رغم أنه أحد أهم مفاتيح الرواية.

فقد شدني صبر الروائي على نسج خيوطه، وتسلسلها، وأوصافه الدقيقة الوافية، ناهيك عن لغته السردية المباشرة، الصافية، البعيدة عن التكلف والسجع والتعبيرات التقليدية - ولا ننسى دائما أننا نتحدث عن نص فلسطيني مكتوب في بداية ثلاثينات القرن العشرين -.

والسارد في سكة الحجاز يسرد برصانة، كما يسرد بثقة وبحرية وبلباقة وبمرح أيضا، وهو في كل ذلك يلتزم أسلوب العربية الجميل والعصري في آن واحد، ويمكن القول أنه ابتدع لروايته لغة روائية جميلة، تخللتها نفحة وجدانية وسامية سيطرت على عالم الرواية، مقدما للقارىء سردا ناضجا محكما سلسا، وفق تسلسل مقنع وصبور للخيط السردي، مع عرض سلس للشخصيات نام ومتدرج وواضح، ليصل به إلى رؤية نهائية (رسالة الرواية) واضحة تعكس وضوحا في الرؤية لدى الروائي نفسه.

وكذلك ينبغي أن نقول عن هذه الرواية أنها مطبوعة بإنسانية عالية وتهذيب ورقي هي بلا شك صفات الروائي نفسه، وأنها تخضع بقوة، في محور الدلالة لا المعنى، لدائرة إنسانية عميقة الغور ورقيقة، قوامها القيم السامية والفطرة السوية. يضاف إلى ذلك بعض الحوارات والمضامين الفلسفية والروحية العميقة. إن ما سبق كله يعكس المستوى الثقافي الرفيع للروائي.

وقبل الانتهاء

يطيب لقلمي الإشارة إلى:

١- جمال عناوين الفصول التي كانت ترشد القارىء وتشوقه وهي:

(قفا نبك، الفاجعة، السر، اليتيمة،العطلة، الثورة، إبراهيم بيك المدير، الزيارة الاولى، إنه يحبها، والد وابنته، المرض، الدعوى، أمل بعد يأس، إلى القدس، المساعد أحمد أفندي، من مدرسة الأيتام إلى مدرسة العالم، الوالد المعذب، السهم الأخير، الدموع، الربيع، بيك سَته).

٢- تعرضت الرواية للثورة الفلسطينية عام ١٩٣٠، وللدور الاستعماري البريطاني وسخريته من دعواها (الانتدابية)، وكشفت دوره في تسهيل المشروع الاستيطاني الصهيوني، وكذلك لعبها على وتر الحرص على المسيحيين الفلسطينيين لتسويغ سياساتها وتنفيذ مخططاتها.

٣- الوجهة التقدمية للرواية.

طرحت الرواية على لسان أحد أبطالها الرئيسيين المهندس (إبراهيم) رؤى تقدمية تخص الجماعة الفلسطينية والأمة العربية قوامها الوحدة الوطنية والقومية، ونبذ الفارق الديني والتصدي له في علاقة الزواج، واحترام العلم والمتعلمين.

على سكة الحجاز.. رواية حب للإنسان وللوطن وللتقدم.

أعمال نجيب محفوظ في السينما..
مراوحة بين الأفلام الفنية والتجارية

سعد القرش

نجيب محفوظ منح القراء والنقاد حق تأويل النصوص، وقراءة العمل الأدبي، بعيدا عن أيديولوجيا المؤلف، وآرائه المعلنة حتى في العمل نفسه. قاعدة محفوظية تُحتذى، وقلما احتملها آخرون؛ لحساسيتهم المفرطة نحو أعمالهم(١). كما أرسى محفوظ قاعدة أخرى، في دائرة أكثر اتساعا، إذ يمثل النص الأدبي عنصرا في صناعة ضخمة هي السينما، أو الدراما في العموم. ومبكرا أكد مسؤوليته عن النص وحده(٢)، وكما صار ملكا للقارئ، فللسينمائي أن يجتهد، ولو بالتشويه، ما دام يأمن اعتراض الكاتب. مثلٌ محفوظي يجب ألا يُحتذى. وما كان لمحفوظ أن يُطمع السينمائيين في النصوص الأدبية، ويجرّئهم على العشم، ما لم يتسلحوا بوعي علي بدرخان وحساسية محسن زايد.

قررتُ أن يكون ٢٠٢٢ عام محفوظ، بقراءة جديدة تصاعدية لأعماله، كما تلقاها القارئ منذ البداية. المنجز الإبداعي المحفوظي، ٥٥ عملا، متاحاً في عشرة مجلدات كبيرة القطع أصدرتها دار الشروق نهاية ٢٠٢١، وتضاف إليها ترجمة محفوظ لكتاب «مصر القديمة» لجيمس بيكي(٣). يستغرق المجلد شهرا. ترتيب الأعمال، حسب التواريخ الأولى لنشرها، يضع القارئ والباحث أمام التطور الفني للكاتب، بدءا بإيمانه بإعادة كتابة تاريخ مصر القديمة روائيا (عبث الأقدار، رادوبيس، كفاح طيبة)، مرورا بنزعة الوعظ الأخلاقي في «زقاق المدق»، وصولا إلى النضج الواثق في ثلاثية (بين القصرين، قصر الشوق، السكرية) التي تحتل مجلدا. هو الأكبر حجما (٩٧٦ صفحة)، والأكثر تجانسا عضويا. ونجحت التجربة.

اقترنت القراءة بمشاهدة الفيلم أو الأفلام التي اعتمدت النص مصدرا. صلاح أبو سيف لمح في محفوظ كاتبا سينمائيا مجيدا، لكن انتباه السينما إلى أدبه تأخر أكثر من عشرين سنة. واعتمدت

أدبه، وأدخلته في منافسة مع روائيين يمتاز عليهم باحترافه القديم للسيناريو. وانصرف عن الكتابة للسينما، متفرغا للأدب، وصار اسمه وأعماله استثمارا، في أفلام فنية وتجارية. وفي القراءة والمشاهدة قررتُ نسيان انطباعاتي السابقة عن النصوص والأفلام. ونجحت خطة القراءة، ولم تكن الأفلام لتنجو من مرآة النصوص كمعيار جمالي يقترب منه الفيلم أو يبتعد، انطلاقا من ندية الرؤية، أو هزيمة أمام النص، أو التوسل باسم الكاتب بعد فوزه بجائزة نوبل عام ١٩٨٨.

تستعصي كلاسيكيات الأدب على السينما. السينمائي يخشى الهزيمة؛ فيفضل عملا يمنحه حرية التصرف. وقد أحببت أفلاما قليلة مأخوذة من أعمال محفوظ: «بداية ونهاية» و«القاهرة ٣٠» لصلاح أبو سيف، «اللص والكلاب» لكمال الشيخ، «ثرثرة فوق النيل» لحسين كمال، «الكرنك» و«أهل القمة» و«الجوع» لعلي بدرخان، «حكاية الأصل والصورة»(٤) لمدكور ثابت، «قلب الليل» لعاطف الطيب. يعجبني إيقاع كمال الشيخ المستند إلى خبرته في المونتاج، ورهانه على ذكاء مشاهد يفرض أبو سيف عليه وصاية أحيانا؛ فيكعبل عينيه في رمز سافر، أو شعار على جدار. وأعجبني «اللص والكلاب» أكثر بعد مشاهدة «ليل وخونة»، وفيلم «اعتراف» للمخرج الأذربيجاني جميل علييف «Sjamil Aliyev» (١٩٩٦) الذي يستلهم الرواية.

فيلم «حكاية الأصل والصورة» لا يزال عملا طليعيا تجريبيا، يكسر الإيهام، وينأى عن السرد التقليدي في تقصي جريمة قتل ضحيتها فتاة مجهولة عثر على جثتها. وكان نجيب محفوظ قد صرح عقب عرض الفيلم بأنه يسبق زمانه بثلاثين عاما. ويرى الناقد المصري إبراهيم فتحي أن هذا الفيلم «يكاد يقف وحده على الضفة الأخرى من الأفلام التي ترجمت محفوظ إلى لغة سينمائية تعتمد على توليفة التسلية والترفيه والإبهار»(٥). ويصف الناقد التونسي فتحي الخراط الفيلم بأنه عمل كبير، غير تقليدي، ينطلق من ملحمية المسرح البريختي، ويتجاوز تراث السينما المصرية التي يغيب فيها التجريب، حتى «تبدو تجربة مدكور ثابت يتيمة لم تسبقها أي تجربة»(٦).

القراءة الجديدة لمحفوظ زهّـدتني عن معظم أفلامه، وأذهبت الحب القديم. هناك أجيال اتخذت الأفلام والدراما مصادر لمعرفة عوالم محفوظ، والأنس إلى أبطاله الذين أصبحوا من الحقائق المصرية. هؤلاء الكثيرون فاتهم الكثير. وأصدق ما ألحّ عليه محفوظ أن من يريد معرفة رؤاه فيلقرأ أدبه، وأنه يُحاسب على النص المنشور. أما الأفلام فمسؤولية صناعها. النص المحفوظي لا يمنح نفسه من القراءة الأولى، ولا يستجيب لقارئ متعجل يريد معرفة ماذا يقول الكاتب؟ نصّ ثري يغوص في كيفية القول، وطبقات الوعي الحاكمة لمسار الدراما ومصائر البشر. النصوص المحفوظية أكثر عمقا من كل الأفلام التي اقتربت منها. أقول «كل» باطمئنان، بالرغم من الاستثناءات النادرة.

مسّني فيلم «دنيا الله» عن أول قصة قصيرة تنتجها السينما لمحفوظ، عام ١٩٦٨. «دنيا الله» (٤٢ دقيقة) أحد ثلاثة أفلام قصيرة ضمها فيلم «ثلاث قصص». والثاني «خمس ساعات» قصة يوسف إدريس، وإخراج حسن رضا، وتمثيل نادية لطفي ومحمود المليجي. والثالث «إفلاس خاطبة» قصة يحيى حقي، وإخراج محمد نبيه، وتمثيل سميحة أيوب وعبد المنعم إبراهيم وليلى طاهر. ولعل «دنيا الله» من أكثر الأفلام تمثّلا لفلسفة محفوظ، وتجسيدا للقلق الوجودي، وإثارة للأسئلة عن السعادة وجدوى الحياة. القصة من مرحلته الرمزية التي انشغل بعض السينمائيين بظاهرها. واستطاع المخرج إبراهيم الصحن وكاتب السيناريو عبد الرحمن فهمي والممثل صلاح منصور القبض على معنى «دنيا الله».

يناقش الفيلم معنى السعادة، بعيدا عن الوعظ والصراخ. كيف ينتزع الموظف البائس حقه من الفرح؟ يرى العدل أن يسعد شهرين، مهما تكن النهاية ولو في السجن؟ يفعلها إبراهيم الفراش ويهرب برواتب الموظفين إلى المصيف، بصحبة بائعة اليانصيب ياسمينة (الممثلة ناهد شريف). الباحث عن السعادة ليس متهورا. حكيم رحيم يتذكر المحتاج الوحيد إلى المال، إنه أحمد أفندي الذي يرجع إلى البيت مهموما، فيفاجأ براتبه تركه الفراش، وإيضاح أن الآخرين لا يحتاجون إلى رواتبهم، وأنه يريد أن «ينبسط» شهرين. الرجل يتأمّل الرسالة المكتوبة على ورقة بيضاء في عمق الكادر، في مشهد قاتم، بالثياب والستارة وجدار الغرفة التي صممها مهندس الديكور حامد مصطفى.

السعادة المسروقة قصيرة العمر، قلقة ومطاردة. وتغادره ياسمينة بما تبقى من المال. وعلى خلفية موسيقى حانية لفؤاد الظاهري يهيم الرجل المسكين، وتلاحقه كاميرا مدير التصوير فيكتور أنطون ماشيا على الأعراف، على يمينه غموض البحر بأمواجه الكابية، وعلى يساره الرمال ببياضها الباهت. على الخط الفاصل بين النور والظلام، يناجي ربه بمحبة اللائم أنه لم يطلب الكثير. استمتع أسبوعين، ويريد أسبوعين آخريْن: «مش كتير على السنين السودة اللي فاتت دي كلها. ده ذنبي أني بحبك يا رب؟ أنا بحبك»، وينتهي المشهد بقطع حاد على قبتي مسجد ومئذنة تعانق السماء، وفي اللقطة التالية ينهي الصلاة، ويحمد الله حمدا لا يخلو من عشم العتاب.

إنه لوم اللائذ بالله الذي خلق الدنيا «حلوة، وحرمتني منها». ويعزي نفسه بأن لا فائدة. ويخرج من المسجد يعطينا ظهره، في مشهد ظلي (سلويت)، يجعله شبحا، ظل إنسان، يعطينا ظهره في لقطة قريبة يزيد فيها حجم جسده على قباب المسجد، ورأسه في السحاب، ويستسلم للشرطي الذي يسأله: لم فعلت ذلك؟ فيصمت وينظر بأسى إلى السماء. في النص القصصي، يرضى إبراهيم الفراش بالسعادة المسروقة، ويمتن لأيام المسرات، حتى بعد أن غادرته الفتاة، «فليسامحها الله وليسعدها

الله». كلاهما وحيد. ثم يصلي ويناجى ربه: أيرضيك هذا؟ ويبكي. ويستسلم للمخبر الذي يسأله: ماذا دفعك إلى تلك الفعلة وأنت في هذا العمر؟! فيتنهد ويجيب: «الله»(٧).

فماذا فعل حسن الإمام بدنيا الله؟

عام ١٩٨٥ أخرج الإمام فيلم «دنيا الله»، سيناريو وحوار عصام الجمبلاطي الذي كان في رصيده فيلم واحد، «أسوار المدابغ» عام ١٩٨٣ عن رواية لإسماعيل ولي الدين. وكتب ثلاثة أفلام عرضت عام ١٩٨٦: «التوت والنبوت» و«عصر الحب» من أدب نجيب محفوظ، و«الفريسة» معالجة لمسرحية «عربة اسمها الرغبة» للأميركي تينيسي وليامز. لسبب رقابي غبي في التلفزيون المصري تغير عنوان الفيلم إلى «عسل الحب المر»، ومن دون تغير العنوان لا ينتمي الفيلم إلى محفوظ. انطلق العمل من ظاهر واقعة السرقة، إلى أجواء تؤكد انتسابه إلى ميلودراما حسن الإمام. وجرى تفريغه من فلسفته، وتلفيق مكائد وأشخاص ليكون كوميديا، فكان حمودة الهجام (الممثل سعيد صالح).

القصة المحفوظية، مع حسن الإمام، فقدت الرهافة والأشواق التي جسدها صلاح منصور، وأصبحت سلسلة من الهروب والمطاردات والاحتيالات لسرقة المال من الفراش الساذج (الممثل نور الشريف)، عن طريق ياسمين (الممثلة معالي زايد) وحبيبها حمودة الذي يعدها بالزواج حتى يسطو على المال، ويتزوج عزيزة (الممثلة إسعاد يونس). يغيب المعنى، فتحتشد المشاهد بثرثرات ومعارك لزوم الأكشن. لم تكن الهزيمة أمام النص الأدبي وحده، وإنما أمام أداء صلاح منصور وناهد شريف. بل إن الشخصية التي جسدها سعيد صالح مستنسخة من شخصية أداها، عام ١٩٨٤، في فيلم «الخادمة» لأشرف فهمي. والفيلم الأخير معالجة لقصة «زيارة» في مجموعة «خمارة القط الأسود»(٨). ولا صلة للفيلم بالقصة.

مع أشرف فهمي والسيناريست مصطفى محرم تصبح «الخادمة» نسخة غير منقحة في سجل الممثلة نادية الجندي، بفجاجة الأداء النمطي لشخصياتها. الخادمة تخدع ابن مخدومتها وتتزوجه، بإيعاز من عشيقها أبو سريع (سعيد صالح) الذي تتآمر عليه؛ لتستأثر بالثروة. ويخرج من السجن ليقتلها. ميلودراما لا علاقة لها بقصة شاعرية عن عجوز وحيدة رهينة برحمة خادمة لئيمة. العجوز المريضة تخاف أن تفارقها الخادمة، ويزورها شيخ أعمى، يقرأ القرآن، وتدعوه إلى زيارتها باستمرار. ويبصّرها بقوتها، وأن نصف عجزها مصدره الاعتماد التام على الخادمة التي تحاول دفعها إلى الجنون، بإنكار أن أحدا زارها، لا شيخ ولا أفندي. وتتمكن السيدة من النهوض، فتصاب الخادمة بالذعر وتهرب.

الاجتراء على قصة «زيارة» تكرر مع قصة «كلمة غير مفهومة»، في مجموعة «خمارة القط الأسود».

والجسر بين قصة محفوظ وفيلم «نور العيون» كابوس يفزع المعلم دعبس قاتل حسونة الطرابيشي الذي طمع في الفتونة. حسونة زار غريمه في الحلم، وتوعده بالقتل. يجند دعبس رجاله للبحث عن ابن حسونة، وكان طفلا عندما قُتل أبوه، ونذرته أمه للثأر، ثم اختفت. يدرج الفيلم ضمن صرعة ما بعد نوبل، واللهاث على إنتاج أي شيء بضمانة اسم محفوظ، النوبلي. عرض الفيلم في أبريل ١٩٩١، وأولى لوحاته «عملاق الأدب العربي والعالمي نجيب محفوظ». يليها «في»، والعنوان «نور العيون». ولا وجود في قصة محفوظ لبنت اسمها نور العيون.

وحيد حامد اخترع نور العيون التي تعلمت الرقص في السجن متهمة بالدعارة. ويغري الفيلم بطلته فيفي عبده بالمزيد من الرقصات، حين عملت في مصبغة دعبس، وبعد طردها. ويخضع لها دعبس ويتزوجها. فيلم كغيره من أفلام فيفي عبده ونادية الجندي، وكغيره من أفلام حسين كمال، باستثناء بداياته الجيدة: «المستحيل» ١٩٦٥، و«البوسطجي» ١٩٦٨، و«شيء من الخوف» ١٩٦٩. أكاد أقول: «فقط». وأترحم على مديري التصوير: عبد العزيز فهمي وأحمد خورشيد. ويدخر فيلم فيفي عبده مفاجأة للمشاهد، بأن نور العيون ابنة حسونة التي تُوقع بدعبس في قبضة الشرطة. يرى هاشم النحاس أن الفيلم «فقدَ معناه حين تحول إلى قصة انتقام مبتذلة مليئة بالأحداث المفتعلة»(٩).

النحاس، مخرج فيلم «نجيب محفوظ ضمير عصره»، يقول إن «نور العيون» «من ناحية التنفيذ في أدنى مستويات مخرجه حسين كمال»(١٠). قصة محفوظ أعمق من هذا التسطيح والابتذال؛ فالمعلم لا يطمئن لقول رجاله إن أحدا لم يسمع عن ابن حسونة ولا أمه. ويؤرقه الحلم، ويبلغه شيخ ضرير أن ابن حسونة حي، فتبدأ رحلة البحث والتفكير في خيارات بين قتله، أو إرهابه فلا يفكر في الانتقام. أرشدهم الأعمى إلى البيت، في نهاية درب مظلم. وقرروا الانقضاض. وقال المعلم بوحشة: «وينتهي الحلم!»، فإذا به يصرخ ويسقط. نادوه في الظلام، «ولكنهم لم يروا إلا العمى». جاءوا بفانوس العربة، وأنصتوا إلى أنين المعلم: «قُتلتُ.. بينكم»(١١).

الفتوات والحرافيش.. إغراء المرايا العاكسة للضحالة

شاهدتُ الأفلام الستة المأخوذة من «الحرافيش»(١٢)، بترتيب قصص الملحمة، لا تاريخ إنتاج الأفلام: «الحرافيش» عن الحكاية الثالثة «الحب والقضبان» لحسام الدين مصطفى، عرض في ١٧ فبراير ١٩٨٦. «المطارد» عن الحكاية الرابعة «المطارد» لسمير سيف، عرض في ١٩ أغسطس ١٩٨٥. «شهد الملكة» عن الحكاية السادسة «شهد الملكة» لحسام الدين مصطفى، عرض في ١٨ يونيو ١٩٨٥. «أصدقاء الشيطان» عن الحكاية السابعة «جلال صاحب الجلالة» لأحمد ياسين، عرض في ١٦ مايو

١٩٨٨. «الجوع»، لعلي بدرخان، عرض أول سبتمبر ١٩٨٦. «التوت والنبوت» عن الحكاية العاشرة، الأخيرة، «التوت والنبوت» لنيازي مصطفى، عرض في ٢٠ يناير ١٩٨٦. وقبل فتوات «الحرافيش» أُنتجت ثلاثة أفلام عن هذه الأجواء.

الأول «فتوات بولاق» ليحيى العلمي، (يناير ١٩٨١). قبل أن يتنوْبل محفوظ، ويحظى بشرف «عالمية» لا يتصف بها كاتب غربي، من سرفانتس إلى ماركيز. الكاتب يُنسب إلى جنسيته، لا إلى سراب «عالميّ». والفيلم «قصة نجيب محفوظ» وكفى، معالجة سينمائية وسيناريو وحوار وحيد حامد. يذكر هاشم النحاس أن «فتوات بولاق» عن قصة من مجموعة «حكايات حارتنا»(١٣). ويقول الناقد السينمائي المصري سمير فريد إن الفيلم مأخوذ من «الحرافيش»(١٤). ولم أجد الأصل الأدبي للفيلم. والفيلم الثاني «الشيطان يعظ» لأشرف فهمي، (أغسطس ١٩٨١). والفيلم الثالث «وكالة البلح» (١٩٨٢) لحسام الدين مصطفى. وتحمل اللوحة الأولى «نجمة الجماهير نادية الجندي»، ويليها «في قصة الكاتب الكبير نجيب محفوظ».

أتعبني التوصل إلى المصدر الأدبي لفيلم «وكالة البلح». يذكر سمير فريد أنه «قصة سينمائية»(١٥)، بمعنى معالجة، مثل فيلم «الاختيار»(١٦). ويقول هاشم النحاس إنه «واحد من سلسلة الأفلام المعدة خصيصا للممثلة نادية الجندي في دور المرأة المثيرة التي تلعب بعواطف الرجال وتسيطر عليهم وتذلهم وهي تنتقل من واحد لآخر... المعلمة التي تصارع الرجال»(١٧). وأخيرا وضعت يدي على «أهل الهوى»، أولى قصص مجموعة «رأيت فيما يرى النائم»(١٨). قصة محفوظ من النوع الذي يستهوي مصطفى محرم إذا كتب سيناريو فيلم يخرجه حسام الدين مصطفى لنادية الجندي؛ فالمعلمة نعمة الله، «المرأة الرائعة المخيفة»(١٩)، تبدو تجميعا لقصاقيص من بقايا شخصية زهيرة، «شهد الملكة»، في «الحرافيش».

لا أعرف، على وجه الدقة، في أي شهر من عام ١٩٨٢ نشرت مجموعة «رأيت فيما يرى النائم». ولكن قصة «أهل الهوى» قرئت، وكتب لها السيناريو، (والحوار لشريف المنباوي)، وأنتج فيلم «وكالة البلح»، وعرض في ٢٠ سبتمبر ١٩٨٢. الفيلم ينتمي إلى بطلته ومخرجه الذي استعار من أفلام مصرية نهاية ميلودرامية ساذجة. وقد ادخر نسخة من هذه النهاية لفيلم «الحرافيش»، الذي سيخرجه بعد أقل من أربع سنوات. وبين فيلمي «فتوات بولاق» و«وكالة البلح» أُنتج «الشيطان يعظ» المأخوذ من قصة «الرجل الثاني»، أولى قصص مجموعة «الشيطان يعظ»(٢٠). أفضل ما في الفيلم مشهده الأول، بالتقطيع السريع اللاهث لنحو عشرين لقطة في أربع وعشرين ثانية.

من المشهد الأول، يعد مدير التصوير سعيد شيمي، والمونتير عبد العزيز فخري بعمل كبير، ولا يصمد

الفيلم (سيناريو وحوار أحمد صالح) فيقع في الارتباك الأول، بلافتة «مصر في عصر ما قبل القانون»، بخط الرقعة، على جدار يفضي إلى قبو يعبره الفتوة الديناري (الممثل فريد شوقي)، ليصرع ثلاثة من أعدائه. في فيلم «الجوع» قدم علي بدرخان حلا، قبل المشهد الأول، بلوحة «القاهرة ١٨٨٧». وفي «الشيطان يعظ» وضع أشرف فهمي لوحة «مصر في عصر ما قبل القانون» في مشهد يتحرك فيه الممثل، للإيهام بأنها كتابة على جدار، وهي ليست كذلك إلا بمقدار ما تحمله عملة كتب عليها «سكّت سنة ٦٦ قبل الميلاد».

ينتهي فريد شوقي من قتل الثلاثة، وتبدأ التترات وتنتهي بمشهد يحمل الارتباك الثاني المضاد للوحة «مصر في عصر ما قبل القانون». ففي القهوة يتربع المعلم طبّاع (الممثل توفيق الدقن) وهو كبير رجال الفتوة، ويستقبل الشاب شطا الحجري (نور الشريف)، على خلفية أغنية «ودّع هواك». يضيق طبّاع بالأغنية التي تذكّره بالأفول، فيقدم شطا دليلا على استحقاقه الانضمام إلى العصابة، ويحطم راديو القهوة، ويكفّ المطرب عن التذكير بالخواتيم. اللوحة التي يبدأ بها الفيلم تعني أن الأحداث تجري قبل ولادة كاتب الأغنية فتحي قورة عام ١٩١٩، والمطرب محمد عبد المطلب المولود عام ١٩٠٧. أما إذاعة الراديو للأغنية فيعني أننا في منتصف القرن العشرين!

بالأغنية نفسها يتكرر الالتباس في المشهد الأخير، بعد قتل الشاب «شطا». ويضجر طبّاع من سماع «عمر اللي فات ما هيرجع تاني». هل يبثها راديو آخر، أم راديو المشهد الأول بعد إصلاحه؟ ويفاجأ بتحطيم الراديو، بمبادرة من حنفي الأبيض (سعيد صالح)، عربون ولاء؛ ليلحقه بعصابة الديناري، فيتساءل مندهشا: «جرى ايه للدنيا؟ الناس كلها بقت فتوات؟ أمّال مين اللي هينضرب؟». فيلم يشبه أدوارا قدمها ممثلوه من قبل، ويسهل وضعه في سلة أفلام سطّحت رؤية فلسفية يكتنز بها نص مراوغ، يبحث ثنائية الجبر والاختيار، واضطراب العاجز عن فهم مراد كائن متعالٍ قرر اختيار خليفة له، فينزع منه الطمأنينة. إله محيِّر يأمر، ولا يُسأل.

الأدب العظيم يهزم المبهورين بسطحه، فتقنع أبصارهم بالظاهر، ويصنعون أفلاما من نثار معارك الكلام وضربات النبابيت. والبصائر تدرك أشياء أخرى، تسري في دماء النصوص. في فيلم «اللص والكلاب» (١٩٦٢) لمس كمال الشيخ روح الرواية. الفيلم والرواية ظلما أشرف فهمي، بإعادة إنتاجها في عمل باهت عنوانه «ليل وخونة»، (٨ يناير ١٩٩٠)، وبداية التترات «قصة أديب مصر العالمي نجيب محفوظ». كانت صرعة نوبل في بداياتها المعلنة والسرية. وأكاد أشعر بروح «اللص والكلاب» تحت جلد فيلم «الهروب»(٢١) لعاطف الطيب. «الهروب» تأليف مصطفى محرم، وقد أعاد بشير الديك كتابته. التفاصيل يعرفها المهتمون بالشأن السينمائي في مصر(٢٢)، ونشرت في حياة محرم الذي توفي عام ٢٠٢١.

لعل «الكرنك» و«الحب فوق هضبة الهرم» أفضل سيناريوهات مصطفى محرم، منفردا، عن أدب محفوظ. كلا الفيلمين ينافس الأصل الأدبي، ويضيف إليه بصريا ودراميا ما يعمق مأساة إرهاب البوليس في «الكرنك»، والآثار الكارثية للانفتاح الاقتصادي في «الحب فوق هضبة الهرم»، لولا موسيقى هاني مهنى الإنشائية التي أخذته إلى ساحة الميلودرما، الإغراء المخايل لعاطف الطيب أحيانا. وكان «الحب فوق هضبة الهرم»(٢٣) قبل نوبل؛ فاكتفوا بثلاث كلمات: «قصة نجيب محفوظ». وسيكون فيلم «سمارة الأمير»، عام ١٩٩٢، أكثر ملاءمة لمصطفى محرم، وبطلته الممثلة نبيلة عبيد التي جاء اسمها في اللوحة الأولى: «نجمة مصر الأولى»، وتليها لوحة «في رائعة الأديب العالمي نجيب محفوظ». ميلودراما أخرى.

أعمال محفوظ الناجية من محرم أكثر حظا. لا أظن محسن زايد كتب سيناريو «قلب الليل» (١٩٨٩) بتأثير نوبل، وإن حرص صناع الفيلم على كتابة «قصة الحائز على جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٨٨ نجيب محفوظ». لمحسن زايد حساسية إزاء النصوص المهمة، وهنا ظلمته رواية تناقش قضايا الحرية والخطيئة وصراع الغريزة والضمير، ومأساة جعفر الراوي؛ لأنه «عاجز عن الكفر بالله!»(٢٤). جده الحالم بسلالة من البشر الإلهيين أخبره أن الإنسان إما إلهي وإما دنيوي. وتمزق الحفيد بين عقله وإيمانه، وحسد «الذين يعيشون عيشة كبيرة ويموتون راضين بلا إله». وراوده حلم الرسالة: «نذرت نفسي لإنقاذ البشرية في مصر فحسب!»(٢٥). أين الفيلم من ذلك؟

أفلام حسام الدين مصطفى مثال لصيد خاطف لوقائع من الشواشي، بلا تمهل لتأمّل ما وراءها. والأعجب أن يعيد أشرف فهمي إخراج «الطريق»، عام ١٩٨٦ بعنوان «وصمة عار»؛ فنعيد مشاهدة «الطريق» لحسام الدين مصطفى (١٩٦٤). وسداسية «الحرافيش» كاشفة للخفة والجدية في استلهام نص أكبر من حكاياته. «المطارد» يشبه سمير سيف. وأفلام الحركة لا تتوقف أمام فلسفة الحياة، وعبثها بالمطارد البريء، فتحرمه لذة الانتقام من عدو ينقذه الموت، ولا تريح المطارد؛ فتجبره على هروب سيزيفي جديد، مثقلا بصخرته الأبدية. ويمكن قسمة «شهد الملكة» على نادية الجندي وحسام الدين الذي سيغفل الصراع الطبقي في فيلم «الحرافيش»، ويختمه بنسخة ساذجة من نهاية «وكالة البلح».

في مطلع التسعينات رسم الفنان محمد إبراهيم شخصيات «الحرافيش»، وعرضها على محفوظ الذي قال على الفور: «أشوف جلال!». «جلال صاحب الجلالة» عنوان الحكاية السابعة في الملحمة، من أكثر شخصيات محفوظ قلقا، ولا تشبهها شخصية أخرى ربما في الأدب العربي. ينتمي جلال إلى آلهة الإغريق. ابن زهيرة، «شهد الملكة»، المرأة التي جن أول أزواجها (عبده الفران أبو جلال)، وشنق الثاني، وقتل الثالث وهو الفتوة ليلة زفافه، ونفي المأمور الذي أراد خطبتها، ومات آخر

أزواجها حزنا. والصبي رأى مصرع أمه، وتهشيم رأسها، ثم فجعه موت خطيبته «قمر». من رأس أمه المهشم الغارق في الدم، ومن وجه قمر وهي تموت، بدأت مأساة جلال.

قرر صاحب الجلالة أن يكون الفتوة، فكان. أنكر الموت، وآمن بخلود البشر ما لم يصبهم ضعف أو خيانة، وقد قتلته خيانة. شعر «بأن كائنا خرافيا يحل في جسده. إنه يملك حواس جديدة ويرى عالما غريبا. عقله يفكر بقوانين غير مألوفة». بدأ «يتحرك بإلهام القوة والخلود». التمس الخلود من «شاور»، الشيخ الذي لم يره أحد. وفي الظلام أمره بالعزلة، سنة كاملة تنتهي بمؤاخاة الجن؛ فلا يموت، وأن يشيد مئذنة ارتفاعها عشرة طوابق، مستقلة من دون مسجد. وصارت مئذنة العفاريت عنوان غطرسة كائن نيتشوي أيقن أنه «سيكون طليعة كون جديد». ولا يهزمه إلا السم، فقتل عاريا، في حوض للدواب، غارقا في الروث.

أحمد ياسين اختتم سداسية الحرافيش بفيلم «أصدقاء الشيطان» (١٩٨٨). هذا النص التراجيدي الملهم يثير الخيال، ويسمو بالفيلم إلى الكلاسيكيات، لو اقتبس روح النص. كاتب السيناريو إبراهيم الموجي أهمل قصة المئذنة، وقد رآها الناس دليل مس أصاب الفتوة، وأخرجوا من الدفاتر القديمة أدلة وأكاذيب تتهم عائلة الناجي باللصوصية والجنون. وانشغل الفيلم بظاهر الحكاية، وجعل من جلال المتهم بخيانة عهد جده بطلا شهيدا صاحب قضية، وحلما في الضمير الجمعي، في استعارة لروح الحكاية الأخيرة «التوت والنبوت»، وكان نيازي مصطفى قد أخرجها قبل عامين، وفيها يجرؤ عاشور الناجي الحفيد على هدم مئذنة جلال، ويرفض اقتران تحقق العدل والسعادة بالزعيم الفرد، وإنما بقوة الحرافيش.

فيلم «الجوع» لعلي بدرخان (١٩٨٦) يمثل جوهر الحرافيش. لا وجود لاسم نجيب محفوظ في الشريط، والسيناريو لعلي بدرخان ومصطفى محرم وطارق الميرغني، وتصميم الديكور والملابس لصلاح مرعي، والمونتاج لعادل منير، ومدير التصوير محمود عبد السميع، والموسيقى الساحرة لجورج كازازيان. تحرر الفيلم من النص، هضمه وأذاب معالمه، وأبقى على خلاصته. بالندية تفاعل بدرخان مع الرواية، وقطف زهورها، غير متقيد بفكرة أو مشهد أو حكاية، وتخلص من اسم عائلة الناجي. ويظن القارئ والمشاهد أن الفيلم من إحدى حكايات «الحرافيش»؛ لانسياب الأحداث بنعومة وانسجام وتصاعد. وبناء الفيلم يستند إلى الحكاية التاسعة «سارق النغمة»(٢٦) التي تمجد قوة الجماهير في اندفاعها الهادر؛ فتتغلب على الطاغية.

ويستلهم من الحكاية الأخيرة «التوت والنبوت» حكمة الرواية، امتلاك القوة، وألا ينوب عنهم فرد، وألا يعلقوا الآمال بشخص فتوة عادل، ولو كان عاشور القائل: «أحب العدل أكثر مما أحب

الحرافيش وأكثر مما أكره الأعيان». وفي «الجوع» يعمل فرج الجبالي (محمود عبد العزيز) سائق عربة، وأخوه جابر (عبد العزيز مخيون) حداد ضعيف طيب يحب زبيدة (سعاد حسني) في صمت، وتخبره بأن الفتوة محروس ابن خالته خدعها، وتخلى عنها. فرج يجهل قوته، وتهان أمه؛ فيعارك الفتوة محروس ويقتله؛ فلا تبكي عليه إلا زبيدة الحامل منه. ويتستر عليها جابر بالزواج. وينصّبون فرج فتوة؛ فيخافه التجار، ويتحايلون لجعله منهم، بالزواج من الثرية ملك (يسرا).

فرج يصعد طبقيا، ويتنكر للأهالي. يستبد، ويهدد المتمردين بأن «يلبّسهم طُـرَح». وتنحسر مياه النيل، والجوع يعم، والتجار يخفون السلع، وفرج يحتكر الأقوات. وجابر يسرق الطعام من المخازن ويوزعها على الجوعى. يكتشفه فرج ويعذبه ويسجنه. وبتدبير زبيدة يحرره الحرافيش، ويثورون على فرج ويرجمونه، ويختارون جابر فتوة، فينصحهم بالاعتماد على أنفسهم، والتسلح بالنبابيت. هي نهاية «التوت والنبوت». لكن «الجوع» حلق في سماء الرواية، وجنى حكمتها. جابر المثالي يشبه شخصيتيْ «قرة» من الحكاية الخامسة «قرة عيني»، و«فتح الباب» من الحكاية التاسعة «سارق النغمة». وفرج مزيج من ثلاثة: شمس الدين بطل الحكاية الثانية، وسليمان بطل الحكاية الثالثة «الحب والقضبان»، وسماحة فتوة حكاية «سارق النغمة».

في الفيلم مشاهد وعبارات حرفية من الحكايات. تحتال الدلالة، في حكاية «شمس الدين»، وتغري الفتوة بالسيدة «قمر»، وتعدد صفاتها وهو يقود الحنطور: «مهنتي بيع الملابس والسعادة»(٢٧). وبعد مواقعة قمر همست أنها خجلى: «لا تسئ بي الظن»(٢٨). الدلالة تقول الكلام لفرج الكلام نفسه عن ملك. وفي حكاية «قرة عيني» ينتظر قرة أخاه الشقي «رمانة» العائد من الخمارة، فيضيق بموعظة الفجر، ويقبل الاستماع: «شرط ألا يكون له علاقة بالأخلاق»(٢٩). ويحدّثه قرة عن خداعه لعزيزة. الحوار نفسه بين جابر والفتوة محروس، فتضجره «موعظة آخر الليل»، ويشترط ألا تكون للكلام «دعوة بالأخلاق». كلاهما، رمانة ومحروس، يقترح على محدثه إكمال شهامته بالزواج من البنت المخدوعة!

هذه ملامح عامة عن أفلام مهمة استلهمت أعمالا لنجيب محفوظ، عبر ذائقة شخصية أطللت منها على نصوص بارزة، وترجماتها السينمائية، أيا كان مستوى الأفلام. وقد عاهدت نفسي على تجنّب إسداء النصيحة، فلتكن اقتراحا. وإن كان لي اقتراح على من يريد مشاهدة هذه الأفلام، وغيرها، ألا يبدأ بقراءة العمل الأدبي، وأن يتناساه إذا كان قد قرأه. أخشى أن تكون المشاهدة التالية للقراءة ظالمة للأفلام كصناعة محكومة بشروط الإنتاج. قلت، في بدايات المقال، إن النصوص المحفوظية أكثر عمقا من كل الأفلام التي اقتربت منها. دفعني الانحياز إلى التعميم باطمئنان، بالرغم من استثناءات نادرة ذكرت بعضا منها. وأخشى أن يكون انحيازي صائبا.

هوامش:

١ ـ غالي شكري. نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨. قال محفوظ للمؤلف: «الكاتب لا يلم بكل أبعاد عمله. هذا واجب الناقد» ص ٨٤. وقال: «هناك من النقاد من يستكشف فعلا أحد المعاني التي أقول إنها لم تخطر ببالي، ولكنها بعد أن خطرت ببال الناقد أتبناها. مثلا، تفسير محمد مندور «لأولاد حارتنا» حين قال إن الكاتب أراد أن يقتل الفكرة الوثنية أو الأسطورية عن الإله. لم يخطر هذا المعنى ببالي، ولكني تبنيته» ص ١١٨.

٢ ـ هاشم النحاس. نجيب محفوظ في السينما المصرية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٥٤.

٣ ـ جيمس بيكي (١٨٦٦ ـ ١٩٣١)، رجل دين إسكتلندي، كان مهتما بالآثار المصرية. وقد ترجم محفوظ كتابه «مصر القديمة»، عام ١٩٣٢ حين كان يدرس الفلسفة في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة). وأرسل الترجمة والأصل إلى الكاتب سلامة موسى صاحب «المجلة الجديدة»، وقد نُشرت فيها مقالات فلسفية لمحفوظ الذي قدّر أن موسى ربما ينشر فصولا من الكتاب في المجلة، ففوجئ بطبع الترجمة في كتاب يوزع مع المجلة «كهدية للمشتركين فيها مقابل توقفها شهرين في السنة عن الصدور». غالي شكري، مرجع سابق، ص ٧١.

٤ ـ فيلم «حكاية الأصل والصورة في إخراج قصة نجيب محفوظ المسماة صورة»، أخرجه مدكور ثابت عام ١٩٦٩، وعرض للمرة الأولى في سينما ميامي بالقاهرة عام ١٩٧٢. وهو مأخوذ من قصة «صورة» في «خمارة القط الأسود»، ١٩٦٩. وهي القصة نفسها التي استلهمها المخرج المصري سعيد مرزوق في فيلم «المذنبون» عام ١٩٧٦.

٥ ـ مدكور ثابت. إعادة اكتشاف فيلم مصري مختلف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥، ص ٥.

٦ ـ مدكور ثابت. مرجع سابق، ص ٤٢١.

٧ ـ نجيب محفوظ. دنيا الله، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٣، ص ٢٠.

٨ ـ نجيب محفوظ. خمارة القط الأسود، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٩.

٩ ـ هاشم النحاس. مرجع سابق، ص ٧٢.

١٠ ـ هاشم النحاس. مرجع سابق، ص ٧٢.

١١ ـ نجيب محفوظ. الأعمال الكاملة، المجلد الخامس، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٢١، ص ٥٩٢.

١٢ ـ صدرت ملحمة «الحرافيش» عن مكتبة مصر بالقاهرة، عام ١٩٧٧، وانتبه إليها السينمائيون في منتصف الثمانينات، باستثناء الحكايتين الأولى «عاشور الناجي» والثانية «شمس الدين». وفي عام ١٩٩٨ تحولت إلى مسلسل تلفزيوني كتبه محسن زايد وأخرجه وائل عبد الله، بعنوان «السيرة العاشورية»، نسبة إلى بطلها عاشور الناجي.

١٣ ـ هاشم النحاس. مرجع سابق، ص ٤٥.

١٤ ـ سمير فريد. نجيب محفوظ والسينما، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠، ص ١٢١.

١٥ ـ سمير فريد. مرجع سابق، ص ١٢٢.

١٦ ـ فيلم «الاختيار» قصة نجيب محفوظ ويوسف شاهين، سيناريو وحوار وإخراج يوسف شاهين. وفاز بجائزة التانيت الذهبي من أيام قرطاج السينمائية، عام ١٩٧٠. وعرض في مصر في العام التالي.

١٧ ـ هاشم النحاس. مرجع سابق، ص ٤٥.

١٨ ـ نجيب محفوظ. «رأيت فيما يرى النائم»، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٢.

١٩ ـ نجيب محفوظ. «رأيت فيما يرى النائم»، قصة «أهل الهوى»، ص ١١.

٢٠ ـ نجيب محفوظ. «الشيطان يعظ»، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٩.

٢١ ـ عرض فيلم «الهروب» للمرة الأولى في سينما بيجال بالقاهرة، في ١٦ أبريل ١٩٩١.

٢٢ ـ أحمد شوقي عبد الفتاح. بشير الديك جدل الواقع والحياة، منشورات المهرجان القومي السادس عشر للسينما المصرية ٢٠١٠. سجل المؤلف أن بشير الديك أعاد كتابة سيناريو «الهروب»، وطلب الحصول «على أجره كاملا، وهو ما وافق عليه عاطف الطيب والمنتج مدحت الشريف. وتمت كتابة السيناريو وفق الرؤية «البشيرية» للشخصيات والأحداث. وقد طلب عاطف الطيب أن يكتب على الشريط اسم «بشير» إلا أن الأخير رفض وحلف بالطلاق أنه لن يقبل بذلك، لأنه سمع أن مصطفى محرم زعلان من هذه المسألة»، ص ٥٦.

٢٣ ـ عرض فيلم «الحب فوق هضبة الهرم» للمرة الأولى في سينما ميامي بالقاهرة، في ٣ فبراير ١٩٨٦.

٢٤ ـ نجيب محفوظ. قلب الليل، مكتبة مصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٥، ص ١٢٣.

٢٥ ـ نجيب محفوظ. المرجع السابق، ص ١٢٣.

٢٦ ـ في طبعة مكتبة مصر تحمل هذه الحكاية عنوان «سارق النغمة». واحتفظت طبعة دار الشروق الثانية، ٢٠٠٧، بالعنوان نفسه «سارق النغمة». في المجلد السابع من الأعمال الكاملة لمحفوظ عن دار الشروق، الطبعة الثانية، ٢٠٢١، أصبح عنوان الحكاية «سارق النعمة»، بالعين لا الغين.

٢٧ ـ نجيب محفوظ. الأعمال الكاملة، المجلد السابع، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٢١، ص ٣٥٨.

٢٨ ـ نجيب محفوظ. المرجع الأسبق، ص ٣٦٦.

٢٩ ـ نجيب محفوظ. المرجع الأسبق، ص ٤٦٥.

المصادر:

أعمال نجيب محفوظ الروائية والقصصية.

المراجع:

١ ـ أحمد شوقي عبد الفتاح. بشير الديك جدل الواقع والحياة، منشورات المهرجان القومي السادس عشر للسينما المصرية ٢٠١٠.

٢ ـ جيمس بيكي. مصر القديمة، ترجمة نجيب محفوظ، دار الشروق بالقاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧.

٣ ـ سمير فريد. نجيب محفوظ والسينما، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠.

٤ ـ غالي شكري. نجيب محفوظ من الجمالية إلى نوبل، الهيئة العامة للاستعلامات، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨.

٥ ـ مدكور ثابت. إعادة اكتشاف فيلم مصري مختلف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥.

٦ ـ هاشم النحاس. نجيب محفوظ في السينما المصرية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

كتب وتقارير

مؤتمر محمود درويش: سردية الماضي والحاضر

أماني جهاد حمودة

لقد تأجل هذا المقال ووجدنا أن من المناسب نشره مع الذكرى الخامسة عشرة لوفاة الشاعر محمود درويش ..

المحرر

اقامت مؤسسة «عبد المحسن القطّان»، في مقرها رام الله الرئيسي مؤتمر «محمود درويش: سردية الماضي والحاضر»، لمدة ثلاث أيام من ٢٤-٢٠٢٢/١١/٢٦بالتعاون مع «كرسي محمود درويش الثقافي والجامعي» ومؤسسة «بوزار» من بلجيكا، ومؤسستي «موسيم» و«كمارجو» من فرنسا، و«مؤسسة محمود درويش في رام الله ، وعرضت خلال المؤتمر ١٨ ورقة بحثية على مدار خمس جلسات.

***اليوم الأول ٢٠٢٢/١١/٢٤ : الجلسة الافتتاحية: إدارة نضال رافع**

افتتح المؤتمر في اليوم الأول بكلمة للسيدة فداء توما مدير عام مؤسسة القطان، قالت فيها أن المؤتمر يركز على إرث درويش وما صدر عنه، وذكرت بما كتبه في افتتاحية العدد الأول للكرمل شتاء ١٩٨١: «هذا الانهيار الشامل ليس انهيارنا، ليس انهيار الإبداع والأمل، ولا هو انهيار فلسطين، الصراع والمعنى والمستقبل»، مموضعاً الثقافة كفعل ينحت حجراً في حجر الطريق إلى الجبل، والآن وبعد ٤٠ عاما وانهيارات متوالية نتوقف لنسأل ونتساءل عن ماهية الثقافة ودورها، وفيما يركز درويش وإرثه الذي أنتجه وأُنتج عنه وله، فإن الحديث عن أيقونة مثله يتخطى بالتأكيد شخصه، ليحلل الفعل الثقافي ودور المثقف بشتى تعريفاته خلال الأزمنة، وربما الانهيارات المتعددة»، كما أضافت أن هذه الأعمال لو لم تكن حول درويش لما استوقفتها من حركة والمضمون والتمثيل بهذه الطريقة، فهذا التقابل بين درويش بصفته وبين الفعل المعاصر المشتبك مع ما يمثله درويش من جيل النشأة ونضال المعلومات يتطلب

التأمل في هذا الإرث وهذا يعني أن الجيل الحالي مسؤول عن الوقوف أمام هذا الانهيار.

وجاءت الكلمة الثانية لفتحي البس مدير عام مؤسسة محمود درويش، الذي أكد ان روح درويش ترفرف في سمائنا فقد عاش فينا ولا نزال نعيش معه نتذكره ومعنا كل أحرار هذا العالم رسولاً للإنسانية حاملاً للقيم العظيمة مبدعاً، شعراً، ونثراً، عابراً للحدود متجاوزاً الجغرافيا الضيقة إلى فضاء العالم الواسع، صوته يرتفع ألحاناً تعبر عن هموم شعبه الفلسطيني وهموم الإنسان حيثما كان، مستلهما التاريخ وتجارب الشعوب وأساطيرها ورموزها ومراحل حضارتها موظفا كل ذلك لإدانة الاحتلال مبشراً بعودة الحق لأصحابه مهما طال الطريق وعظمت الصعاب، وعرّج البس على ظروف إنشاء مؤسسة درويش تقديراً لمكانته العالمية في حركة الشعر والنثر الفلسطينية حفاظاً على إرثه ونشره على أوسع نطاق.

فيما قدمت ليلى شهيد الرئيسة الفخرية لكرسي محمود درويش في بلجيكا، كلمتها معبرة عن فخرها بعمل هذا البرنامج الذي سيكون له الأثر الكبير على جيل الشباب الشعراء وليس الهدف تكريم درويش، بل هو مكرم في كل العالم، ولكن الهدف تشجيع هذا الجيل للاستفادة من هذه الأبحاث، وأردفت أنه لا يمكن فصل الانسان عن الشاعر في شخصية درويش السياسي والمناضل والمثقف، وتناولت شهيد درويش الإنسان والجوانب التي نجهلها في حياة الراحل، واختارت أن تبدأ بقصيدة «لاعب النرد» التي حدد فيها درويش الصفات الأساسية في حياته الخاصة، خلال سنواته الأخيرة، وتطرقت إلى صفات الراحل من خلال سردها لبعض القصص الحقيقية التي عاشتها وإياه، والتي كشفت عنه أنه شخص خجول، ماهر في الطبخ، محب للحياة، كسول، لا يهتم للعالم الاجتماعي، يفضل الوحدة، عدد أصدقائه قليل، ولا يغادر منزله قبل الظهر، وتحدثت عن كيف عرفته بسمير جبران الذي لازمه الموسيقى في شعره حتى مماته.

وجاءت المحاضرة الافتتاحية للروائي الياس خوري رئيس تحرير مجلة الدراسات الفلسطينية بدأها بدور ليلى شهيد الأساسي في الاهتمام بدرويش ووصفها بالملاك الحارس، وتساءل إن كان كتب درويش مذكراته في حضرة الغياب أم كتب وصيته، وأضاف ان درويش كان مهتماً كثيراً بالرواية لكنه لم يكتبها رغم قربه منها، في مذكراته ذاكرة للنسيان، كما وصل اثرها في كتابه الشعري النثري في حضرة الغياب، التي عكست الشاعر على الروائي لتكون امتداده الغامض في لجة الكلمات والمعاني، فالكلمات منحاة الروائي ومرآة الشاعر كي يتعرف عليها الآخرون وتعكس صورة الشاعر الذي يتجلى كمسمى يختزل الجمع ولرؤية تشير عامل المعنى.

واعتبر خوري أن درويش لم يرثى كما يليق به وبنا، وتناسينا موته وإنما حولناه إلى أيقونة وضريح، وتناسينا موته وألم المعاناة وعذابات المستشفى الذي استعاد عبرها عذابات السجن، كما نسينا الموت

لحظة حدوثه فالمهرجان استولى على طقوس التشييع ليحل محل تراب حزين كان في انتظاره، ولم يسمح لنا بالبكاء، وتناسينا آلام الجدارية ولم نتوقف عند قصيدته الأخيرة التي نشرت بعد وفاته « لا اريد لهذه القصيدة ان تنتهي»، حول رثاء درويش لنفسه تطرق فيها إلى موضوع الرثاء، وكان أكثر دهاء من أن يترك لنا هذه المهمة، فبحسب خوري، من يريد أن يرثي درويش، يستخدم كلماته، وبذلك يعتبر الشاعر العربي الثاني الذي يرثي نفسه بنفسه بعد مالك بن الريب، ويضيف أن درويش كان وحيداً كشاعر المرثية الأولى لكن وحدته كانت مكتظة بالآخرين، شاعر القبيلة الذي كأنه كان في صراع مع شاعر الرؤيا الذي صار عليه، وفي هذا الصراع صار النثر شعراً، والشعر نثراً، فالشاعر هو الحائر بين الشعر والنثر، مثلما كتب في مرثيته، لذا صار شعره كالنثر ونثره كالشعر، وافترض خوري ان درويش الشاعر المحدث الذي أعاد اكتشاف المثنى في البنية الشعرية والذي ينسب لسيد الشعراء امرىء القيس، ولكن درويش ادخل المثنى في متن قصائده، وختم خوري ان درويش كتب النثر بروحية الشعر لكن الشاعر احترم المسافتين.

الجلسة الأولى جاءت بعنوان : جدلية الضمير الأول صرح درويش الشعري بين الانا والنحن، وقد أدارها باسيليوس بواردي

وجاءت الكلمة الأولى فيها لصبحي الحديدي بعنوان الإفصاح الغنائي والمسند الملحمي، تناولت جوانب الشخصية الغنائية الملحمية في قصيدة درويش عموماً، منذ نماذجها الأبكر؛ ولكن أيضاً، بصفة أكثر تخصيصاً، إلى مراحل ومجموعات محددة شهدت انسياق درويش إلى العنصر الغنائي أكثر من الملحمي، وأخرى سجّلت انخراط قصيدته في الخيار التعبيري الثاني أكثر من الأوّل. وكان متكأ الورقة الإحاليّ الابتدائي هو تصريح درويش الشهير، سنة ١٩٨٧: «مازلتُ أطلب الغناء وأرفض الرومانسية...» ويانيس ريتسوس وصف شعره بأنه ملحمي غنائي، أو غنائية ملحمية. وكان درويش يدفع إلى خلفية التصريح أنّ هذا المزج بين الشدو الغنائي والإنشاد الملحمي بمثابة مستقرّ شخصي طلبه الشاعر وانتهجه على سبيل متنَفَس من طراز تركيبي خاصّ، طليق التركيب، ويضيف حديدي أن سيرورة دينامية من التعايش بين انبثاق الشخصية المفردة، تتجلى في حضور السيرة الشخصية والوعي السِيَري، من جهة أولى؛ وتقدُّم الأنا كقيمة إنسانية، أكثر كثافة من مجرد ضمير المتكلم، في سيرتَين متكاملتَين عن المكان والتاريخ، من جهة ثانية، والإلحاح على ذلك المزيج من الغنائية والملحمية أسفر عن فسيفساء شعرية رفيعة طبعت غالبية محطات حياة الشاعر وأطوار وعيه؛ كما صنعت حقول تقاطع بين تلك المحطات والأطوار بين محيطها الخارجي التاريخي والجغرافي والطبيعي، وهذا هو جدل الزمان والمكان بمعنى آخر. ومنطق بناء تلك الفسيفساء يبدأ، غالباً، من نقطة لقاء بين الشاعر والخارج (الحدث التاريخي، اسم العلم، المكان، العلامة الأسطورية...)؛ استدخلها الشاعر إلى نفسه وإلى سطوح وجدانه الذاتية أولاً؛ ثم استولد منها ما يشبه الرؤيا الكثيفة التي تحدس (غنائياً، ولكن فكرياً وفلسفياً أيضاً) خطوط التقاء الداخل بالخارج، وكيف

أعادت تلك الخطوط رسم هذا التفصيل أو ذاك من حياة الشاعر أو وعيه السِيَري. وفرادة درويش في هذا التمرين، وربما بصماته التي دأبت على الانفراد والتميّز، أنه ترك لذلك الحدس الملحمي حرّية استكشاف الفارق بين حالة عيش، وحالة وجود؛ بين شجن الوجود، وإواليات الدفاع عن الوجود.

وقد يصحّ التنويه هنا إلى أنّ مفهوم القصيدة الغنائية شهد تطورات هائلة في إطار منجزات النظرية النقدية خلال القرن العشرين، فنأى من حيث الجوهر عن فكرة النصّ المكتوب بقصد التلحين أو الغناء، بادئ ذي بدء؛ واقترب أكثر فأكثر من حال التجانس بين ثلاثة عناصر: الصوت ضمير الأنا الناطق في القصيدة، ومنظوماتها المجازية والفنية العالية، والموسيقى بوصفها معماراً إيقاعياً مركباً يتجاوز الوزن والعروض. في المقابل، كان الشاعر الأميركي إزرا باوند قد اقترح التعريف الأشدّ إيجازاً للملحمة، والأعرض إحاطة أيضاً ربما، حين اعتبر أنها «قصيدة تحتوي التاريخ، وفيها ينطق رجل واحد باسم أمّة بأسرها»؛ وقد يكون هذا ركناً واحداً في الموقع الملحمي الذي شغلته قصيدة درويش الملحمية، ولكنه البتة ليس الجوهر الإجمالي المركّب والمعقّد للأنساق الملحمية التي سعى إليها الشاعر عبر تاريخه الشعري عموماً، وابتداء من مجموعته «أرى ما أريد»، ١٩٩٠ بصفة خاصة.

ولم تكن مفارقة، بل صيغة ربط جدلية، أنّ ضمير الأنا المتكلم كان بمثابة المُسند الأعلى في قصيدة درويش الملحمية، على غرار ما قصده النحاة والمناطقة العرب: في أنّ الإسناد ضمّ تركيب لغوي إلى آخر على وجه الإفادة التامة، وفي أنّ المُسنَد هو الحكم المراد إسناده إلى المحكوم عليه. إسناد درويش أقرب إلى سيرورة دينامية من التعايش بين انبثاق الشخصية المفردة، كما تتجلى في حضور السيرة الشخصية والوعي السِيَري، من جهة أولى؛ وتقدُّم الأنا كقيمة إنسانية، أكثر كثافة من مجرد ضمير المتكلم، في سيرتَين متكاملتَين عن المكان والتاريخ، من جهة ثانية، وبالتالي جاء تقسيم الأنماط عند حديدي أن النمط الأول لقصيدة درويش الغنائية قصيرة نسبياً أو قصيرة أحياناً كما في مجموعة «ورد أقل»، معتبرا أن درويش كان يغالب كثيراً إذا كان النص قصيرا لأنه شاعر مدى فسيح، أما النمط الثاني فكان طغيان ضمير المتكلم، أما النمط الثالث فهو اتكاء القصيدة الغنائية عند محمود درويش على الفعل، أما النمط الرابع فكان أن درويش يجمل حكاية التركيز العالي وهذه البرهة الكثيفة مع فارق أنها هذه المرة لا تتوجه إلى قارئ مفرد أو ضمير مخاطب ولكن تتوجه إلى آخر عابر لمفهوم الضمير المتكلم، إلى آخر أقرب إلى الجموع، وبالتالي أقرب إلى الشعوب.

أما الكلمة الثانية في الجلسة الأولى تحدث فيها الكاتب والناقد حسن خضر مداخلة بعنوان: «محمود درويش: محاولة لتحليل أيقونة، وشهادة عن قرب»، اعتبر فيها أن مجرد تنظيم مؤتمر بهذا الحجم وبتعددية يدل على أن درويش لا يختزل في منظومة بعينها بل هو ملك كل الحواضر العالمية، وفكرة الأيقونة وتذكر ميراثه في الماضي والحاضر وتأطيره الأبوي، والمشكلة هنا ليس أن درويش يحتل مرتبة

الأيقونة بل ما يعتبر أيقونياً تحول إلى صناعة ونحاول العثور على فكرة الايقونة من خلال ما نحتاجه في زمننا وليس بمكان بل ما يجب أن يكون سواء درويش أو المتنبي أو عبد القادر الحسيني أو عز الدين القسام أو ياسر عرفات، أمثلة مختلفة وكثيرة، وأكد خضر أن الزمن لا يتجاوز أن هناك إنساناً كان إسمه درويش، أويتجاوز ما أنجزه، فزمانه هو زمن صعود الحركة الوطنية الفلسطينية، وزمن ركوب الفلسطينيين لقاطرة التاريخ، زمن هرب الأميركيين من فيتنام عن سطح السفارة، وزمن حركات التحرر القومي في كل مكان من العالم، واستطرد أن درويش كان أحد التجليات لهذا الزمن، ولهذا عندما نفكر في زمنه نفكر في أنفسنا، وفي السيرة الذاتية التي يمكن لكل شخص أن يتكلم عنها، كما أن هناك عددا لا يحصى من الفلسطينيين أنشأوا علاقة معه دون أن يروه، وهذا أيضاً يمثل جزءاً من السيرة الذاتية، وعرف خضر الأيقونة على أنها شخص أو شيء له تأثير أو أهمية في مجال ما، معتبراً أن هذا أفضل تعريف علماني عملي لمعنى الأيقونة، وعرج في مداخلته على أنه يوجد اعتماد كامل من الحقل الثقافي على الحقل السياسي ولذلك فإن فكرة الأيقونة إذا تخيلنا نظرياً أن اليمين الفلسطيني تمكن من الاستيلاء على الحركة الوطنية بالكامل لن يكون هناك لمحمود درويش مركزية بسردية اليمين خاصة الديني، معتبراً أن فكرة الدفاع عمن هو درويش يجب ألا تنفصل عن فكرة أنه كان جزءاً من الحركة الوطنية الفلسطينية، كما أشار للعلاقة الغير متكافئة بين العقل الثقافي والعقل السياسي وهذا الى أخطاء في قراءة المشهد وان الخيار الطروادي والحس البنيوي والرسولي يقودنا لتلك الهوية.

الكلمة الثالثة جاءت بعنوان الشعر كنتاج جماعي للشاعر زكريا محمد، عرج خلالها على طريقة كتابة الشعر سابقاً لم تكن كما هي الان بشكل شديد خاصة فترة الستينات وهناك اختلاف بين الماضي والحاضر، حيث كان للجمهور والناس وللحلقة المثقفة دور كبير في إنشائه وخلقه، وخير مثال على ذلك قصيدة «بطاقة هوية» المعروفة بإسم «سجل أنا عربي» النموذج الأساسي لتبيان دور الجمهور في صياغة الشعر، حيث درويش لم يكن مقتنعاً بها كقصيدة، وتردد قبل قراءتها على الجمهور، الذي بدوره ألح عليه أن يقوم بذلك، وتفاعل معها بشكل كبير، وبهذا يكون الجمهور قد أقنع درويش بأن قصيدته قصيدة، ما يعني أن الجمهور في تلك اللحظة كان هو من يحدد ما هو شعر وما هو ليس بشعر، وأوضح زكريا أن هذه كانت لحظة شديدة الخطورة في مسيرة درويش الشعرية وفي مسيرة الشعر الفلسطيني لأنها كبلته وحملته مهمة أن يقنع جمهوره أن له الحرية في أن يقول أعلى مما يريدون منه، وأن له الدور الحاسم في بناء الشعر وليس لجمهوره، لذلك ظلت علاقة درويش بجمهوره على مدار عقود علاقة توتر وصراع، لكن ظل متحالفاً مع الجمهور ولم يقطع معه وفي كل مرة يعارك الجمهور ويأخذ حرية أوسع، حيث كان يأخذ الجمهور إلى مناطق أعلى ويمكن ملاحظة ذلك في ديوان عاشق من فلسطين حيث كان للنخبة المثقفة دور في تحديد طابع هذا الديوان، حيث أطلق عليه درويش في بداية الأمر «غيوم على المرايا»،

الأمر الذي لم يرق لمن حوله، فإقترحوا تغيير الاسم، أي أن هذا الديوان كان صناعة جماعية ولم يكن درويش هو المتحكم الوحيد فيه.

وهنا فتحت باب المداخلات حيث قدم المحامي علي رافع توضيحاً بخصوص قصيدة سجل أنا عربي، أنها قيلت على لسان حنا إبراهيم ولم تكن في الناصرة بل أول مرة القيت في كفر ياسيف وجاء راشد حسين وقال مقولته اليوم جئت وكلنا سجناء متى اجيء وكلنا طلاقاء، وكانت قيمة سجل انا عربي في الداخل الفلسطيني أهم من وقعها في العالم العربي، لذلك لم يعد يلقيها درويش وأكد رافع أن درويش عاش في دير الأسد في بدايته قبل أن يخرج منها، وأكد زكريا محمد في رده على المداخلات أن درويش كتب في السجن « ماسياهو» وأوراقه موجودة وتنكر لبعضها، فيما تداخل الشاعر محمد دلة وأكد أن العلاقة بين الشاعر والمتلقي علاقة قديمة ومتداخلة ولم تتغير فالشعر هو حالة بين متاثرين، وأن علاقتنا مع الاسرائيليين هي حرب وايقونات ويجب ان تكتثر ايقوناتنا كي ننتصر، وجاءت مداخلة المؤرخ والكاتب حسام أبو النصر التي عبر عن توافقه مع ملاحظات خضر على مؤسسة محمود درويش ووزارة الثقافة، لكنه اعتبر أنه من المجحف إعتبار مقالات درويش سطحية والتقليل من أهميتها وأن الاهتمام يجب ان يكون فقط في شعره، بدليل أن أنيس الصايغ رئيس مركز الأبحاث م.ت.ف سابقاً كان يطلب من درويش أن يكتب افتتاحية مجلة شؤون فلسطينية رغم تهرب درويش المتكرر والدائم، إلا أنه كتب أهم المقالات في المجلة وكان حاداً جداً وما لم يقله في شعره قاله في نثره ومقالاته.

***اليوم الثاني من المؤتمر ٢٠٢٢/١١/٢٥ :**

وبدأت الجلسة الأولى بإدارة هنيدة غانم، وجائت أول كلمة للمؤرخة ديانا عباني بعنوان في العودة إلى قصائد محمود درويش المغناة وعلاقتها بالناس ما بين تبنيها ونبذها، والتي بحثت فيها دور الرمزية السياسية بالأغاني، وإنتاج هوية وطنية وجندرية، كما تجادل أن للموسيقى دوراً عاطفياً وجمالياً منفتحاً على الحياة، ومختلفاً عن البعد الذي من الممكن أن تتركه الكتب أو القصائد أوالنصوص فينا، فهي ترتبط ما بين الخاص والعام وتساهم في تشكيل الثقافة العامة الاستهلاكية، كما أنها تحشد الناس، وعالجت عباني قصائد درويش المغناة كجزء لا يتجزأ من صنع هوية للعديد من اللبنانيين خلال فترة السبعينات والثمانينات، مركزة على الثنائية التي جمعت بين محمود درويش ومارسيل خليفة، بالإضافة إلى التغييرات التي طرأت لاحقاً على الثقافة اللبنانية والتي أدت إلى نبذ هذه الأغاني عند البعض بيومنا الحاضر، وأوضحت عباني أن بيروت التي أصبحت في لحظة ما عاصمة لمنظمة التحرير الفلسطينية ومكان انطلاق لمحاربة النظام الدولي الإمبريالي، وما كانت عليه من أهمية كونها كانت حلقة وصل بين الشرق والغرب، صارت في قصيدة محمود درويش نجمة، وخيمة المناضلين الفلسطينيين، وعرجت على قصيدة تل الزعتر التي كانت نموذجاً للموسيقى الملتزمة ونجاحها في لبنان بتلك الفترة كما تحدثت عن

أول ألبوم لمارسيل خليفة عام ١٩٦٧ الذي شمل ٤ أغاني من أصل ٥ معتمدة لمحمود درويش، حيث شددت هذه الأغاني على أن النضال عابر للحدود، ويتحدى مفاهيم الخطاب اليميني والدولة اللبنانية الرسمية، واستعملت هذه الأفكار للتأكيد على عروبة لبنان، وفي الوقت نفسه للتأكيد على البعد الإنساني والأممي، وقد أثارت هذه الأغاني الجماهير من خلال أغانٍ محمسة تعزز رومانسية وصور الوطن والنضال وحتمية المستقبل وبطولة الفدائي والمهمشين، وتمحي ذاتية الفرد، عبر تعزيز الجماعة والهويات الجماعية، إضافة إلى التعاون بين الموسيقيين والشعراء آنذاك كون بيروت استقبلت العديد من المثقفين العرب الذي ساهموا في تشكيل وعي ثوري ضمن نضال التحرير الفلسطيني، معتبرة أن محمود درويش كان من أكثر الشعراء الذين اعتمد شعرهم في الأغاني السياسية اليسارية بسبب المواضيع وجمالية الشعر ومركزه كشاعر، وبينت عباني أن هذه الأغاني أسهمت في توسيع شعبية درويش ومركزيته لأنها تمكنت من إيصال شعره لشرائح مختلفة من الناس، لكن من جهة أخرى، اختزلت بعض قصائده المعاني المركبة التي كانت تحملها بشعارات صغيرة بقيت في الذاكرة الجماعية والثقافية، وركزت على النقد الذي طال هذه الأغاني لما تحمله من خطاب قومي عربي متخيل لا يرى أي انقطاع بعد أكثر من ٥ قرون على سقوط غرناطة ويحدد العروبة ويقصي الشعوب غير العربية كالأكراد والأمازيغ وغيرهم ولايذكر مساهمتهم في بناء ماضي المنطقة، وأكدت إنه بعد أكثر من ثلاثة عقود على هذه الأغاني، البلاد انسحقت تحت الديكتاتوريات والأنظمة العربية التي استخدمت هذه الأغاني والقضية الفلسطينية لتأكيد القمع وإضفاء شرعية على أنظمتها وتاريخها، ما أحدث نقداً أكثر لهذه الأغاني وتمجيدها للعسكري والزعماء دون تقديم مشروع تربوي أو مجتمعي أو ثقافي بعيداً عن الأبوية أو الفردانية أو تشكيل وعي حقيقي حول قضايا الحريات، وأكدت أن هناك رغبة في استعادة فلسطين والقضية الفلسطينية لا من خلال الثورات فقط بل من خلال نضال أممي ويواجه رأس المال العابر للحدود، واستحضرت ديانا ما قاله علاء عبد الفتاح حول قصائد درويش عن غزة الغاضبة والمنتقدة لصمت العالم على ما يحدث فيها.

أما الكلمة الثانية كانت للكاتب روجيه عوطة حول « تصويتات محمود درويش» قارب فيها تصويتات درويش، متوقفاً على ما يعنيه في التصويت والتصويت القصائدي تحديداً، وهذا بالاستناد إلى مقاربة الصلات بين الصوت والشعر، منطلقاً من فكرة أن الشعر بإعتباره خوضاً في اللغة، هو بداية خوض لكلماتها بما هي مواد صوتية. واعتبر أن خوض هذه الكلمات-المواد الصوتية يعادل الإنصات إليها بطريقة محددة، مفادها أن الإنصات إلى أي كلمة، وكمادة من ذلك القبيل، تحيل إلى غيرها. وبإحالتها في المحصلة تؤدي إلى ربطهما، الذي يؤدي إلى القصيدة، أو إلى ما يمكن تسميته، أولياً، المنشأة الشعرية، كلما صار الإنصات على اقتداره، وكلما أدى إلى ربط المواد الصوتية، يجعلها على إيقاع، وفي نهايته، وقعها حيال بعضها البعض، وبهذا، تغدو منشأتها قصيدة، وخلص عوطة إلى تحديد التصويت القصائدي بهذا

الشكل: إنصات الشاعرات والشعراء إلى الأصوات في اللغة، اللقاء بها، وإلقائها- وبطريقة أخرى، هو حضور أصوات في القصائد، التباس هذه الأصوات مع أصوات الشاعرات والشعراء في المحل ذاته، ونهاية، تلفظهم بها لكي تخرج من لغتها إلى مكان بعيد للغاية، أي إلى لغتها، أما التصويت في تجربة محمود درويش، استند عوطة إلى جداريته، لا سيما أنه في أثنائها هو يبحث عن مدينة الموتى، وهذا هو خوض للغة بما هو إنصات لسكان تلك المدينة إلى أصواتهم على سبيل التقدم صوبهم وإيجادهم، كما لو أن مدينة الموتى التي يستفهم درويش عنها تقع في اللغة ذاتها، وما عليه سوى أن يجد سبيله إليها من خلال سماع الأصوات التي تجيء منها، وتخيل أن درويش يسير ويسمع كلمات هنا وعبارات هناك على أساس كونها مواد صوتية تحيل إلى بعضها البعض وأولها على جداريته هي «وأطير» بحيث أنه يصف ذهابه إلى مدينة الموتى بالطيران، بيد أن «وأطير» سرعان ما تغدو «وأصير»، وبهذا يتحول الطيران إلى سيرورة، ومعه يتحول إلى ذهاب لتلك المدينة، فأن يمضي درويش إليها في لغته يعني أن يصير، وبذلك تكون سيرورة درويش هي سيرورة فكرة، وبهذا السياق بالذات يسمع درويش وعلى متنها: «كون ما يصنعني هو نفسه ما يصرعني» فالصانع هو صارع»، وإعتبر أن اللغة التي ذهب درويش فيها وهو يسمع داخلها هي شكل له، وبالتالي خوض درويش لهذه اللغة هو خوض لذلك اللانهائي والاثنان يصنعا ويصرعا، كلما سمع صوتاً فيهما فأحاله إلى غيره، فلا يمكن لهذا الصوت أن يصنعه بلا أن يصرعه وختم ان الشعر لا يعبد الكلمات على خلاف ذلك، وهو ينقب فيها ويرمم علاقاتها بما يجعلها حية بما تؤدي خسارتها لها ان تبعد أو تلتصق اصواتها، وهنا يبين تأرجح درويش بين كونه فيها أو ليس فيها لهذه الابيات.

أما الكلمة الثالثة والأخيرة في الجلسة الأولى كانت لايمان عون المديرة الفنية لمسرح عشتار، برفقة الموسيقي خليل البطران تلت نصاً للأديب والشاعر سليم بركات كتبه في تموز ٢٠١٢ ونشر في مجلة القدس العربي بتاريخ ٦ حزيران ٢٠٢٠، بعنوان «السر- محمود درويش وأنا وجاء في مطلعها « وجاء فيه: لبياضُ رائقٌ، راضٍ عن حظوظه؛ بل راضٍ عن مقاديره موزَّعةً بعَدْلِ الميزانِ اللونِ، متقدِّمٌ، بلا إفراطٍ، في الصورة: بياضٌ هدنةٌ، أو صُلحٌ، سوادٌ راضٍ عن نفْسِه؛ عن حكمةِ الأصلِ في عِظةِ اللون؛ مُدرَّبٌ على نَحْتِ الشكل نافراً بآلاتهِ الرماديةِ، في الصورة: سوادٌ هدنةٌ، أو صُلحٌ. لونان هما تاريخ البرهة جمعتنا معاً، محمود درويش وأنا، في ميثاقٍ سوادٍ وبياضٍ من مُبْتكَرِ العام ١٩٧٣: صورة كبيرة قليلاً لهيئتين نحيلتين، يدُ الأطول منهما على كتف الأقصر، في بيت الشاعر السوري أدونيس.

بضع مساءات التقيت الشاعر الفلسطيني في بيت الشاعر السوري. آثرتُ، أنا الخجول، ابتعاداً لا أُقحِمُ نفْسي في ما يتكلَّفُه المعجبون بشاعر ولد بملعقةٍ في فمه نِصْفٍ من ذهب الشعر قضيَّةً آسِرَةً، ونصفٍ شهرةٍ مجتاحة.

"هَيَا إلى صورة"، قال صديقٌ صحافي. عبرنا، محمود وأنا، بخطواتٍ لونٍ من الحياةِ حركةً إلى الثباتِ

المُذهل بياضاً وسواداً، في صورة لم تجمعنا سواها إلاَّ بعد أكثر من خمس وثلاثين سنة، على أرض السويد، بآلاتِ السِّحْرِ الحديثة استخرجها الجالسون من جيوبهم، في قاعةٍ جمعتْنا بالحاضريْنَ لقاءً شِعراً، ولقاءً حديثاً بَوْحَاً، عن علاقة شاعر بشاعر، أدْمَعَ عينيَّ اعترافاً منه بوجودي في وجوده شاعراً وصديقاً.

ويكمل بركات: عوَّدنا قلبُه، باكراً، استبدادَ عضوٍ من الجسد بمجتمع الجسد كاستبداد الشعر بالمعاني في توطيدهِ الحياةَ، ثانيةً، على حافَّة غَمْرِها الأصلِ نظاماً فوضى. محمود ألقى بنفسه، قَبْلاً، على الحافة في الشعر قلبيْنِ ينتقلان من اللوعة فَقْداً للأرض إلى لوعة الوجود احتفالاً، في نشيدٍ من جَمْعِ السماءِ زيتوناً على عباءة حريته. ظلَّ حتى آخر نَفَسٍ للشعر فيه بقدمٍ في مَعْقِل الحرية، وأخرى في مَعْقِلِ اللوعةِ مذ كان سليلَها كتاريخِ بلده. وقد أقمتُ معه في معقل النازع الملوِّعِ من جرحِ بلدٍ سليبٍ مرَّةً، ومرَّةً في معقِلِ تأكيد الحرية للمعاني شعراً حِذْقاً بلا مساومةٍ؛ شعراً يَجْبَهُ نازعَ الفَقْدِ المُبكي. كتبتُ "رباعياته" الأولى على ظهور أغلفة كتبي المدرسية، من غير أن يخطر لي أن هذا الشاعرَ البَذْخَ في اجتماع المصادفةِ على انتخابه قضيَّةً، سيوسِّع لي إقامةً في شعر لن أدوِّنه، بالحروف المجلوَّةِ من لباقةِ الخطِّ، على ظهر أيِّ كتابٍ، بل على ظهر الحياة، وخَثَلَتِها الملتمعة بزيت القُبَلِ أيضاً. حَمَل قصيدتَه "ليس للكرديِّ إلاَّ الريح"، التي بَرَاها بَرْياً بصداقة السنين، من أرضٍ إلى أرضٍ. في سوريا، حيث ألقاها على مسامع الحاضريْنَ، أبلغه وزيرٌ، ومستشارةٌ، أنني "على الرَّحب" إن عدتُ إلى بلدٍ خرجتُ منه منذ نهاية العام ١٩٧١ ولم أعُد إليه إلاَّ بقدمَيْ حنيني الحافيتين.

أَجمَعني بمحمود إحساسُ الفَقْدِ من غير ربطٍ؟ لا. كان الشعرُ الجذْرُ، أولاً وأخيراً، بمراتبه حَرْثاً في المفقودِ الخالد.

قصيدته عني "ليس للكردي إلاَّ الريح"، التي حملها من أرضٍ إلى أرض، ألقاها على مسمعي أيضاً، في السويد، اللقاءِ الجديد، الأخير، سنة ٢٠٠٧، بعد آخر لقاء في باريس، مطلع العقد العاشر من القرن الماضي. لم تره عيناي بعد ذا، بل تتبَّعه بصرُ قلبي إلى طُرقات الأبدية مُنعَطفاً بعد مُنعطف، ومحطة بعد محطة، يلقي أشعار المفقوديْنَ في مجاهل السواد الخالد، على مسمع البياض الخالد، كاللونيْنِ في صورتنا الأولى، ويكمل بركات لربما لم يوزِّع محمود نفْسَه، بخطفه الواقعَ إلى المطابقات في لغته، على قَلَقٍ، بقَدَمٍ في اللغويِّ البسيط وأخرى في الرغبةِ المتراكبةِ وشهواتها؛ أو بكلِّه على قَلَقٍ في الشعر "بلا وفاءٍ" لمقاصد الوجدانِ المنكوبِ بالواقعيِّ المنكوبِ ـ إرثِ الأرض سليبةً. ابتعد أحياناً عن ذائقةِ "المطلوب"، واقترب منها مراراً، كأنما يوازنُ هِبَاتِ الشكِّ في جدوى القطيعة مع "الجرح المعهود". ظلَّ على ولاءِ البسيطِ باقتدارٍ في استنطاق الأبعدِ فيهِ رحلةً بعد أخرى من رحلات المعاني، وهجرةً بعد أخرى من هجرات "الواقع"، ونزوحاً بعد نزوحٍ للحنين الأولِ عن أناقةِ الحنينِ وفِتنته.

على أية حال، ليس في اقتدار خيالي عرْضُ محمودٍ على خيالٍ نَقْدٍ فيَّ، مُذْ كان التاريخَ الآخر لي ـ تاريخ الحماسة الأولى إلى قهر الخسارة، وقهر العجز في بلداننا المهزومة. وكان تاريخَ صداقةٍ لم أجد فيها أقرب إليه مني. كان من حولي في هاتفه، بلا انقطاع. كانت عروضُه مبذولةً لي بلا انقطاع، حتى ظننتُ، أحياناً، أنني ابنُه». كان هذا الاقتباس، وحينها أثار هذا المقال جدلاً واسعاً.

وفتحت باب المناقشات بدءاً تحدث فيها الكاتب تحسين يقين وقال ان محمود دوريش اثر في الوجدان السمعي للأمة العربية وذهبت إلى هذا المنحى في كتاب لي عن قصائد درويش المغناة ولكن ليس بعمق ما تناولته ديانا عباني، وأكد أن التحليل الصوتي في القصيدة الدرويشية حين يقول انا من هناك ولي ذكريات هنا في التحليل الصوتي سواء بالمسموع أو المقروء هو من نتاجات علم اللغة الحديث ودرويش كان قارئاً للشعر العربي القديم حين أصبح أكثر إدراكاً بالقصيدة.

ثم جاءت الجلسة الثانية بعنوان درويش في المكان: معان للخواء وفصائله والتي أدارها علاء العزة، استهلت بالمداخلة الأولى للمترجم عبد عزام بعنوان» فلسطين المكان: أفق الرؤية في الكناية الشعرية عند درويش» بدأها بعرض لمفاهيم فلسفية لمفهوم المكان، وعرض كيفية أن الشاعر درويش في ثلاث قصائد مختلفة يخاطب الآخر في معناه الفردي والجمعي غائبة عن المكان، ولا يعني الغياب هنا غياباً مادياً أولياً بالضرورة بقدر كونه غياب السيادة، بمعنى فقدان القدرة على التواصل المباشر مع المكان وأشيائه وذلك بحكم انتصار الآخر الغريب، على الأنا الغائبة، وتابع: «إذن تخرج الأنا من المكان على الأرض وفي القصيدة ويدخله الآخر فاتحاً فيما يظل المكان بأشيائه وبما يحويه كما هو كل شيء يظل على حاله، وإعتبر حالة الغياب هذه عن المكان قد يظل المكان قائماً من ناحية بقائه مؤثثا بما يحويه من أشياء ولكنه يختفي حتماً من ناحية غياب الأنا عنه، وهي الأنا القاصدة بصفتها صاحبة الأشياء فيه، لا وجود للمكان بدون وجود الأنا، وغيابها القسري عن المكان يجعل المكان يختفي، بإختصار حضور الأنا في المكان هو الشرط لحضور الثلاثة، المكان، والأشياء والأنا المشينة»، وأشار ان هذا حال الآخر في القصيدة على محطة القطار نرى أن الآخر الناسخ لتاريخ المكان محجوب عن المكان وان كان حارس المكان وهنا نفهم ان المكان وفق رؤية درويش ليس عبارة عن ترجمة لتاريخ المكان إلى جغرافيا تعتبر هذا التاريخ تعاقباً نسخياً لاخرويات المكان في هذه الحالة يكون من الواجب اعتبار الأنا الغائب عن المكان منذ النكبة منسوخة أي لاغية أي الأصح أن مقولة المكان عند درويش تعبر عن رفض ودحض لمثل هذه الترجمة النسخية ويصبح السؤال هنا ما هو التاريخ الذي تترجمه جغرافيا المكان!، واعتبر في الختام أن المكان هو نهاية الترف التي يتجمع عندها التاريخ لينتهي عند هذه الأنا وبحسب كناية المكان هناك سيرورة لإسم فلسطين التي كانت بما صارت لذلك كانت تسمى فلسطين، صارت تسمى فلسطين، وفيما عدا ذلك تظل فلسطين جماداً معزولاً عن حدس الأنا الحية الذي هو شرط حضور فلسطين المكان.

أما المداخلة الثانية كانت للشاعر والروائي سنان أنطون بعنوان «أشباح درويش: العودة إلى الحاضر»، وهي ملخص من مشروع بحث كان قد بدأ العمل عليه قبل سنوات يتمحور حول تمثيلات التاريخ وتقاطعات الماضي والحاضر وجدلية العودة في خطاب درويش الشعري»، وعرج على المرة الأولى التي استوقفه شبح درويش في قصيدة لماذا تركت الحصان وحيداً حينما قال «أطل على ما أريد، أطل على شبحي قادما من بعيد»، متسائلاً كيف يمكن أن نقرأ عودة الشبح إلى صاحبه، لتنتهي القصيدة دون أن نعرف ما الذي سيحدث عند لقاء الذات بشبحها أو أن نسمع الحوار الذي قد يدور بينهم، وبمرور السنين واطلال درويش عبر الدواوين ازداد تردد الأشباح على القصائد أو لعله نفس الشبح يعاود الظهور وغالباً ما يكون ظهور الشبح في سياق محدد وكعنصر مهم في سردية ومعادلة شعرية ترسخت ملامحها وتفاصيلها التي تتكرر بتنويعات بسيطة»، وأضاف أنطون أن ظهور الشبح في القصائد التي يقاربها هذا البحث يرتبط بعودة ما أو زيارة إلى المكان، زيارة متخيلة أو واقعية أو مزيج يماهي بين الاثنين وليس الفرق مهماً جداً لأن الشعر في سحره هموم، وهذه القصائد الدرويشية بالذات تمسرح وتفصح عن رغبة الشاعر في تضبيب ومحو الحدود بين الاثنين وبين دلالاتهما لتعاد صياغتها وتشكيلها لطرح أسئلة عن معانيها وربما لإبطال الخرائط المفروضة قصرا على الأرض، وسلكاتها الرمزية والفعلية، ويصبح النص الشعري في هذه القصائد مسرحاً وأرضاً خصبة لصراع جدلي بين الاثنين أي بين المتخيل والخيال وبين الواقع والواقعية، والأمثلة كثيرة في كتابات درويش، أما المكان الذي يعود إليه مع الشبح ويلتقي به فيه ويحاوره، فهذا المكان هو دائماً فلسطين، واعتبر أن العودة كمفردة ومقولة ذات أهمية بالغة في السياق الفلسطيني وفي الصراع وبما أننا نتفق على نصوص الشاعر درويش وحيزها العام فلعل لهذه العودة المعقدة في نصوص درويش خطابياً ورمزياً وقعاً آخر تنعكس على سجال العودة والمستقبل، وأكد أن هناك مراحل في شعر درويش وتغير وتخفف من كثير من الأعباء الأولى ولكن هناك دائما عودة للأساسيات والعناصر ولكن بشكل أكثر تعقيداً وجمالياً.

وجاءت المداخلة الثالثة لهنيدة غانم الباحثة في علم الاجتماع السياسي بعنوان «في مفهوم الظل وأطياف المكان في شعر درويش» واعتبرت ان الظل في الأصل ظاهرة فيزيائية أن نحدد مساحته ومساحة تشكله، وأنه تلك المنطقة المظلمة التي تتشكل إثر اعتراض مصدر الضوء لجسم ما، فيتكون على صورة الجسم الذي حجبه بعد أن ينفض عنه تفاصيله، أي أن الظل في طوره الفيزيائي الأول قبل أن تأخذ بيده لغة الشاعر أو حكمة الفيلسوف، ولد من التعثر وتشكل في اللقاء المرتبك بين الضوء والحاجب بين النور والساتر، ولد من لقاء الاثنين وأخذ منهما صفاته، لذلك فإن الظل في صرخته الأولى تشكل كتراجيديا أصيلة ضوء مفرغ من نور أمه، وملامح أبيه، فكان كما جاء في لسان العرب لابن منظور ضوء شعاع الشمس دون شعاع، وتطرقت فيها إلى الظل مجازاً وكناية ومعنى مبعثراً متعدداً متناقضاً لكنه يشكل

معا فسيفساء سردية كاملة عن هذا الوطن، إلى جانب الخيال وتمظهراته في حواريات درويش الوجدانية، وفي الأعمال الأدبية أوضحت غانم أن الظل يحمل معان متناقضة ومختلفة، والشعر يكتب في ظل الكلام التي تصيغ من أجله من جديد حدود شاعريته وتوسعها، والظل كما كتب محمود درويش في «الظلُّ، لا ذَكَرٌ ولا أُنثى» أي أنه متساوٍ ورمادي حتى لو اشعلت فيه النار، وقالت غانم أن في شعر درويش سنجد استخداماً مختلفاً ودقيقاً بين الظل والشبح، فالأخير كائن من خلال عدم وجوده يستمد حضوره من أنه غير موجود، منطقته ممتدة دائماً وأبداً بين العالم الحقيقي وعالم الخيال، على العتبة الفاصلة بين عالم الأحياء وعالم الأموات، لا يمكننا أبداً أن نكون واثقين من وجوده لكننا لا نستطيع أبداً أن نثبت العكس، في حين أن الظل هو موجود وله وجود محسوس وغير ملموس لشيء حقيقي، لذلك فهو جزء أصيل من عالمنا ومن خبرتنا ومن حياتنا، هو خلنا الوفي الأبدي حتى لو كان خارج نطاق متناول أيدينا، واعتبرت ان الشعر يكتب في ظل الكلام الذي تصيغ من أجله من جديد حدود شاعريته وتوسعها في حين ان الولد يلعب مع ظله ويجعله رفيقاً لألعابه، ينفعل، يتأثر، ويغير أبعاده، ويركض وراء ظله ويحاول الإمساك به إلا أنه لا ينجح طبعاً فالظل مراوغ متهرب، ينجح دائماً في التملص، وختمت بأن الظل لا يروض ولا يخون خفيف مأخوذ بالحنين الفلسطيني الذي ظل في المكان (البروة) يتأهب للانبلاج مع زهر النرجس والصفصاف، قاصدة في كل ذلك درويش ذاته.

أما المداخلة الأخيرة جاءت لرائف زريق أستاذ فلسفة القانون بعنوان « باطل الأباطيل باطل: عبث المعنى ومعنى العبث»، قال فيها إن ما لفت انتباهه هو توظيف محمود درويش لعبارة باطل الأباطيل باطل كل شيء باطل، والتي استعارها من سفر الجامعة وأعاد صياغتها شعرياً ونثرياً في أكثر من مناسبة ليزج بها معانٍ جديدة كنوع من لعبة خطرة مع العدم، وأوضح زريق أن المكان الأول الذي وردت فيه العبارة هو نصه ذاكرة للنسيان حيث يرسم فيه محمود ويستعيد حصار بيروت والموت العبثي والمجاني أمام صمت العالم العربي بأسره من المحيط إلى الخليج، ورغم أن النص مشبع برائحة الموت، إلى أن اللحظة التي تحضر فيه العبارة هي سياق حديثه عن ذلك الشاب الباكستاني الفقير الذي ترك بلده لاهور باحثاً عن لقمة عيشه في بيروت ليصطاده الموت في عاصمة لا شأن له فيها، وقد كتب درويش، أنه استدرجه الرغيف من لاهور، جعله يلهث آلاف الكليومترات كي يلامس المعجز الإنساني، رغيف الخبز الذي قد يقتله في حرب لا شأن له فيها، فلا يعود حيا أو ميتا إلى أي مكان، لا يعود إلى أي قبر باطل الأباطيل باطل الكل باطل وأفكر في الطرائق المعدة لنهائية جسد كافح حتى المضجع ليحترق أو ليختنق باطل الأباطيل باطل والكل باطل، أمام هذا الموت العبثي يصبح كل شيء باطلاً، شاب يبحث عن الحياة في شكل رغيف خبز ليتحول الرغيف إلى قذيفة تنفجر في وجهه، وبدل أن يجسد الرغيف الحياة أصبح الرغيف تجسيداً للموت، وبحسب زريق فإن التوظيف المكثف والمعاد لمقولة باطل الأباطيل باطل، كل

شيء باطل، تتجلى بشكلها الأوضح والمركب في جدارية هناك بعد أن ذهب محمود في زيارته للموت وعاد منه إليها، ليكتب عن تلك المنازلة وعن هذا اللقاء بينهما وجها لوجه، هذا النص كما في نصوص أخرى يأخذ درويش مسافة من نموذج النبي والنبوة من كل الذين يعتقدون بأن لديهم القدرة الفائقة على تسيير الألم وتحقيق المعجزات والتحكم في المستقبل، لذلك نراه يكتب في الجدارية لا غيمة في يدي ولا أحد عشر كوكباً على معبدي وذلك في إشارة واحدة بأنه ليس النبي إيليا الذي يستطيع استحضار المطر على شكل غيمة بحجم كف اليد، وهو ليس بيوسف الذي يسجد له ١١ كوكباً، ويمضي ليؤكد ذلك تكرارا عندما يقول مثلما سار المسيح على البحرية سرت في رؤياي لكني نزلت عن الصليب لأني أخشى العلو ولا أبشر بالقيامة»، وعلق زريق أن درويش لا يبشر بالقيامة ولا بثقته في المستقبل ولا يعد بالخلاص لأنه أدرك بتجربته ومسيرته أن التاريخ لا يسير بنا إلى أي مكان ولا غاية له وأن العالم والأحداث تفتقر إلى أي معنى أو مغزى، لقد كان فهمه للتاريخ من باب السخرية كما كتب في الجدارية، التاريخ يسخر من ضحاياه، ومن أبطاله، يلقي عليهم نظرة ويمر، أو كما كتب في موضع آخر الزمن يعلمنا الحكمة بينما يعلمنا التاريخ السخرية، لذلك ليس صدفة أن يكتب في عيد ميلاد صديقة الشاعر سعدي يوسف كنا دائماً نؤمن بأن الغد أجمل لكن التاريخ يفاجئنا دائما بخيبة أمل جديدة تغري الشاعر بمديح الأمس، مقابل عزيمة الأنبياء الذين ينظرون إلى المستقبل بثقة، ويصنعون التاريخ تاركين أثرهم في العالم، يختار درويش إذن أن يتماثل مع حكمة الجامعة، حكمة الملك سليمان في آخر عهده عندما تقدم به العمر لينظر إلى الوراء ويكتشف أن كل شيء زائل وباطل لذلك يسأل درويش الشاعر: «من أنا أنشيد الأناشيد أم حكمة الجامعة، وكلانا أنا وأنا شاعر وملك»، ويجيب زريق على تساؤل درويش، نحن نعلم أن حكمة الجامعة وهو سفر من أسفار التوراة قد كتبه الملك سليمان، كما نشيد الأنشاد المفعم بحيوية الفتوة فهو ينسب أيضا للملك سليمان لكن في شبابه، هكذا يرى درويش نفسه مزيجاً من الاثنتين من حيوية الفتوة وحكمة السنين لكنه لا يتماهى بأي شكل من الأشكال مع نموذج الأنبياء الذين يغيرون مجرى الحياة ويقدرون على صياغة المستقبل والذين يعتبرون أن التاريخ والزمن يسيران باتجاه مستقيم نحو التقدم والخلاص.

***اليوم الثالث ٢٠٢٢/١١/٢٦ :**

افتتحت الجلسة الأولى بعنوان «محمود درويش أو النبع الذي لا ينضب»، وجاءت المداخلة الأولى للباحث العراقي كاظم جهاد بعنوان: «درويش المتعدّد: وثبة عالميّة في قراءة محمود درويش»، أكد فيها أن درويش ظل جامعاً حتى مماته، وان هناك تجربتان أساسيتان أولها حين طلبت منه مجلة فرنسية بجمع الآثار الشعرية لمحمود درويش، وخلال عملية الجمع نشأت مادة لكتاب آخر عنه نشرت في سلسة سندباد، بإدارة المؤرخ فاروق مردم بك، وسمي الكتاب خرائطية المنفى قراءات في اشعار محمود

درويش، وأشار إلى أنه صدر كتاب لثلاث باحثات، وهو عن الأدب والشعر المقارن، والذي تناول أعمال الشاعر الاسباني لوركا ومحمود درويش، وشاعر فرنسي، وتحدث عن أن قصيدة درويش شكلت نافذة لنفسه وإلى العالم، وتناول جهاد تأملات شخصية لعالم محمود درويش الشعري أو الأدبي، ثم انعطف على التجربة الجماعية في قراءة درويش، وعرج على بعض التعريفات لمختلف الدراسات والمقالات التي وردت في كتابه وكتاب آخر»، وحول التأملات قال جهاد إنها محاولة لفهرسة تجربة الشاعر أو لتقديم جرد لمسيرته الأدبية، كما أنها محاولة للرد على سؤال كيف نرتب زمانيا مراحل التجربة الشعرية لمحمود درويش في مختلف أطوارها وتحولاتها، وأكد أنه لم يكن من المبالغة التأكيد على أن درويش في عمله الهائل والمتنوع كما في حياته نفسه يجسد ويلخص التاريخ الفلسطيني الحديث بأكمله، فما من فصل من فصول المنفى الطويل والكفاح الطويل للفلسطينيين لم يمر هو به في حياته وكتاباته، عرض درويش في شعره ونثره مأساة شعبه وآثام الاحتلال الإسرائيلي ومآزق السياسات العربية وعرف كيف يبني في الوقت نفسه عملاً شعرياً لم تعد أهميته تخفى على أحد.

وجاءت المداخلة الثانية للكاتب والمترجم إلياس صنبر بعنوان «القصيدة تغنّي وتغنّي، ولا حيلة لي في ذلك»، وقد قرأ مقاله باللغة الفرنسية كان قد كتبها سابقاً، جاء فيها أنه كانت هناك مجموعة من الأصدقاء لدرويش في دائرته المقربة، وطليعة المعجبين بجرس شعره المفعم بموسيقى تلذ لهم، ولا تنفصل حسب ذوقهم عن صوت الشاعر، الذي ينقل طربه إلينا فتخطفهم النشوة خلال أمسياته الشعرية وكانوا يعرفون كم تحمل من حداثة في أعمق اعماقها جوهر ما يعتبروه في أسس شعرهم الكلاسيكي، وقال أن درويش كان يتخذ من أصدقائه شهوداً لكي يتحقق من صحة بعض الانتقادات فيقول رأياً يبدو في الظاهر عاماً حول عمله الخاص ثم يترقب ردود أفعالنا. ومن هنا ملاحظته المتكررة من أجل سبر آرائنا حول موسيقاه، مبيناً أنهم كانوا يكتفون بالإجابة بأننا نرى تلك الانتقادات سخيفة، وتابع: «كنا نرد على هذه الانتقادات بالازدراء، مقتنعين بأن غياب الموهبة المقترن بغيرة لا حدود لها، هو ما يفسر ما تعرض له درويش في حياته من مشاكسات عدوانية ما زالت تتجلى حتى اليوم كلما حلت ذكرى وفاته، واعتبر صنبر أن الحياة وهبته صداقة عظيمة كهدية، ثم شرف ترجمة قصائد درويش فكان مدركاً على الدوام أن كل اللغة تغنى بطريقتها الخاصة فريسة للقلق، على أن ينقل ثنايا القصيدة موسيقى اللغة العربية في لغة أخرى هي الفرنسية، كان هذا التحدي يطرح نفسه مع كل واحدة من ترجمات صنبر، في شكل سؤال لا جواب له حرفياً، فكيف تغنى لغة ما في لغة أخرى، ويقول صنبر أن درويش كان مهموماً بأن لا يشق على الجمهور خشية أن يشعر بالضيق وكان من عادته أن يقلص دائماً قائمة القصائد التي كان مفترضاً أن يقرأها.

واستطرد صنبر حول مفهوم الشديد الالتصاق بالموسيقى العربية فاللغة العربية تفرّق بدقة بين المغني

والمطرب وقد قاده ذلك إلى ثلاث محطات متتالية كشفت كل واحدة منها سابقتها في ترتيب متسلسل على نحو ما كان يتكشف تدريجياً مع تقدم تساؤلات صوت الشاعر وتنفسه وموسيقاه. وقال أن حب هذا الشكل من التعبير هو أحد التفسيرات الممكنة وإن حاول البعض اخبارنا أن الشعر بخلاف ما كان عليه قديماً، وعشق فلسطين أمر لا يمكن انكاره ايضاً والعلاقة بين شاعرنا درويش ومن كان يسميهم قراءه ليست موضع شك وهي اذ تكشف ميولاً عاشقة فإنها تندرج في سجل المشاعر التي تنطلق من الاعجاب بالعمل ولا تلبث أن تمتد سريعاً لتشمل المؤلف نفسه. وتحدث عن كتابه القاموس العاشق لفلسطين.

أما المداخلة الثالثة كانت للكاتبة الفرنسية تيفين لو غال، قراءة نقدية وسردية وشعرية لعالم محمود درويش في آن معا باللغة الفرنسية، وفندت ماجاء في مجموعة سرير الغريبة لدرويش إذ قالت إن الأنا في هذه العبارة تقابل الأنت، أي أن الضميران متلاصقان بطريقة يحتضن بها أحدهما الآخر في الجملة، رغم أن القصيدة ليست قصيدة حب، إلا أن الحب هو دين الشعراء، وأكملت أن اختيارها لإفتتاح الكلمة بهذه القصيدة على وجه الخصوص بسبب تواريها النسبي، فهي لا تظهر في أي مختارات وهي ليست قطعة رئيسية في منجز درويش ولا تعد نصاً لا يمكن تجاهله في شعره بل أن كل شيء يساهم في إهمالها، من موقعها، إلا انها تسبق القصيدة قبل الأخيرة في المختارات ومجازاتها النسبية بالمقارنة مع القصائد السابقة، وفي الوقت نفسه فإن هذا التواضع هو أحد مفاتيح تصور درويش الشعري، فهو الذي كان يلقي قصائده أمام جموع المعجبين المتحمسين المتزايدة أعدادهم بإطراد منشداً بصوت جهير قوي الجرس، ولكن من دون أي تنميق وبلا إفتعال أو تباه، وان شعر درويش بلا تعال، انه ارضي راسخ في المكان ونعثر على هذا التواضع أيضاً في بساطة الصياغة حيث نجد سلسلة من الجمل القصيرة بلا تصنع أسلوب وببساطة المفردات، واعتبرت (غال) أن الخطة التعليمية التي تصورتها لا تصمد أمام هذا التشابك المعقد الأبعاد، المتعدد في القصيدة (مجموعة سرير الغريبة)، وأنه بالتأكيد هنالك الأرض والتجاوز الروحي والكتابة ولكل منها بطريقة ما حياته المستقلة في النص ومفرداته الخاصة وهويته المعجمية والرمزية لكن هذا التقسيم الثنائي هذا التصنيف اختزالي بالضرورة ففي نهاية المطاف هي أكثر من ذلك.

وجائت الجلسة الأخيرة بمداخلة للكاتبة الجزائرية نجمة حاج بن شلبي باللغة الإنجليزية بعنوان «كرسي محمود درويش الثقافيّ والجامعيّ في بروكسيل، نشأته وأنشطته»، وتحدثت عن إنشاء هذا الكرسي عام ٢٠١٦، بهدف تخليد الأثر الشعري والفكري لأكبر شعراء القرن العشرين، في خطوة تؤكد على العلاقات الوطيدة مع فلسطين، بمبادرة من الوزير البلجيكي رودي ديموت، رئيس فيدرالية والونيا وبروكسل، المعروف بمناصرته للقضية الفلسطينية، وان الكرسي يحظى بمساهمة دائمة ومساعدة عمليّة من جامعة

بروكسل الحرّة وجامعة لوفان الكاثوليكية وأكاديمية الفنون الجميلة «بوزار» في بروكسل، وتحدثت عن العروض المسرحية التي يقيمها الكرسي، والوفود التي تأتي قاطبة وشكلوا عائلة واحدة وعن أهم النشاطات التي تعلقت بدرويش منها استضافة شخصيات وراوئيين منهم مازن معروف، وأيضا عرضت لوحات فنية وصور منها لجاكلين صعب، ومي مصري، وعروض لغة الجسد منها لعلي شحرور، وأمير نزار زعبي، وبعض المحاضرات عن درويش استضافت لينا عطالله، وايمان مرسيل، وأيضا عرضت جزءاً من برنامج حلقات الذي يركز على استكشاف الروابط الثقافية بين أوروبا والعالم العربي من خلال كرسي درويش.

أما الجلسة الثانية والأخيرة في المؤتمر أدارها فاروق مردم بك، كانت بعنوان محمود درويش في ضوء الأدب المقارن»، بدأت بكلمة الأستاذة في الأدب المقارن كارول بوادان مداخلة باللغة الفرنسية بعنوان «التأثير عن بُعد: في بعض نواحي الترسل في أعمال محمود درويش» واعتبرت فيها أن درويش اختبر تجربة المنفى على غرار الشاعر اللاتيني اوفيديوس قبله بعصور كثيرة، وطرح تأملات مشابهة في قدرة الشعر على إقامة تواصل بين الشاعر والقارىء، عندما امتنعت عليه وسائل التواصل التقليدية، تقدم الرسالة الشعرية أو القصيدة التي تحاكي الرسالة شكلاً شديد الفعالية يسمح للشاعرين بالتعبير عن غايتهما وأعمالهما في آن واحد وتحديد وظائف الشعر على وجه خاص، واعتبرت من الضرورة الالتفات الى الحالة الخاصة لدرويش وإلى ما يميز كتابته المتعلقة بما ندعوه في صيغة قديمة بعض الشيء فن الترسل واستعرضت بعض نصوصه العائدة إلى مراحل مختلفة من مسيرته الشعرية تبرز من خلالها دلالات مختلفة لشكل الرسالة أو المراس الترسلي في أعماله، وتطرقت إلى فن الترسل عند درويش، وإلى دلالات رسالة المنفى الشعرية عند درويش بالمقارنة مع الشاعر اللاتيني أوفيديوس الذي عاش هو الآخر تجربة المنفى، وبينت أن درويش راغب في تحرير الشعر من الإحالة التاريخية السياسية وتحديداً في سياق مشروعه الأشمل لتنصيب نفسه تدريجياً شاعر المهزومين وشكوى تصدع الانسان يبتعد عن الانموذج السائد للرسالة اذ تصبح استعارة بعيدة ووهمية للنضال الذي يمكن أن تنجزه القصيدة. وتحدثت عن الذكرى الأولى لرحيل توفيق زياد حيث دعي درويش لها لكنه منع فألقى قصيدته من عمان عبر الهاتف، إلا أن اقتران الشاعر توفيق زياد بالناصرة أوحى لدرويش برؤية شعرية مرتبطة بشخص المسيح، وتمثل الرسالة الموجهة للغائب إشكالية صنعتها معجزة لتؤازرها صورة الكلمات التي تحملها الريح ثم جموع الشعب. واكملت أن أحد أعمال درويش تلازم تطورات الجمالية إذ تخلى في التسعينات عن تمجيد المقاتلين والمقاومة لصالح تقبل الهزيمة مسنداً الكلام في قصائده لشخوص مهزومين، منذ ذلك الحين بدأ درويش يصب اهتمامه على التوثيق التاريخي للحقبات، واجه فيها العرب أوضاعاً مأزومة أو هيمنة شعوب أخرى كما حصل في سقوط غرناطة وخلال الغزوات المغولية أو الصراع مع الدولة البيزنطية.

أما الكلمة الثانية جاءت لأستاذة الأدب المقارن إيميلي بيشرو باللغة الفرنسية بعنوان «الأندلس بوصفها استعارة: توظيف الأنموذج الأندلسيّ عند لوركا ودرويش»، وتحدثت فيه عن ولادة الأنموذج الاندلسي عند ابن خلدون، منذ كتابه التعريف بأصوله الاندلسية، فحادثة النفي لا تزال قريبة في ذاكرته، وقد شدد روبير جام على أننا نجد عند غونغورا توظيفاً خاصاً لعناصر أسطورية في سياق شعري عربي إسلامي، فيتحدث عن دمج فعلي بين الاحالات العربية والإسلامية وبين الاحالات الاغريقية اللاتينية عند الشاعر القرطبي، ولقد وجد لوركا في الغجر نظيراً معاصراً مثالياً لتلك الجماعة ولم يعد الأمر متعلقاً بالإسلام لكن في التصور التاريخي كما وجده لوركا عند رفيقه الاندلسي مانويل ده فايا حل الغجر محل الموريسكيين، وهكذا فإن الغجر وصلوا لحظة مغادرة المسلمين الاندلس، غير أن هذا التناص لا يهمنا بحد ذاته فليست اسبانيا مرتبطة عند درويش بلوركا فقط، أو حتى بالاندلس بل أن الأخير في نظر الشاعر الفلسطيني تمثل درساً تاريخياً وثيق الصلة بالتجربة الفلسطينية وهي صلة ليس وحده من طورها، والواقع أن درويش بما يتجاوز الإشارة إلى لوركا يولي اهتمامه لتلك الشخصية التي يحملها قيمة مثالية تجعل من الممكن ربطها بالتجربة الفلسطينية فشخصية المورو الغرناطي مثلها مثل الغجري، ومن وجهة نظر درويش أن قصيدة الرومانثه تقدم للقارىء العربي مثالاً هاماً على الحالة الهجينة الواضحة، وان غرناطة رمز شعري لهذا الصراع ضد النسيان جزء من التاريخ الجمعي، حيث نجد أن دوريش يربط بين التاريخين الفلسطيني والاندلسي مذكراً بوجه الشبه هذا بين الواقعتين ومن هذا المنطلق فإننا نفهم أهمية الانموذج الاندلسي لدرويش، واعتبرت أن الأهمية المرجعية الأندلسية في قصائد لوركا ودرويش إذ كان الشاعران لا يتناولان هذا الأنموذج الاندلسي بالطريقة ذاتها فإنهما يبينان قدرته على استدعاء الذاكرة.

فيما قدمت الأستاذة في الأدب المقارن أيف دو دامبيير نواريه المداخلة الثالثة باللغة الفرنسية بعنوان «فادْخلوا، أيُّها الفاتِحونَ، مَنازِلَنا»: القدرة السّجاليّة لقصيدة محمود درويش». وتحدثت عن النضال في سبيل المكان بالمعنى الاشتقاقي تشير المفردة الفرنسية (سجال) إلى ما يتعلق بهذا المعنى هو صلب أعمال درويش بوصفه شاعر المقاومة الفلسطينية، إذا كان رسوخ القضية الفلسطينية أمراً بديهياً فإن استمراريتها تجعل أنماط التعبير عن هذا النزاع متحولة بصورة جلية في الكتابة الشعرية في حين أن مقاربة أعمال درويش بحسب المراحل أو وفق مسار منافيه وتطور النزاع العربي الإسرائيلي تكشف غالباً عن ضوابط لكنها تستطيع مع ذلك أن تلقي الضوء على أطوار مختلفة من الشحنة الاحتجاجية لشعره، واعتبرت ان الانتقال بالقضية الفلسطينية والمحلية باتجاه حلقات تاريخية واسطورية يصل ذروته مع ديوان أحد عشر كوكباً الذي يميز حركة الارتحال هذه وتوسع البعد السياسي للنص ما يحدث إنعطافا في رهانه السجالي المباشر فيبدو معه وللمفارقة منزاحاً أي معادلاً وغير متخل عن توتره في آن معاً،

وأضافت أنه في مختلف الحالات يتركز التشهير على المزاوجات المعتادة والمقابلات المفترضة بين شاعر المقاومة الفلسطينية الذي كأنه درويش وبين أيديولوجيات أخرى، وهذا الانزياح لم يكن درويش غافلاً عنه وكان يذكر مازحاً التنافس بين الفلسطينيين والإسرائيليين على الاستئثار بصفة الضحية، كما تحدثت عن الكتابة في أساطير الآخر، وأن مسالة المكان المحتل هي أخيراً في قلب أحد السجالات الأكثر شهرة في إسرائيل وفي الشتات الفلسطيني وقد تطرق اليها كتاب فلسطين بلدي قضية القصيدة ١٩٨٨ وهذا تفسير للحدث ولقصيدة عابرون في كلام عابر، التي كانت نشرت للتو آنذاك من الوضوح بحيث يوفر علينا العودة اليه إلا إذا أردنا أن ننظر إليه كتتويج لبعض الصور التي ترسم في هذه القصيدة وفي قصائد أخرى. العلاقة بالمكان والمساحة المحتلة.

أما المداخلة الأخيرة في الجلسة وفي المؤتمر كانت للمؤرخ والمترجم فاروق مردم بك مداخلة بعنوان: «البحر في شعر محمود درويش»، قال فيها إن كلمة بحر الأكثر حضوراً في شعره من أي كلمة أخرى، والبحر في شعر درويش يرمز إلى الرحيل عن الوطن حيث أهله وشعبه إلى المجهول البعيد، فالبحر لم يكن يعني عند درويش إلا المنفى، وشيئاً فشيئاً أصبح يتخذ دلالات أسطورية وتاريخية وسياسية مختلفة، إلى أن استقر للتعبير عن قدر فلسطيني في نزوحهم القسري بعد إجلاء المقاتلين من لبنان عام ١٩٨٢، وترددت أكثر من ٦٠ مرة في قصيدته التسجيلية مديح الظل العالي، وفي قصائد أخرى»، تحدث عن هوية محمود الشعرية في مضامين الواقع العربي والفلسطيني الخصب، وإعتبر أن الثقافة الشعبية في شرق المتوسط تنفر من البحر الذي منه يأتي الغزاة والقراصنة، وهو نقيض الصحراء والجبل، إلا أن أول ما يرمز إليه في قصائد محمود الأولى هو الرحيل عن الوطن وعن أهله وشعبه إلى المجهول البعيد ويتذكر في قصيدة عاشق من فلسطين وصية ابيه، وقد ارتبط المنفى بأسئلة وجودية بعد عودته إلى فلسطين، منها «ماذا سنفعل بدون منفى؟!»، وتحدث فاروق عن استحضار درويش للتاريخ، وأساطير اليونان وبابل والفينيقيين وغيرهم، وبعض الاستحضار جعله يألف البحر في شعره.

أوراق المؤسسة

الذكرى السنوية التاسعة عشرة
لاستشهاد الرئيس المؤسس

اجتمعت اللجنة التحضيرية لفعالية إحياء الذكرى التاسعة عشرة لاستشهاد الرئيس المؤسس ياسر عرفات برئاسة د. أحمد صبح مدير عام المؤسسة، أولى اجتماعاتها بتاريخ ٢٠٢٣/٦/٢٦، في مقر المؤسسة، لتبدأ بوضع التصور الأول لإحياء الذكرى السنوية (سياسياً وثقافياً) وما يلزم ذلك من مُتطلبات.

أخذت المؤسسة على عاتقها إحياء الذكرى دون أخذ الدور من أحد، وعملت على انتاج الملصق الرسمي، واختيار الجملة السياسية الذي يحملها الملصق «استشهدوا من أجل أن يحيا الوطن»، واعتماد ذلك بتاريخ ٢٠٢٣/٧/١٥، ليوافق عليها مجلس الإدارة السادس والخمسين الذي عُقد في العاصمة الأردنية عمان بتاريخ ٢٠٢٣/١٠/٢.

وبسبب الأوضاع المتصاعدة التي بدأت بتاريخ ٢٠٢٣/١٠/٧، كان هنالك اجتماع دائم في المؤسسة لترتيب فعالية إحياء الذكرى، ولأن ياسر عرفات أبو الوطنية جمعاء فقد اتخذت إدارة المؤسسة بتاريخ ٢٠٢٣/١١/٢ قراراً بإلغاء كافة المظاهر لفعالية الإحياء التي كُنا نُحيها في المؤسسة كما في السنوات السابقة، لتقتصر على وقفة وترحم على روحه الطاهرة وأرواح شهداء فلسطين كافة، ووضع أكاليل الزهور على ضريحه.

وفي ١١/١١، أحيت المؤسسة الذكرى السنوية التاسعة عشرة لاستشهاد القائد المؤسس ياسر عرفات، في ساحة ضريحه في مدينة رام الله، بحضور رئيس الوزراء د. محمد اشتية، وعدد من أعضاء اللجنتين التنفيذية لمنظمة التحرير والمركزية لحركة «فتح»، وأعضاء من المجلس الثوري للحركة، وعدد من الوزراء، وإدارة المؤسسة، وبحضور حشد جماهيري غفير.

وقد تضمنت الفعالية كلمتين سريعتين على المستوى السياسي ومؤسسة ياسر عرفات، كلمة الرئيس بالنيابة عنه د. محمد اشتية رئيس الوزراء بدأها بالترحم على شهداء غزة والضفة والشتات وروح ياسر عرفات.

وقال اشتية: «غزة تتعرض لمجزرة وإبادة جماعية، ومن لم يستشهد برصاص الاحتلال يقضي جريحاً مريضاً، وكل جرائم الحروب في العالم لم يقتل فيها طبيب ولا مريض ولا صحفي ولا طفل.

وطالب بوقف الجرائم والإبادة الجماعية الإسرائيلية بحق شعبنا، متابعاً، أن كل من يقول بأن اسرائيل في حالة دفاع عن النفس فهو يقف بجانبها ولا يعرف الحق ولا القانون الدولي، فكل أفعالها وممارستها هو خرق للقانون والعدل.

وأضاف إن هذا الوقت بالدم يمر على أهلنا في غزة، لذلك أدعو العالم أجمع لإعلاء الصوت ووقف شلال الدم، مؤكداً بأن من يتحدث عن اليوم الثاني بعد العدوان لا يعنينا، بل يهمنا اليوم الذي تتوقف به آلة الموت الإسرائيلية والعدوان الهمجي.

وأشار اشتية إلى رفض الإغاثة التي يُقدمها العالم التي يأتي الاحتلال بعدها بالقتل والتشريد، وإنما نُريد وقف العدوان الدموي، وبأسرع وقت.

ووجه رئيس الوزراء رسالة للقمة العربية والإسلامية المجتمعة في السعودية بأننا لا نريد أن تكتفي القمة بالبيانات وإنما أفعال على أرض الواقع.

ومن جهته قال د. أحمد صبح مدير عام مؤسسة ياسر عرفات، في كلمته، أمام الضريح: «نلتقي اليوم لنترحم على روح أبو عمار الطاهرة، وروح رفاقه، ونترحم أيضا على آلاف الشهداء الذين ارتقوا في قطاع غزة والضفة.

وأضاف صبح: «نبرق اليوم وفي ذكرى استشهاد أبو عمار ثلاث رسائل سريعة، الأولى متمثلة بصموده وتمسكه بالثوابت طيلة سيرته ومسيرته الوطنية مع رفاق دربه الأوائل، والثانية هي الوحدة الوطنية، فهي شرط الانتصار، والذي نحن أحوج ما نكون إليها الآن، لنؤكد للعالم أجمع ان شعبنا موحد في مواجهة الاحتلال، وموحد في مواجهة هذا العدوان الدموي المستمر، الذي لا يستهدف أحدا بعينه، بل مجمل الشعب والقضية والمشروع الوطني.

وقال «إن الرسالة الثالثة هي لأشقائنا ولأمتينا العربية والإسلامية وللقمة، وكلنا أمل أن يسمع صوت الشارع العربي وضمير العرب والعالم في مدن وعواصم العالم نصرة لأهلنا في غزة وفلسطين، ونحن نستطيع بصمودنا أن نكسر هذا العدوان".

ووضع رئيس الوزراء، وأعضاء من اللجنتين التنفيذية لمنظمة التحرير والمركزية لحركة «فتح» والقيادة الفلسطينية، وإدارة المؤسسة، أكاليل من الزهور على ضريح الشهيد ياسر عرفات، وقرأوا الفاتحة على روحه الطاهرة، وأرواح شهداء فلسطين..

ويذكر أن المؤسسة قد أعلنت عن تأجيل فعاليات إحياء الذكرى التاسعة عشرة لاستشهاد الرئيس المؤسس ياسر عرفات، بما في ذلك مراسم تسليم جائزة ياسر عرفات للإنجاز لعام ٢٠٢٣، إلى موعد لاحق.

وقد وزعت المؤسسة مُلصق الذكرى (البوستر) على أوسع نطاق ممكن، كما جرى وضع مُصلقات كبيرة «البيل بورد» على بعض المؤسسات العامة ضمن إحياء الذكرى، كما تم إضاءة جدارية برج الهيئة العامة والإذاعة والتلفزيون في رام الله بملصق الذكرى.

كما أجرت المؤسسة عدة مُقابلات إذاعة وتلفزيونية، منوهّة بالدور الوطني الكبير للرئيس أبو عمار وأهمية استخلاص العبر من صموده وتمسكه بالثوابت الوطنية، وإصراره على الوحدة والوطنية دوماً.